المخطوطة السرية لجلابي ود عربي
الجزء الأول

ثلاثية لا وطن في الحنين
"ذاكرة الحب والمنفى في زمن الجنكويز"

أحمد ضحية

المخطوطة السرية لجلابي ود عربي
الجزء الأول

ثلاثية لا وطن في الحنين
"ذاكرة الحب والمنفى في زمن الجنكويز"

يحاول الروائي السوداني أحمد ضحية في ثلاثيته: (لا وطن في الحنين) تصوير الواقع والتاريخ السوداني من خلال شخصيات معاصرة تعاني من الصراعات الإثنية والدينية، فيتغلغل في تاريخ المكان وماضيه الأسطوري بحثا في الكيفيات التي تم بها إنشاء الدولة والممالك، بحكّام يتآمرون على بعضهم ويشعلون الحروب بصورة تعكس ما يجري الآن في الواقع المعاصر.

دكتور صبري حافظ

مجلة الكلمة، العدد ١١٣ سبتمبر ٢٠١٦

إهداء

إلى أهل البلاد الأسيرة.

معجم الرواية

جنكويـزي: كلمـة مركبـة مـن (**جنجويـد**)، وكويـز (جنكويـز) والكويـز تصغـير (**كـوز**)، والكـوز هـو الإسـلاموي (اشـتهر بهـذه التسـمية أعضـاء حـزب الـترابي).

جـاء في قواميـس اللغـة العربيـة أن الكيـزان مفردهـا كـوز وهـو إنـاءٌ بعُـرْوة مـن فخَّـار أو غـيره لـه أُذن يـشرب فيـه أو يُصَـبُّ منـه، ومـن هنـا جـاءت مقولـة مؤسـس جماعـة الإخـوان حسـن البنـا "الديـن بحـر ونحـن كيـزان نغـرف منـه".

وخـلال سـبعينيات القـرن المـاضي خاطـب حسـن الـترابي أنصـاره في إحـدى النـدوات بمقولـة البنـا، فراجـت بـين النـاس، وأصبـح الإخـواني كـوزا، وجمعهـم كيزانـا.

أمـا **الجنجويـد** "جنجاويـد" فهـو مصطلـح سـوداني مكـون مـن مقطعين هـما: (**جـن**) بمعنـى (جِنِّـي) ويقصـد بهـا أن هـذا الجِنِّـي (الرجـل) يحمـل مدفعـا رشاشـا مـن نـوع (جيـم ثـري) المنتـشر في دارفـور بكـثرة.

و(**جويـد**) تعنـي جـواد، جمعهـا جيـاد.. ومعنـى الكلمـة كاملـة (**جنجويـد**): الرجـل الـذي يركـب جـوادا ويحمـل مدفـع رشـاش جيـم تلاتـة.

وتطلـق كلمـة جنجويـد عـلى الرجـال الذيـن يقاتلـون مـن فـوق الخيـل بهـذه البندقيـة الآليـة التـي أشرنـا إليهـا.. والكلمـة تـأتي مـن (**جنجـد**) حسـب روايـات الجنجويـد أنفسـهم. وتعنـي (**النهـب المسـلح**) الـذي يحترفونـه في إقليـم دارفـور، إذ يقـول الواحـد منهـم (**نمـشي نجنجـد**) أي **ننهـب** ومنهـا أتـت تسـميتهم **بالجنجويـد**.

وقـد مزجنـا الكلمتـين جنجويـد وكويـز، لتصبـح **جنكويـز**، لأغـراض الروايـة.

الرنـدوك: هـو لغـة الهامـش السـوداني الثائـر ضـد السـلطة البائـدة.. والرنـدوك نـوع مـن اللغـة الخاصـة، خرجـت مـن رحـم حيـاة المشردين والمهمشـين، وقـد فرضـت نفسـها كأداة تواصـل ضـد النظـام البائـد، كلغـة بديلـة للغـة السياسـيين المملـة، تعبـيرا عـن رفـض هـؤلاء المهمشـين، للنظام قلبـا وقالبـا.. بـدء بلغـة خطابـه ومحمولاتهـا، وانتهـاء بممارسـاته.

وقـد تنـازل السياسـيون عـن أبراجهـم العاجيـة، وقامـوا بتوظيـف هـذه اللغـة عـبر تجمـع المهنيـين الـذي قـاد الثـورة السـودانية، الـذي أخـذ يسـتخدم الرانـدوم في بياناتـه وتوجيهاتـه وتحديـد مسـارات المواكـب والاعتصامـات والمسـيرات: "التحيـة للفـرد، نـاس الرصـة واسـياد المنصـة، السـانات، الراسـتات، النـاس الوقفـت قنـا، إلـخ..".

وهكـذا بهـذه اللغـة البسـيطة الخاليـة مـن أي تنظـير، اسـتطاع تجمـع المهنيـين السـودانيين، إقنـاع الشرائـح المهمشـة التـي هـي سـواد الشـعب الاعظـم! والتـي مثلـت العمـود الفقـري للثـورة، فشـعروا لأول مـرة بأنهـم (ذات) وليسـو (موضـوع) لخطابـات الساسـة.. بالتـالي أن هـذه الثـورة ثورتهـم، فهـي تعـبر عـن أحلامهـم بلغتهـم هـم وليـس بلغـة القـوى السياسـية المعروفـة.

ولـولا لغـة الرانـدوك أكاد أجـزم لمـا نجحـت الثـورة، فقـد تمثلـت في هـذه اللغـة أحـلام الفقـراء والمهمشـين والمشردين بـل حتـى الصيـع والضائعـين، السـجناء والمنفيـين، إنصـاف اللصـوص والمجرمـين.. وجـدت كل الشرائـح المقموعـة التـي تعيـش في الظـل نفسـها في هـذه اللغـة الخاصـة، التـي لا يفهمهـا سـواهم، ونجـح السياسـيون في تعلمهـا عـلى مضـض وتوظيفهـا لمخاطبـة، كل الشـعب.

جـلابي: تعنـي في اللغـة العربيـة، جَلَبـاً، وجَلْبـاً: أحـدث جَلَبَـة. وـ الجـرحُ: عَلَتـه الجُلْبـة. وـ الـدمُ: يبـس. وـ عليـه: جنـى. وـ لأهلـه: كسـب. وـ الـشيءَ: سـاقه مـن موضـع إلى آخـر. وهـو في السـياق الثقـافي السـوداني التاجـر الـذي يجلـب الرقيـق.

جداد: يميل السودانيين لاقلاب الحروف فيسمون الدجاج جداد.

سولونق أو صولونج: بلغة الفور تعني الأحمر أو العرّبي.

سورنق: تعني بلغة الفور سيد الأرض.

إيابـاسي: في نظـام الألقـاب في سـلطنة الفـور تعنـي أخـت السـلطان أو الأم الملكيـة

دالي: في اللغـة العربيـة تـأتي مـن دالاه: أي رفَـقَ بـه وداراه، أَو صانعـه، والسـلطان دالي المعنـي في الروايـة هـو إبـن أحمـد المعقـور الـذي توحـدت دارفـور تحـت حكمـه، وقـد كان دالي إبنـه مشرعـا ومدونـا عظيـما، تنسـب إليـه الهيكلـة الاداريـة والتشريعـات المتوارثـة في سـلطنة دارفـور.

المريسـة: في اللغـة العربيـة الجمـع: مَرَائِـسُ وتَنَـاوَلَ مَرِيسَـةً: أي تنـاول عَجِينَـة البَطَاطَـا الْمَسْـلُوقَةِ فِي الْـمَاءِ ومَـرَسَ: (فعـل) أي مَـرَسَ مَرْسًـا.

ومَـرَسَ الـدَّوَاءَ فِي الْـمَاءِ: أي أَنْقَعَـهُ، بمعنـى حَلَّـلَ أَجْـزَاءهُ إِلَى أَنْ تَـذُوبَ. والمريسـة في السـودان تعـادل البوظـة في مـصر، فهـي مـشروب كحـولي يصنـع مـن الـذرة.

الفداديـات: في اللغـة العربيـة: ف د د: والفَدِيـدُ هـو الصـوت وقـد فَـدَّ الرجـل يفـد بالكـسر فدِيـداً. ورجـل فَـدّادٌ بالفتـح والتشـديد أي شـديد الصـوت وفي الحديـث { إن الجفـاء والقسـوة في الفَدَّاديـن } وهـم الذيـن تعلـوا أصواتهـم في حروثهـم ومواشـيهم. وفي الاسـتخدام السـوداني فداديات جمـع فداديـة، أي المـرأة التـي تديـر بيتـا للخمـر البلـدي.

الكانجي مورو: نوع من الخمر البلدي.

العسلية: نوع من الخمر البلدي يصنع من السمسم غالبا.

الحِلَّة: الحي

ساورا: واحد من شلالات جبل مرة، تم توظيفه هنا كمملكة بائدة لاغراض الرواية.

الميرم: بلغة الفور تعني الأميرة

آري: السلطان في لغة الفور

البنقو: نوع من الحشيش

الخلوى (الخلوة): المدرسة التقليدية لتحفيظ القرءان، وتستخدم أيضا بمعنى مكان إقامة الضيوف.

القطاطي: أكواخ مبنية على نحو خذروفي الشكل إلى حد كبير، قد تشيد قاعدتها من الطين، وفي هذه الحالة تسمى دُردُر، وقد تشيد من العيدان والقش فقط فتسمى قطية. لكنها في الحالتين تتخذ الشكل المعماري نفسه

الصريف: سور من القش والشوك.

الدخن: نوع من الذرة الرفيعة.

دمور: نوع من القماش القطني

النبق: ثمرة شجرة السدر

القنقليس: ثمرة شجرة التبلدي

الدوم: من النخيليات، ثمرة الدوم بحجم ثمرة المانجو تقريبا، وهي ثمرة صلبة وقوية.

اللألوب: ثمرة شجرة الهجليج.

المُرين: مزيج من الشطة والعصارة الصفراوية التي تفرزها المرارة وتوابل معينة، يتم أكلها مع شواء المناصيص، وهي تساعد على هضم الدسم.

المناصيص: لحم الضان أو الغنم الذي يتبل في دارفور بطريقة معينة ويشوى.

المشك: الذرة المخمرة التي تتبقى بعد تصفية خمر المريسة (البوظة) منها.

المفراكة: آلة خشبية على شكل حرف تي الانجليزي، تستخدم في طهي الاطعمة اللزجة كالملوخية والبامية. ومنها جاءت كلمة بامية مفروكة وخدرة (ملوخية) مفروكة وهلمجرا.

البُرمة: إناء فخاري يشبه القُلة. يستخدم لحفظ عجين الذرة التي تصنع منها الكسرة (الخبز).

البنقو: نوع من الحشيش.

الطب: السحر (العمل). يمارسه المشعوذين للاضرار بالناس.

المعراقي: هو الشخص الذي يشتغل في السحر، وصاحب معرفة بالعروق أي نباتات معينة ترتبط باسرار السحر.

حبال السلب: حبال غليظة تجدل من السعف، أو القماش.

(**دار: صباح، الريح**): يسمي السودانيون القدامى في غرب السودان الشرق بدار صباح إذ تشرق الشمس وتصبح في الشرق، أولا.

ويسمون الجنوب **بالصعيد** والشمال **بالسافل**، إذ ينحدر النهر من أعلا (الجنوب) إلى أسفل (الشمال). كما يسمون الغرب **بدار الريح** لظنهم أنه موطن الرياح الغربية.

الشراقن جمع شرقانية: قطعة (حوالي مترين في متر ونصف) تنسج من قش النال، تسور بها البيوت في الأرياف، أو تعرش بها سقوف بيوت الطين.

قيف البحر: يطلق السودانيين على النهر بحر، والقيف هو الشاطئ.

الأقشي: شرائح لحم أو إمعاء البهيمة تتبل بطريقة خاصة، تخصص في ذلك السودانيون من أصول نيجيرية. أو غرب أفريقية.

القدوقدو: مزيج الدخن واللبن الرايب والسكر.

الفصل الأول

I

وإذن، يـا سـلمى.. أحلامـي وحدهـا، هـي التـي سـمحت بـأن أراك تتقلبـين في احضـاني. عـلى حافـة حفـرَّة مـن نـار، يتوهـج جسـمك بالحيـاة، و تتوقـد فيـه ألـف جُـذوَّة وجُـذوَّة!

أحلامـي، جعلتـك تنامـين بـين ذُراعـي، وكإلـه صغـير مغـرور، تسـكنه الغبطـة إثـر كل مـرة، يفـرغ فيهـا مـن خلـق حبيبـة، تعطـي أحلامـه نكهـة المـاضي القديـم للبـلاد الكبـيرة.. نكهـة وقائـع مـا جـرى في مملكـة سـاورا.. نكهتنـا الأبديـة التـي ليـس لهـا مثيـل!

أحلامـي في هـذه اللحظـة تشـتعل، وقـد اقتربـت العربـة النقـل الكبـيرة منـي بسرعـة خاطفـة، تـصرخ بوجهـي، وتربكنـي، فتختلـط المشـاهد والوقائـع والصـور والذكريـات!

تثلجت أطرافي وتسمرَّت على الأرض.. وكاد قلبي أن يتوقف عن الخفقان!

وفي اللحظـة ذاتهـا التـي أصبحـت فيهـا، تحـت رحمـة عجـلات العربـة، صحـوت مـن نومـي مفزوعـا يتصبـب جسـمي عرقـاً! و كل الخواطـر التـي سـكنتني عـن "جـلابي ود عـربي" وناسـها، تـدور دفعـة واحـدة بـرأسي، متداخلـة مـع وقائـع حيـاتي وتجاربهـا، كشريـط سـينمائي، منـذ النشـأة الأولى في المدينـة الريفيـة، إلى أن انتهـى بي المطـاف مهاجـراً.. هاهنـا، في المنـافي البعيـدة!

كأني أتجـول الآن في شـتاءات جـلابي و صيوفهـا.. أزقتهـا.. دروبهـا.. ناسـها وحياتهـم المثـيرة، التـي لا تخلـو مـن شـقاء!

في الشـتاء تصـاب جـلابي ود عـربي بهـاء السـكت، إذ يخيـم الصمـت الزائـف عـلى كل شيء، فـلا تعـد تسـمع سـوى زفيـف ريـح الشـتاء البـاردة،

وهـي تحتـك بقـش البيـوت. أو تتسـلل شـقوق بيـوت الطـين.

في الشـتاء بقـدر مـا يعـم الصمـت الأزقـة، والـدروب العطنـة و البيـوت الواطئـة، الفائحـة بروائـحٍ سـبخة، إلا أن دواخـل النـاس في جـلابي، تلتهـب و تصطـرع فيهـا الحـرق، بصـورة مميـزة عـن أشـهر الصيـف القائظـة.

عندمـا يحـل الشـتاء عـلى جـلابي، تتدهـور أسـعار "المريسـة" وتصبـح "الفداديـات" صاحبـات الانداديـات؛ عـلى شـفا الإفـلاس. لـولا رواج "العرقي" الـذي بالـكاد يحفـظ تجـارة الخمـور البلديـة مـن الانقـراض، و يسـمح لهـا بالاسـتمرار!

ولذلــك منــذ وقــت مبكــر قبــل حلــول الشــتاء، تبــدأ الفداديــات في حفـظ أواني وعـدة صناعـة المريسـة غـير المرغوبـة في هـذا الفصـل، ويخرجـن أواني وعـدة صناعـة العرقـي، التـي كـنّ قـد خبأنهـا منـذ نهايـة الشـتاء المـاضي، هـذا إذا كانـت الفداديـة متخصصـة في نـوع واحـد مـن الخمـر حسـب الفصـول!

ولكــن هنــاك نــوع آخــر مــن الفداديــات إذ إلى جانــب إهتمامهــن بصناعــة المريســة، يصنعــن العرقــي، في الصيــف!

وهــؤلاء كــنّ مــن ذوات الثقافــة الاقتصاديــة الرفيعــة، التــي تعتمــد "التنويــع الإنتاجــي" فتمــضي بعضهــن إلى إضافــة صنــف آخــر مثــل "الكانجـي مـورو" أو "العسـلية" أو غيرهـا مـن الخمـور البلديـة اللطيفـة!

لكـن الفداديـات بصـورة عامـة تزدهـر صناعتهـن الأساسـية (المريسـة) صيفـاً، وإذا كـنّ لسـنّ مـن رواد التنويـع في الأصنـاف، يتجهـن شـتاء إلى تجـارة الجنـس، التـي تجـد في هـذا الوقـت مـن العـام إزدهـارا، يفـوق ازدهارهـا في الفصـول الأخـرى، وهكـذا يشـهد الطريـق الى جلابي في الشـتاء، إبتـداء مـن الظهـيرة حركـة دؤوبـة، لطـلاب وطالبـات التسـلية والمتعـة، مـن مثليـي ومثليـات المدينـة الريفيـة والمـدن المجـاورة!

فتيـات أشـكال وألـوان، مـن كل الأعـمار و التوصيفـات: عزبـاوات، متزوجـات، هاويـات، محترفـات، مدفوعـات جميعـن بالحاجـة للـمال، وربمـا المتعـة والـدفء فحسـب!

لم يكـن السـلوك المثـلي بعامـة، ضمـن الثقافـة الجنسـية لجـلابي، ففـي بدايـات نشـأة هـذه (الحِلّـة) كان يتـم النظـر لمثليـي الجنـس، ككائنـات غريبـة! وافـدة مـن عـالم آخـر غـير عـالم (جـلابي)، الـذي لم يكـن بعـد، جـزء مـن حركـة انتقـال الثقافـة و المعلومـات.

ولكـن منـذ أن حـلّ (حسّـان جـداد وأدروب وسـت البنـات العشـمانة) بجـلابي، حتـى أصبحـت كل المفـردات البذيئـة، مألوفـة ومتداولـة وشـائعة ومعـترف بهـا، عـلى نحـو غـير رسـمي، في القامـوس الشـعبي لجـلابي ودعـربي.

والـذي حـوى الى جانـب ذلـك غرائـب مفـردات اللغـة العربيـة، ولغـات البـلاد الكبـيرة الأخـرى، في هـذا الحقـل الهـام من حقـول المعرفة الإنسـانية، التـي تهتـم بأكـثر الجوانـب سريـة، في حيـاة الأفـراد والجماعات!

أشـار (صديقـي حسـن) إلى أن التقاريـر والوثائـق، التـي كُتبـت المخطوطـة السريـة عـلى هداهـا، زعمـت أن (مملكـة سـاورا) التـي كانـت بهـذا الموقـع حيـث جـلابي الآن، أكـدت وجـود ممارسـات مثليـة، حسـبما فهـم الأثاريـون، بعـد تفكيكّهـم اللغـة الإشـارية والرَّمزيـة، التـي وُجـدت عـلى جـدران مـا أسـموه بـ (حانـة أتنـي الكبـيرة).

لكـن إشـارات ورسـوم أخـرى في المدينـة الأثريـة المكتشـفة، تعـود إلى عهـد مملكـة سـاورا الإسـلامية، أي مرحلـة متأخـرة مـن تاريـخ سـاورا، نفـت ذلـك عـلى إطلاقـه، إذ حـصرت النشـاط المثـلي بـين النسـاء الملكيـات!

في هـذا الفصـل مـن السـنة.. الشـتاء، إذن.. تشـهد جـلابي توافـد مثليـي الجنـس، مـن كافـة الأعـمار والأشـكال والألـوان، يجيئـون بثيابهـم الزاهيـة،

التـي لا تعكـس روح هـذا الفصـل الكئيـب!

كـما يشـهد هـذا الفصـل توافـد الموظفـين والعـمال بصـورة أكـثر انتظامـا، رغبـة في الجنـس والعرقـي!

ثمـة تجـارة لم تكـن ضمـن النشـاط الاسـتثماري، في الثقافـة الاقتصاديـة لجـلابي. هـي تجـارة "البنقـو" والحشـيش. إذ بـدت هـذه التجـارة ترسـخ أقدامهـا، بعـد دخـول بعـض المسـؤولين النافذيـن، في (الدولـة الجنكويزية)، كموردين سريـين، بعـد أن شـاعت الرشـاوَّي في مطـارات وموانـئ البـلاد الكبـيرة، وأصبـح التهريـب محميـا بأجهـزة الدولـة!

وكذلـك إثـر المجاهـدات والنضـالات الفـذّة، لمزيـد الحلبـي وكسـبان الضّـاوي وأليكـو الفـلاتي!

ففـي البـدء وجـدوا كصغـار موزعـين، كثـيرا مـن العوائـق والعقبـات، بسـبب الاعتقـاد الشـائع في جـلابي، بحُرمـة الحشـيش والبنقـو والسـجائر الأحمـر (العـادي ده!) دونـا عـن سـائر الخمـور والأدخنـة! ولكـن بعـد النشـاط التنويـري المكثـف، لمزيـد الحلبـي وكسـبان الضـاوي، والفـلاتي أليكـو أقتنـع أهـالي جـلابي، باسـتثناء جـداد وبعـض الذيـن يوالونـه مـن التجـار، أنـه لا توجـد آيـة واحـدة حرَّمـت الحشـيش والبنقـو، عـلى عكـس العرقـي والمريسـة!

مـع أنهـم كانـوا لا يحفظـون من كتاب الله كله، سـوى قل هـو اللّه أحد!

هذه "الفتوى" هدأت بال جماهير شعب جلابي قليلا!

كـما أن كسـبان ومزيـد، أعطيـا مسـألة الاتجـار بالبنقـو والحشـيش، بُعـداً وطنيـاً ثوريـاً في غمـرة حماسـتهما، ضـد المخـدرات "الإسرائيليـة" التي باتـت تجتـاح جـلابي الآمنـة، عـن طريـق دار الريـح، محملـة عـلى اللـواري القادمـة مـن "نيجيريـا" فـكان ذلـك ضمـن أجنـدة ندواتهـم، التـي جعـلا شـعارها الدائـم:

"مقاطعة المخدرات الإسرائيلية، وضرب عملاء أسرائيل في جلابي: واجب وطني"!

كانا يفردان مساحة واسعة، للحديث عن أنواع المخدرات في البلاد الكبيرة. ويتحدثان إلى الحضور، عن سلسلة نسب "البنقو الغرباوي" أو "وارد دار الريح" منذ اكتشفه الجنكويزي سمعان "بنقيتو" أثناء تجواله بغنمه في الخلاء الواسع بين سهول تبستي وأزوم وأطلس!

والبنقو والحشيش الشرقاوي، الذي يضرب بجذوره، إلى ثمانية آلاف سنة خلت، في الهضبة الأكسومية.

حيث أكدت وقتها الكنداكة النجاشية، قبل إعطاءها حق الحماية واللجوء، للعرب المسلمين الهاربين من القمع، والانتهاكات واسعة النطاق، لحقوق الإنسان في (مكة) كان "يصطبح" كل صباح، على سيجارة عظيمة، على غرار أسلافه.

وتحت تأثير هذه السيجارة الصباحية بالتحديد، والتي كان يعدها له خصيه الأول، من نبات البنقو المزروع بعناية، في أخصب بقعة من الحديقة الملكية المقدسة، عند ذروة سنام الهضبة الأكسومية! كانت تترى على خاطره كل الأفكار المثالية التي اشتهر بها!

إذن تحدر نسب البنقو الشرقاوي العريق، جيلا إثر جيل، من هذا المكان المبجل منتشراً إلى الجوار، حتى وصل جلابي المنسية!

لكن كل هذه الأنواع، لا تضاهي البنقو الجنوبي، الذي يعود تاريخه إلى ممالك الزولو والبانتيو، اللتان نشطتا في تصديره الى السونغاي ومالي. وهذا النوع من البنقو لتميزه، أطلق عليه أهل جلابي "مسكين أنا وقلبي انجرح" على التوالي!..

وفي لحظات تجلياتهم الكبرى، يتندرون حوله بأنه الكافر، الوثني، المشرك، المتمرد الحبيب، اللذيذ!

هـذا غـير التعابـير الأخـرى مثـل: "الفيـل والطـراوة والنكهـة والتونسـية وقطـار عجيـب وعجوبـة، إلى آخـره مـن التسـميات الحميمـة، التـي دأبـت أجهـزة الأمـن عـلى التحقيـق مـع مروجيهـا!

وتقـول الأسـطورة أن البنقـو الجنـوبي هـو نبـات مقـدس، كان "الإلـه لانجـور" يـداوي بـه جرحـى الحـروب الأهليـة الطاحنـة! ويشـفي بـه الأكمـه والأبـرص، بعـد أن يغمسـه في دم غزالـة بكـر بنـت بكـر، أي أنهـا البكـر بـين أشـقائها، وأن أبويهـا أيضـا بكريـن، عـلى رأس قائمـة أشـقائهم مـن الغـزلان البريئـة!

وبسـبب هـذه الأسـطورة أعتقـد الأهـالي (البعـض عـلى الأقـل) أن هـذه النبتـة المباركـة، تحـرس البيـت مـن الأرواح الشريـرة، إذا تـم تعليقهـا بطريقـة معينـة، بحيـث تتـدلى مـن سـقف البيـت جنبـا إلى جنـب مـع مشـلعيب!

ولكـن هـذا الاعتقاد يدخلهم في معضلة عظيمة، مـع مكافحة المخدرات، بحيـث يتمزقـون بـين القانـون الرسـمي، واعتقاداتهـم الموروثـة المقدسـة!

وهكـذا تعتـبر هـذه النـدوات، التـي تصـدى بهـا كسـبان ومزيـد، للحمـلات المضـادة مـن جـداد، محطـة هامـة في ابتـداع فكـرة المهرجانـات والمواسـم الثقافيـة بجـلابي!

كـما أنهـا شـكلت منعطفـا في مسـيرة إغنـاء القامـوس التعبـيري الرسـمي، للبـلاد الكبـيرة ككل. ورفـده بغرائـب الكلـمات، التـي تطـورت بمـرور الوقـت، إلى لغـة قائمـة بذاتهـا، لهـا قواعدهـا ونحوهـا وصرفهـا واشـتقاقاتها و مبتدؤهـا وخبرهـا، سـميت بلغـة "الرنـدوك" ونسـبت إلى مجموعـة اللغـات الجلابيـة العريقـة!

لم يجـد جـداد في نهايـة الأمـر جـدوى، مـن الـصراع مـع كسـبان ومزيـد، فحـاول في فـرص النقـاش، التـي يطلبهـا في النـدوات، أن يوسـع

دائـرة المقاطعـة، لتشـمل كل "البضائـع الإسرائيليـة، الصهيونيـة والامبرياليـة العالميـة!"

فلـم تجـد محاولاتـه هـذه، لحـرف الخـط الدعـائي، الـذي انتهجـه كسـبان ومزيـد، قبـولا لـدى الأهـالي، الذيـن كانـوا عـلى الرغـم مـن بسـاطتهم، لا يصدقـون مـا أسـموه: "كلام فـارغ!"

فالأهـالي لم يحـدث لهـم أن رأوا "خواجـة" عيانـا بيانـا، بحكـم موقـع جـلابي مـن الجغرافيـا والتاريـخ، ولذلـك لم يكـن مـن الممكـن أن يعـادوا (الإنبرياليـة) التـي لم يتشرفـوا بمعرفتهـا أصـلا، كـما أنهـم لا يعرفـون، أيـن تقـع هـذه (الإنبرياليـة) اللعينـة، مـن جغرافيـا البـلاد الأسـيرة، والخريطـة العامـة لضواحـي جـلابي المؤمنّـة!

وهكـذا سـقطت محـاولات جـداد، لحـرف أفـكار السـواد الأعظـم في جـلابي، سـقوطا مريعـا جعلـه يهـرب إلى الأراضي المقدسـة!

أسـعد هـذا السـقوط جهـاز مكافحـة المخـدرات (للمفارقـة). فلـم يقـم بـأي محـاولات لتعويـق خطـة كسـبان ومزيـد (في البدايـة فقـط) لكـن بعـد ذلـك بوقـت طويـل، أصبـح بيـت مزيـد وكسـبان عرضـة لحمـلات التفتيـش، مـن قبـل المكافحـة بـين آن وآخـر، خاصـة عنـد اقـتراب نهايـة الشـهر، ومواعيـد صرف "المواهـي!".

ومـع أنهـم في كل حملـة، كانـوا يقلبـون بيـت مزيـد رأسـا عـلى عقـب، إلا أنهـم لم ينجحـوا عـلى الإطـلاق، في معرفـة المخابـئ السريـة، أو أسـاليب الترويـج التـي يتبعهـا كسـبان ومزيـد!

لكـن قبـل ذلـك، وكـردة فعـل عـلى سـقوطه، دعـى جـداد أهـالي جـلابي إلى نـدوة حشـد، لهـا الكـراسي والصيوانـات والميـاه الغازيـة والبلـح، والباسـطة والإنـارة بالوابـورات الجـاز "جنريـترات". وعلـق عـلى مقدمـة الصيـوان، قطعـة كبـيرة مـن القـماش كتـب عليهـا بالخـط الكـوفي:

(جلابي ود عربي تحذر أميركا للمرَّة الآخيرة.. بن لادن بطل قومي).

جـاء أهـالي جـلابي. أكلـوا البلـح والباسـطة وشربـوا الحليـب والميـاه الغازيـة، ومـا أن بـدأ جـداد في ندوتـه يتحـدث عـن العـراق والاحتـلال، إلـخ.. حتـى انفـض أهـالي جـلابي إلى بيوتهـم واشـغالهم، وقـد اعترتهـم دهشـة عظيمـة، فهـم لم يتخلصـوا بعـد مـن قصـة إسرائيـل، ولم يفهمـوا علاقـة بلدتهـم المسـكينة بالامبرياليـة، وإذا بجـداد يرميهـم بحكايـة العـراق وبـن لادن، فمـن المؤكـد لـو مكثـوا في النـدوة سـيتعرض الرجـل لقصـة فلسـطين وأقاربهـم في البوسـنة!

وتعبيراً عن غضبهم أشاعوا أن جداد جنّ! ولسان حالهم يقول:

"مـال (التومـة سـت العرقـي) ومـال العـراق واسرائيـل، حتـى تهـدد جـلابي ود عـربي أمـيركا أو تقاطـع الانبريالية؟!..ومـن هـو بـن لادن هـذا؟ أنـه حتـى لم يولـد في نواحـي جـلابي ولا يهمنـا أمـره!"

أشـاع حينهـا بعـض الخبثـاء، الذيـن أرادوا إسـتغلال الموقـف، أن جـداد عنـصر إرتبـاط خطـير في شـبكة إرهابيـة، تتبـع للظواهـري!

وكان مزيـد الحلبـي في هـذا الوقـت، قـد تخـلى عـن عملـه في الملجـة كحـداد، وأسـتقر بصـورة نهائيـة في جـلابي، التـي أصبـح يلازمهـا مـع انتعاش تجارتـه، ولا يغادرهـا إلا نـادراً.

في واقـع الأمـر ليـس هـذا هـو مـا يميـز جـلابي عـن "الحـلالات" و"الفرقـان" الأخـرى، فـما يميزهـا حقـا هـو الطابـع التراجيكوميـدي، الـذي وسـم حيـاة سـكانها بطابعـه!

ومـع ذلـك، الطابـع الـذي منحهـم خصوصيـة تميزهـم، عـن سـائر مخلوقـات اللـه وكائناتـه العجيبـة، في البـلاد الأسـيرَّة.. هـذه الخصوصيـة تمثلـت في قـدرة أهـالي جـلابي عـلى الفـرح، رغـم مـا يتعرضـون لـه مـن كشـات وسـجون، قـد تطـول مددهـم فيهـا أو تقـصر.

وعـلى الرغـم مـن إيماناتهـم الدينيـة العميقـة، كانـوا يوائمـون هـذه الايمانـات الدينيـة العميقـة وسـلوكهم، الـذي لم تشـهد لـه "الليبراليـات الراديكاليـة" عـبر التاريـخ المعـاصر مثيـلاً!

فأهـالي جـلابي إيمانهـم عجيـب وغريـب: ففـي لحظـة هـم ملحـدون ولا دينيـون، سـاخطون عـلى الديانـات والمؤمنـين بهـا، وفي لحظـة أخـرى ليـس كمثلهـم أتقيـاء، وبـين اللحظتـين يتقلبـون في سـلوكهم اليومـي بـين التحفـظ والتحـرر والإنحـلال التـام!

قابليـة أهـالي جـلابي الذيـن قسـمهم الرسـمي هـو (الطـلاق) -الـذي لا يقسـمون بـرب غـيره!- عـلى اسـتقبال الجديـد مدهشـة، فعـلى الرغـم مـن أن الكهربـاء هـي اخـتراع يسـمعون عنـه فقـط، وبالتـالي تلفزيوناتهـم كلهـا تعمـل ببطاريـات العربـات.

ومـع أنهـم ليسـت لديهـم قنـوات فضائيـة، و الأنترنـت ليـس ضمـن ثقافتهـم، إلا أن جهـاز الفيديـو الوحيـد في جـلابي، والـذي يملكـه مزيـد الحلبـي، جعلهـم يتصلـون بعـالم الموضـة والأزيـاء، وأحـدث تقليعـات التسريحـات في العـالم، مـن أقصـاه إلى أدنـاه.

إلى جانـب أنهـم إبتـداءً مـن دخـول جهـاز الفيديـو، بواسـطة مزيـد الحلبـي، أصبحـت لديهـم معرفـة مثـيرة بأنـواع الأوضـاع الجنسـية، عـلى الطريقـة الفرنسـية والإيطاليـة والهولنديـة والأمريكيـة، فأصبـح ليـس مـن المسـتغرب، أن يجـد أحدهـم في مـكان مـا بـين أوشـام الثعابـين عـلى فخذي عشـيقته، حلقـة مـن الذهـب أو أسـورة مـن الفضـة!

فثقافـة التتـو Tattoo خرجـت بقـدرة قـادر مـن أعـماق أكسـوم الغابـرة، لتنـشر الرسـوم المقدسـة للأفاعـي والطيـور والأزهـار والـورود البريـة في الكتفـين، أو النهديـن أو الردفـين. وهكـذا ازدهـرت صناعـة الأوشـام المثـيرة، كصناعـة فنيـة مبهـرة مـع دخـول الفيديـو، الـذي مثـل

مرحلة تحول كاملة، وانتقال من ثقافة البلاد الأسيرة الكلاسيكية، إلى آفاق العولمة الرحبة!

فمزيد الحلبي كان رجلا خصب الخيال، لذلك لم يكن يكتفي بإحضار شرائط الأفلام فحسب، بل كان ينتقي إلى جانبها شرائط الموسيقى والرقص الأفريقي والغربي والبرامج والمسلسلات الممتعة المترجمة مثل أوبرا oprah و law & order ونيكيتا، وغيرها.

هذه المسلسلات و البرامج جعلت النساء والرجال في جلابي، يكتشفون كم هي بائسة حياتهم السابقة! خالية من متع وزينة الحياة. وهكذا ظهرت طبقة من المثقفين الذين أطلقوا على أنفسهم فيما بعد: (علمانيو جلابي ود عربي التقدميون.)

عندما يحل المساء يحضر الكثيرون من أهالي جلابي، يتزاحمون أمام بيت مزيد الحلبي لشراء التذاكر من خميس، الذي كان مزيد قد أوقفه في الباب، حتى يتمكنوا من الدخول لمشاهدة الفيديو.. وعندما شاهدوا للمرة الأولى نيكول كيدمان في the others تبدى العقل الأسطوري لجلابي كاشفا عن مواهبه الدفينة، على الرغم من أنهم بكوا كثيرا لقتل بطلة الفيلم لطفليها، وانتحارها وبقاء أرواحهم الثلاثة معلقة بين العالمين، فأصبح البعض يختبئون عند منعرجات الدروب ليخيفوا المارة! وسبب لهم ذلك خوفا لم تستطع أفلام الفضائيين An aliens ومصاصي الدماء Vampires من تحقيقه.

وعلى عكس ذلك، أسعدهم روبين ويليامز في جماعة الشعراء الأموات the dead poets society على الرغم من الكآبة الرومانتيكية التي أزعجت حساسيتهم، والتي تنضح من هذا الفيلم، ورغم كل شئ، شعب جلابي هو شعب واقعي لكن حساس أكثر من اللزوم!

ومن الأفلام التي ظلوا يحكونها لبعضهم البعض، وعبرت عن

تطلعاتهـم غـير المشروعـة في القـوة الغاشـمة، فيلـم تـوم كـروز المهمـة المسـتحيلة the mission impossible وأفـلام الحـرب والمخابرات عموما.. والغريـب في الأمـر أن مجتمـع المشـاهدة في جـلابي، انقسـم إلى مجموعـات. مجموعـة تحـاول أن تفـرض عـلى الآخريـن، مشـاهدة المباريـات الرياضيـة المختلفـة: ملاكمـة، كـرة، سـباق، الـخ..

وأخـرى تحـب أفـلام روكي والحـرب الأمريكيـة الفيتناميـة ورعـاة البقـر وجوالـة تكسـاس، وتلـك الأفـلام التـي عـلى غـرار فيلـم ويـل سـميث the independence day أو جـون ترافولتـا ونيكـولاس كيـج Face off وأخـرى لا تحـب شـيئاً سـوى الأفـلام الهنديـة، ولا تـزال مغرمـة بـ "مـن أجـل أبنـائي" مـع أن أبنـاء جـلابي في العمـوم، كانـوا أبنـاء عاقـين، وآبائهـم أنفسـهم الواحـد منهـم يشـتم إبنـه بـ يـا إبـن الكلـب! آنـاء الليـل وأطراف النهـار!

وانطلاقـا مـن هـذه التغيـيرات، التـي اعـترت جـلابي وأزعجـت جـداد، قـرر الأخـير جلـب جهـاز تلفزيـون و فيديـو كبـير، ووابـور لتشـغيله بـدلا عـن بطاريـات العربـات.

وأخـذ يشـغل الأفـلام المصريـة القديمـة (أبيـض وأسـود) كالوسـادة الخاليـة لعبـد الحليـم ولبنـى عبـد العزيـز، أو سـعاد حسـني ونادية لطفي في للرجـال فقـط أو شـكري سرحـان وتحيـة كاريـوكا في شـباب امـرأة!

فقـد كان جـداد يعتقـد أن هـذه الأفـلام إسـلامية عاصيـة، أقـل خطـراً مـن أفـلام الكفـار!.. ولذلـك كان بـين كل فيلمـين مـن هـذه الأفـلام، يشـغل أشرطـة لأحمـد ديـدات و عمـرو خالـد والقرضـاوي، وإبـن عثيمـين وغيرهم مـن مُـلاك الحقيقـة المطلقـة والأدعيـاء!

لكـن لم تجـد خطـة جـداد رواجـا، فسرعـان مـا مـلّ النـاس أفلامـه وخطبـه "الإسـلامية" المزعومـة!

هـذه المشـاهدات لأفـلام الفيديـو المتنوعـة، جعلـت لأهـل جـلابي ذوقـا رفيعـا في الأزيـاء والرقـص والغـزل والتحـرش وأشـياء أخـرى!

كـما انتـشرت بفضـل هـذه الأشرطـة حفـلات البـارتي، التـي أخـذ أهـالي جـلابي يقيمونهـا بسـبب وبـدون سـبب، فعندمـا أنجبـت كلبـة الـسرة، التـي كان أهـالي جـلابي يتهمونهـا بالعقـم، أقامـت الـسُّرَّة بـارتي لم تشـهد لـه جـلابي مثيـلا، منـذ ذلـك البـارتي الـذي كان جـداد قـد أقامـه، إحتفـاء بالتطـورات المهنيـة التـي حدثـت في حياتـه، مـا جعـل أهـالي جـلابي يطلقـون عليـه لوقـت غـير قصـير: الديـك الراقـص!

وهكذا كان أهالي جلابي، يمتلكون قابلية عجيبة على هضم كل جديد، في أي مجال من المجالات المتعددة للحياة، وممارسـاتها اليومية ومتعها ورفاهياتها!

ولذلـك كانـوا دونـا عـن سـكان الضّواحـي الأخـرى، التـي تشـبه جـلابي في كل شيء! يهتمـون بمشـاهدة أفـلام الجنـس أكـثر مـن أي شيء آخـر، رغـم أنهـم لم يكونـوا يعانـون مـن أي حالـة كبـت.

ربمـا كان ذلـك لحاجتهـم العلميـة الماسـة، و لعادتهـم في هضـم المعارف الوافـدة، أصبحـت العديـد مـن الأشـياء التـي تعرفـوا عليهـا، مـن أشرطـة الفيديـو المختلفـة، جـزءاً أصيـلاً مـن ثقافتهـم ومعارفهـم الجديـدة.

سـاعد عـلى ذلـك أن جـلابي تنهـض في الخيـال، بطبيعتهـا المعقـدة ذات التجليـات، أكـثر مـما تنهـض في الواقـع اليومـي. وربما لهـذا السـبب بالذات، ألهمـت الشـعراء مـن أبنائهـا، الذيـن بـرزوا بعـد ذلـك عـلى مسـتوى البـلاد الأسـيرَّة، أعـذب الأشـعار التـي طبقـت شـهرتها الآفـاق، وأصبحـت مفتتحـا لمهرجانـات الشـعر العالميـة.

كـما أن كل الكتـاب والروائيـين والتشـكيليين والمسرحيـين والمغنـين الذيـن انجبتهـم جـلابي، قـد قوبلـوا في مشـارق الأرض ومغاربهـا بترحـاب كبـير، أزعـج وزارة الثقافـة!

فقـد كان هـؤلاء بشـهرتهم الكبـيرة قـد جـردوا الـوزارة مـن مهمتهـا الأساسـية: تعريـف العـالم بثقافـة وإبـداع البـلاد الأسـيرة، فقـد أعطـت هـذه الشـهرَّة العـالم إنطباعـا كاذبـاً عـن وزارة الثقافـة، في ظـل حكومـات الجنكويـز المتعاقبـة!

فالصـورة الإبداعيـة، التـي عرفهـا العـالم عـن إبـداع البـلاد الأسـيرَّة، جعلـت الـوزراء في الـشرق والغرب، يتصلـون برصفائهـم المتعاقبين في جلابي، يدعـون المبدعـين عـن طريقهـا، إلى مهرجانـات ومؤتمـرات دولهـم، في حقول الإبـداع والمعرفـة المختلفـة، فتحـرج وزارة الثقافـة ولا تعرف كيـف ترد، لأن مبدعـي جـلابي لسـوء حظهـا، جميعهـم مـن المعارضـين، الذيـن يرفضـون السـفرعبرها لتمثيـل البـلاد الأسـيرة، الأمـر الـذي يضطـر الـوزارة للاسـتعانة ببعـض الجنكويـز الأدعيـاء، فيسـافر هـؤلاء ويعكسـون وجهـا قبيحـاً وفجـاً للعالم،عـن البـلاد الأسـيرَّة. مـا أضطـر كل الـدول المضيفـة، التـي كانـت ترسـل دعـوات للتوقـف عـن ذلـك، وهكـذا لحـق إبـداع جـلابي "أُمـات طـه" في موطـن أسـلافه في سـاورا البائـدة.. وغـاب تحـت حجـب النسـيان!

كل هـذا "كـوم" والسياسـيين الذيـن أنجبتهـم جـلابي كـوم آخـر، فقـد مثَّـل هـؤلاء جُرحـاً داميـاً ظـل "ينقّـح" داخـل وجـدان جـلابي قاطبـة!

فعندمـا يخـرج الواحـد مـن هـؤلاء إلى الضـوء، و يتربـع عـلى عـرش السـلطة، مثـل عبـاس ود الخزيـن وعبـد الجـواد ود الباهـي ومحمـد أحمـد ود مسـتورَّة، ينـسى جـلابي وأهلهـا و يلعـن "سلسـفيل" أسـلافها وسـلالاتها الضالـين والمغضـوب عليهـم، كـما ظلـوا يزعمـون في جلسـاتهم الخاصـة، ولا يقـدم لجـلابي أي شيء، تعبـيراً عـن جمايلهـا ووقوفهـا معـه في الإنتخابـات.

بـل يعمـل مـن موقعـه عـلى تضييـق الخنـاق عليهـا، ولذلـك كانـت مـن الهمـوم الكـبرى في جـلابي، عملهـا الـدؤوب، عـلى ألا يصـل أحـد أبنائهـا إلى دسـت السـلطة، ولـو في اللجـان الشـعبية! فقـد ملَّـت مـن الانقلابـات الجنكويزيـة وأخلاقهـا!

مـن جـلابي وحدهـا تسـتطيع استشـفاف تاريـخ البـلاد الأسـيرَّة، والتقلبـات التـي مـرّت بها في الإثنـي ethnic والاجتماعـي واليومي والثقافي.

عـلى مـسرح جـلابي المنصـوب في العـراء، قـدم مسرحييهـا الذيـن حصـل أغلبهـم عـلى جوائـز عالميـة كبـيرة، في التمثيـل والإخـراج والتأليـف، لكـن لم تسـمح لهـم الدولـة بالسـفر للحصـول عليهـا!

مـن هـذا المـسرح خرجـت روائـع المـسرح الوطنـي، التـي أصبحـت تُـدرَّس لتلامـذة المـسرح في بريطانيـا وفرنسـا وألمانيـا، وكل مراكـز الآداب والفنـون العالميـة، منـذ الانحسـار الهلينـي عـلى أيـام مملكـة سـاورا!

فأهـم السـمات التـي حملتهـا مدرسـة "جـلابي" المسرحيـة، أنهـا اسـتفادت مـن عـصر "البـاروك" في تعابيرهـا الحسـية، وأخـذت عـن "البيكيتيـة" عبثيـة هـذا العـالم في البـلاد الكبـيرة، وعـلى هـدى "كنـط" حاولـت اشـتراع عقلانيـة جذريـة في الإبداعـي!

هـذا المزيـج الغريـب، أدهـش العـالم، وأوقـف ضربـات قلـب المشـاهدين، الذيـن كانـوا يحبسـون أنفاسـهم منـذ لحظـة رفـع السـتار حتـى إسـداله!

قدمـت جـلابي دراما غـير معقولـة البتـة، اسـتطاعت أن تعكـس خلالهـا مباهـج "الإنسـان" وآلامـه، في هـذا المـكان المعـزول عـن العـالم والمسـمى "جـلابي ود عـربي" مـا جعـل أحـلام الأهـالي تتجـاوز مجـرد طـرد حكومـات الإسـتعمار المحـلي الجنكويزيـة، إلى نـوع مـن الحلـم الصـوفي، بالخـلاص والفـردوس المفقـود والمـدن الفاضلـة.

هـذا المـسرح الـذي قدمتـه جـلابي، اسـتطاع أن يضـخ معـان وقيـم جديـدة، جـددت دمـاء العـروق الجافـة للمـسرح العالمـي، خاصـة بعـد المرحلـة الشكسـبيرية الباروكيـة، التـي اسـتمرت لوقـت طويـل رغـم أنـف التاريـخ الفنـي!

II

كنت لا أزال مروعاً من العربة النقل الكبيرة، التي دهستني، فصحوت من نومي مفزوعاً تتداخل في ذهني عوالم جلابي وناسها، وأنا أراقب مسيرة حياتي منذ النشأة الأولى في المدينة الريفية، إلى أن انتهى بي المطاف ها هنا.

تلفت حولي في الغرفة المظلمة.. نهضت.. أضأت النور.. اتجهت إلى المطبخ.. فتحت الثلاجة وأخرجت زجاجة مياه معدنية..

بللت حلقي الجاف، و أخذت أجول ببصري بين علب البيرة "هاينكن" و"ستيلا" و"خمور الزبيبة والبراندي" المصرية رديئة الصنع، تشرئب زجاجاتها إلى شفتي اليابسة!

توقفت في منتصف الصالة، التي لا تزال بقايا دخان سجائر ليلة البارحة، عالقة في أرجائها كأنها دُخنت للتو!

يا لهذا الكابوس المرعب الغريب! أكاد أجن!! فهذه الأحلام التي تلاحقني كلما نمت، تجعلني لا أقوى على التمييز بينها، وبين الواقع الفعلي الذي أعيشه. ما عدت أعرف هل أنا هو أنا حقا، أم أنا صدى ذكرى بعيدة، في (مملكة ساورا البائدة) أو (مملكة الجوار) أو (الحلفاء) أو (مملكة الجبل والوادي) أو (جلابي ود عربي).. هذه البلدة التي عشت فيها عدداً من اللحظات، تبدو لي الآن لا متناهية..

هل أنا صدى لذكرى هائمة، في هذه الأماكن السحيقة أو القريبة! أم لي وجود فعلي! هو هذا الوجود الراهن، الذي استيقظ من الحلم/ الكابوس فزعا.. أضاء النور وفتح الثلاجة وجال ببصره في أنحاء الشقة و..

بالأمس حلمت بأنني في ساورا البائدة! أتنقل كروح تائهة في مشاعر وأحاسيس شعب الوادي لمئات السنوات..

قطعت معهم مسيرتهم الطويلة في التاريخ، حتى لحظة المبارزة بين ملكتهم الأخت القوية (أياباسي كيرا) و الفتى الشجاع من عامة الشعب (سولونق) الذي قاد ثورة استرداد (السلطان دالي) لملك أجداده!! وفقا لمزاعم المخطوطة السرية!

وكان قلبي يخفق بشدة كلما تلقى سولونق بسيفه، ضربة من ضربات سيف الكيرا.

قبلها كنت قد حلمت أنني في جلابي ود عربي.. تلك البلدة، التي رأيتها آخر مرة، قبل قرابة ربع القرن.. أجوب حواريها وزقاقاتها، متسللاً بوح حكاياها وأخبارها.

وعندما صحوت وجدت الحلم قد رمى بي مرَّة أخرى، إلى خاطر شعب الوادي!.. وهكذا بين خاطر شعب الوادي و جلابي ود عربي، ظللت أُراوِح محاولاً الإفلات، إلى اللحظة الرَّاهنة، التي أشك فيها هي الأخرى، أن تكون تمثيلاً لوجودي الحقيقي، في الزمان والمكان!

حدقت من نافذة الصالة، أحاول أن أخترق حجب ضباب الفجر، الذي يُحيط بالأهرامات التي تبدو بعيدة من هنا، ثم رددت بصري أحاول الوصول، إلى نهاية شارع الهرَّم، وأنا أقاوم في استماتة النُعاس، الذي لا يزال متواطئاً على دماغي، مع خمر ليلة البارحة، التي كانت لا تزال تسري، في رأسي وعروقي!

نمت واقفا أمام النافذة! ووجدت نفسي مرَّة أخرى أعود إلى مملكة ساورا، التي كانت في هذا المكان نفسه، الذي نهضت فيه بلدة جلابي ود عربي، بعد آلاف السنوات.

رأيتني جزء من ذاكرة سورنق ابن الراعي العجوز (دورة) كاهن

ساورا المبجل.. ولم أعد أشعر بذات الرعب، الذي كنت أحسه في البدايات، عندما أخذت هذه الأحلام تنطلق بي، لأجوب التاريخ والأماكن.. مختزلة الزَّمن والجغرافيا!.. وعندما أفقت من إغمائي، وجدت نفسي في حاضرة البلاد الأسيرَّة، مطارداً من قبل أجهزة أمن أبولكيلك الجنكويزي.

لا أذكر أنها اعتقلتني، لكن لا أستطيع أن أنسى أنه أغمي علي أثناء التعذيب!.. و عندما أفقت من إغمائي، وجدت نفسي في المدينة الريفية، وآثار التعذيب على جسدي ووجهي؟!

سألتني سارة شقيقة صديقي القديم حسن:

"يبدو أنك تعرضت للضرب! مع من تعاركت؟ و أين اختفيت كل هذه الأيام؟"

"أظن أنني كنت معتقلاً"

قلت باقتضاب.. ارتفع حاجبيها في دهشة! وساد صمت عميق بيننا، قبل أن يخرج صوتها مباغتاً.. في حضورها المهيمن على فضاء المكان.. وهكذا دون سابق إنذار؛ أخذت تحكي لي عن جلابي ود عربي وناسها!

III

خرجت سارة قبل منتصف الليل. أوصلتها قريبا من منزلها. ثم عدت أدراجي.. كنت منهكا. وما أن أسلمت نفسي للنوم، حتى وجدتني في القاهرة! بصحبة المير كلتوم!

أكاد أجن!.. لا أعرف هل هذه أحلام، أم هي واقع حقيقي أعيشه؟ عبر ظاهرة خارقة تختزل جسمي وتختزل الزمان والمكان، وتستعيد فيّ كل تلك العوالم المفقودة في التاريخ؟!.. المفقودة؟!.. لا أدري أيها هو المفقود، و إلى أي عالم من هذه العوالم أنتمي حقا!

هل أنتمي إلى المدينة الريفية، وجلابي في واقع الأمر، حيث تلك هي اللحظة الحاضرة لحياتي الفعلية، وما عدا ذلك هو محض أحلام أو أوهام، أثارتها وغذتها الوقائع والأحداث، التي قرأتها في (المخطوطة السرية) أم أن العكس صحيح:

بمعنى أنني جزء من المخطوطة السرية، كواحد من موضوعاتها التي تناولتها؟!

ربما يكون ذلك استنتاجا متسرعاً، إذ يبدو لي (ليس بصورة قطعية) أن لحظتي الحاضرة الفعلية، التي أعيشها هي في ساورا، وأنني باعتباري سيد الأرض سورنق أو دالي بن آري، أحلم بأن في هذه الرقعة من الأرض، ستنشأ ذات يوم بلدة أسمها: جلابي ود عربي.

وأن شاباً إسمه علي (أي أنا) يسكن المدينة الريفية، سيتردد عليها كثيرا، ليحل محل والده أثناء غيابه في متجره الصغير، الذي أنشأه بهذه البلدة، وربما يتعرض هذا الأنا، للاعتقال في حاضرة البلاد الكبيرة، فيهرب إلى مصر ويسكن في الجيزَّة، في شارع الهرّم تحديدا.. ويلتقي

هنـاك المـيرم كلتـوم، التـي اختفـت مـن المدينـة الريفيـة، عندمـا كان هـو صبيـاً صغـيراً، دون سـن المراهقـة!

لا أدري الآن أي شيء هـو الحقيقـي، وأي شيء هـو الوهـم.. أو الظـلال لهـذا الحقيقـي، أو تمثُـلات هـذا (الحقيقـي) البعيـدة.. كل مـا أُدركـه الآن هـو أننـي يجـب ألا أنـام، حتـى لا أحلـم أو أتوهـم أننـي أحلـم، وأجـد نفـسي فعـلا في مـكان آخـر عندمـا أصحـو (مثـل كل مـرة!).

IV

كانت الحياة قد عادت إلى طبيعتها، في اللحظة التي تهشمت فيها طبيعتي. بعد أن دهستني عربة النقل الكبيرة، وساوتني مع أسفلت الشارع. ففي هذه اللحظة القصيرة، التي تفصل بين الحياة والموت، مرّ على خاطري كل ذلك العالم المنسي لـ (جلابي ود عربي) تلك الحلة أو الحي أو المدينة الريفية العجيبة، التي أنهكت

المؤرخين، بما طرحته عوالمها من أسئلة عجيبة، حول جذور سلطتها، وممارسات ابولكيلك الجنكويزي ومن سبقوه:

كيف تمظهرت أسئلة السلطة في البلاد الكبيرة، هكذا.. مغايرة لكل أشكال ممارسة السلطة، في العالم الواسع؟!

لابد أن مظهرها البائس، يتعلق بمصدر إنتاجها، وهكذا.. كنموذج بدأ المؤرخون وعلماء الآثار بدراسة جلابي ود عربي، في بناها الاجتماعية، وحكايا ناسها، التي تكشف عن شيء من ذاكرة أسلافهم المجهولين.. وبالنتيجة تم اكتشاف: أن كل البلاد الكبيرة بعد أن وقعت في كمين الأسر، نهضت على أساس نموذج جلابي ود عربي، أو جلابي ود دينكاوي أو جلابي ود نوباوي.. إلى آخره!

لكن ظلت هذه الاستنتاجات التي توصل إليها المؤرخون وعلماء الآثار، مجرد مخطوطة لم يكتب لها النشر ككتاب ورقي محقق ومبوب، لوقت طويل، وعندما تمت طباعتها حدث ما حدث!

حول جلابي ود عربي أُلفت كثير من الدراسات والمقالات والأبحاث، التي حاولت الإجابة عن تاريخ جلابي ود عربي. ولكن كل ما كُتب عن جلابي ود عربي، لم يكن محققاً، كما أن فرضياته انطلقت من أسئلة غير صحيحة.

هـذه المقدمـات الخاطئـة، ترتبـت عليهـا نتائـج خاطئـة، ولذلـك مـن دون كل مـا كتـب، وجـدت المخطوطـة السريـة، التـي لم يقرأهـا أحـد! حظاً وافـراً مـن الشـهرة، وذلـك بسـبب الإجابـات الصحيحـة التـي توصلت إليهـا، بطـرح الأسـئلة الصحيحـة! التـي تبحـث في جوهـر المسـألة حـول تاريـخ جـلابي ود عـربي، الـذي نشـأت فيـه فكـرة السـلطة، وتشـكلت تلقـي بظلالهـا في أنحـاء البـلاد الكبـيرة!

النظـام الإداري الأهـلي في جـلابي ود عـربي، كان مـن الأمـور اللافتـة للنظـر، إذ كان هيـكلاً عجيبـاً. فيـه تراتبيـة مدهشـة! لم يجـد لـه أهـالي البـلاد الكبـيرة تفسـيراً، فشـكل حافـزاً لـكل الأسـئلة، التـي لم يتمكنـوا مـن الإجابـة عنهـا، إلا بعـد الكشـف الأثـري الألمـاني الشـهير، عـلى الرغـم مـن طـرد السـلطات مبكـراً، للبعثـة الأثريـة الألمانيـة، وإعـلان (جـلابي ود عـربي) منطقـة عسـكرية: تخضـع لسـلطة وسـلطان الجنكويـز النظاميـن.. ممنـوع الاقـتراب والتصويـر!

بالطبـع لم يعـرف أحـد بعـد ذلـك مـاذا يـدور داخـل هـذه المنطقـة المغلقـة، إلا أن بعـض الشـائعات زعمـت: أن بـن لادن اشـترى جـلابي ود عـربي، لأغـراض علميـة: (انتـاج اسـلحة بيولوجيـة ونوويّـة!) بينـما يـصر إعـلام النظـام الجنكويـزي، أنهـا مدينـة صناعيـة للسـيارات!

وكانـت قصـة إعـلان جـلابي ود عـربي كمنطقـة أثريـة في البـدء، قـد بـدأت بعـد الحريـق الكبـير، الـذي شـبَّ في جـلابي و أحرقهـا، مـن بدايتهـا إلى نهايتهـا، وأصبـح الأهـالي يقيمـون في العـراء، فأكتشـف أحدهـم عـن طريـق الصدفـة، بعـض التماثيـل والأواني أثنـاء حفـره، لنصـب أعمـدة خشـبية، لكـوخ صغـير، ليقيـم فيـه بعـد حريـق منزلـه، فاسـتوقفه ذلـك ومـضى يحفـر فأكتشـف أنـه في مدخـل معبـد!

وهنـا في هـذه اللحظـة بالـذات، تدخـل موظفـي تنظيـم القـرى ومعالجـة السـكن الاضطـراري، فأشرعـوا البـاب واسـعاً، لهيئـة الآثـار التـي

اكتشفت: أن المعبد الذي اكتشفه الرجل، هو في أطراف مدينة بائدة! وعندما توغلوا في الحفريات، بمساعدة البعثة الألمانية، فوجئوا بعالم أثري مبهر:

كانت المدينة الأُسطورية هي (ساورا) ذاتها "بشحمها ولحمها" تنهض أمام الجميع من قلب التاريخ المنسي، ومن أعماق حكايا الذاكرة الشعبية لجلابي ود عربي!

على جدران هذه المدينة البائدة، اكتشف علماء الآثار، وشوم القبائل التي سكنت ساورا، وتاريخ الممالك القديمة المتنازعة، كما وجدوا نوعا غريبا من الورق، فشلت كل أجهزتهم المتقدمة في التعرف على نوعه أو مكوناته، مكتوب عليه بما بدى واضحا أنها حروف خاصة جدا، ليست مطروحة للعامة من شعب (ساورا) العريق، إذ يتم التعامل بها فقط في دوائر الكهنة! حتى لا تتسرب أسرار علومهم المبجلة! إلى "ناس قريعتي راحت!".

لكن كان واضحا أن حروف اللغة: مزيج من الحروف اللاتينية القديمة، و حروف لغة الفور والنوبية القديمة. وعلى هذا الأساس جرت محاولات فك أسرار هذه اللغة.

إذن أصابهم بالذهول، هول ما وجدوه: تاريخ للوقائع والأحداث، التي شكلت مملكة ساورا، وأدت إلى إنهيارها، الأمر الذي طرح تساؤلات عدة، عن علاقة ذلك بجلابي والمدينة الريفية؟ وهل قادت الصدفة النازحين وعابري السبيل لإنشاء جلابي، أم هو الحنين الغامض لمملكة أسلافهم؟!

و(دودو) أو (بولدين) (الجد الأكبر) لمملكة الجوار أو الحلفاء، هل هو أبو لكيلك الجنكويزي أو حسان جداد؟

و(لاروي) شقيقة دودو: أليس من الممكن أن تكون هي السرّة.. والحلفاء وساورا ليسا أكثر من المدينة الريفية أو جلابي؟!

هـذا العـالم القديـم المبهـر، بمثابـة المركـز الـذي تنعكـس عـلى مرآتـه ظـلال جـلابي وإمتداداتهـا، مثلـما أن الممالـك المعـاصرة لسـاورا

(الحلفـاء والجـوار والجبـل والـوادي) مجـرد صـدى للصـوت الأسـاس الـذي تمثلـه سـاورا (جـلابي الآن).

V

تمتعت جلابي ود عربي من دون كل بلدات البلاد الأسيرة، بنوع من الحكم الذاتي، في المراحل المختلفة لحكومات الاستعمار المحلي الجنكويزية المتعاقبة، منذ خروج الاستعمار الانجليزي. عندما صدرت المخطوطة التي تضيء مناطق مظلمة من تاريخها، أصيبت الأجهزة الرسمية في البلاد الكبيرة (على اتساعها) بالهلع والخوف، فداهمت المطبعة التي طبعت المخطوطة، واستولت على كل النسخ التي وجدتها، واعتقلت أصحاب دور النشر، التي وصلتها المخطوطة، وقامت بمصادرة كل النسخ، التي تسربت إلى المكتبات!

أخذت أُقلب الشذرَّات التي بعث بها إليَّ صديقي حسن، والتي قال أنها مجتزأت منتزعة على عجل من أصل المخطوطة، بعد أن تمت طباعتها ككتاب.

في الحقيقة، حسن قال أنه استطاع التسلل، إلى مكتبة ود الخزين، فيما كان ود الخزين مشغولاً بتحضير "قعدة الشراب" المعتادة!

وصف حسن عملية الانتزاع العشوائي لعدد من الصفحات، بطريقة أسطورية، يحسده عليها أرسين لوبين والرفيق جيمس بوند!

بدى واضحاً أن هذه الشذرَّات غير متناسقة وعشوائية، لكنها، مع ذلك تُعطي فكرة ضئيلة عن موضوعها.. وقد تمنيت مراراً أن يحضر حسن وعبده الخال إليْ هنا..

في هذه البلاد البعيدة، لابد أنهما مفيدان في فك طلاسم بعض الرموز وإضاءة مغاليقها، لو قُدر لهما الحضور والتقينا.. ربما يكون بحوزتهما، الكثير والمثير عن تداعيات الأمور، حول مخطوطة جلابي ود عربي وتاريخها المجيد!

ما استوقفني في بعض الشذرَّات، التي بدى من الواضح، أنها تُرجمت من إحدى لغات البلاد الكبيرة الميتة، المزيج من عدة لغات، كما زعم حسن، دون أن يحدد هذه اللغة أو المجموعة التي تتكلمها الآن! هو بساطتها ومباشرتها ووضوحها وانسيابيتها في الحكي!

بالطبع اكتشفت هذا، بعد أن قمت بترتيب الشذرَّات، على نحو منطقي كما تراءى لي وقتها.. لكن الآن أشك أن ذلك كان هو التسلسل الصحيح.

كانت أخبار طباعة المخطوطة السرية، قد تسربت (كما قال حسن) في اللحظات الأخيرة، بعد أن تمكنت المطبعة والناشر السري، من طباعة عدد كبير منها، وتوزيع عدة نسخ بالفعل في دوائر بعض الخواص!

ولكن ما أن تسرب هذا الخبر، بطريقة ظلت غير معروفة حتى الآن، حتى تحركت الأجهزة الأمنية الجنكويزية بضراوة للسيطرة على تسرب المخطوطة.

ورغم أنها حققت نجاحا كبيرا، إلا أن بعض الشائعات، أكدت أن النسخ التي تسربت، قد وقعت بطريقة ما، بيد عدد من الشخصيات التاريخية.

أحد هذه الشخصيات عالم لغوي كبير، والذي ما أن وصلته المخطوطة، حتى سافر بها وأودعها في خزينة أحد البنوك الدولية.

والآخر محام إسلامي شهير، صاحب تاريخ يساري معقد، تمكن من سرقة النسخة الوحيدة، التي كانت قد وصلت دهاليز (دار الوثائق القومية) في ظروف بالغة السرية! عبر سلسلة معقدة من السماسرة والوسطاء!

النسخة الثالثة والرابعة والخامسة، حصل عليها ثلاثة من قادة أحزاب طائفية قديمة، وفقاً للشائعات المكتومة، التي خرجت للعلن، أما النسخ المتبقية مما تسرب، لا أحد يدري أين أختفت أو ما هو مصيرها؟!

ردة الفعل العنيفة من قبل الأجهزة الجنكويزية الرسمية تجاه المخطوطة، قسمت الرأي العام إلى اتجاهات وتيارات متباينة، عبرت عنها المنشورات والبيانات، التي قامت بتوزيعها الأحزاب السياسية (المحظورة) التي ظلت تناضل طوال تاريخها، للحصول على هامش حريات دون جدوى!

كذلك الاتحادات والنقابات والروابط والجمعيات الطلابية الثقافية والإقليمية والأكاديمية المحلولة و مؤسسات المجتمع الأهلي المستقلة والموالية، جميعها، لم يفتها مهرجان إصدار البيانات في الخصوص!

فيما انقسمت إتجاهات الرأي العام: وفقا لبيانات أصدرتها جهات مجهولة، تستنكر ما وصفته بـ: "السلوك الهمجي للأجهزة الجنكويزية، ومصادرتها حرية النشر والبحث العلمي والتواطؤ على التاريخ التليد، لما درجوا على وصفه بـ (شعبنا)!".

وقفت القوى السياسية المتوالية في ندواتها ومؤتمراتها، التي أقامتها تحت رعاية وإشراف وزارة الداخلية وجهاز الأمن والمخابرات، موقفا معضداً لما اتخذته الأجهزة الرسمية! من إجراءات "في هذه اللحظة الحرجة من تاريخ (أمتنا).."، بينما القوى السياسية ("المنحلة" وفقا للتوصيف الرسمي لحكومة أبو لكيلك الجنكويزي)، مضت تشير في بياناتها، التي غلب عليها طابع الإنشاء، و الخيال الرومانسي والاحتفاء باللغة، إلى:

"بكرة التجمع جاي.. زي غضبة الهبباي... و .. سوف نخرج للشوارع.. شاهرين هتافنا.. ولسوف تلقانا الشوارع بـ...".

القوى السياسية هذه قالت: أنها تدين وتستنكر تزييف الحقائق. ولم يفهم أحد ممن قرأوا المنشورات: هل المعني بهذا التزييف المؤرخين والآثاريين، الذين قاموا بتحقيق وتحقيب المخطوطة، أو السلوك الذي انتهجته حكومة أبو لكيلك الجنكويزي في مصادرة المخطوطة، ونشر

معلومـات صحافيـة وإعلاميـة زائفـة، عـن طريـق أجهزتهـا، منسـوبة إلى المخطوطـة؟!

كانـت الاتحـادات والنقابـات.. خاصـة نقابـة المزارعـين خـارج التخطيـط واتحـاد الرعـاة، وعـمال المحالـج والكتكـو، أكـثر شـجاعة، إذ أدانـوا مـا وصفـوه بالسـلوك البـدوي الإجرامـي غـير المتحـضر! لحكومـة المملكـة الجمهوريـة الجنكويزيـة العُظمـى!

وفي السـياق طالبـوا بحريـة الزراعـة والرعـي وتلقيـط الصمـغ، والتعبـير والتفكـير في شـعر المسـادير، وإطـلاق سراح المعتقلـين، ومرونـة الحـدود بـين الولايـات وممـرات آمنـة في مناطـق الحـروب، ووقـف التنقيـب البـدائي والعشـوائي عـن الذهـب!

وتحـدث البعـض في الشـارع العـام، عـن قضـاء عـادل ونزيـه ومحاكمـة حقيقيـة لمجرمـي الحرب والفاسـدين وإعدام قادة الطائفيـة أُس البلاء، إلخ..

لكـن الطـلاب العلمانيـين في الجامعـات والمعاهـد العليـا، مضـوا إلى خطـوة أبعـد مـن ذلـك، إذ اتخـذوا مـن قضيـة المخطوطـة السريـة، شـعاراً للمطالبـة بمراجعـة عقـود النفـط، مـع الـشركات الأجنبيـة والافـراج عـن المعلومـات الخاصـة بالنفـط والـثروات في باطـن الأرض وظاهرهـا، وإطـلاق سراح تاريـخ الشـعب، وأغفلـوا الإشـارة لعلاقـة الديـن بالدولـة، فيـما بـدت للمراقبـين مـن أنصـار الدولـة المدنيـة -للمفارقـة- مسـألة "إطـلاق سراح تاريـخ الشـعب" وتحديـد "علاقـة الديـن بالدولـة" في العمـوم واسـعة شـوية، كـما أنهـا مـن أكـثر المطالـب غموضـاً وراديكاليـة، عـلى حـد تعابيرهـم المتأنقـة!

إذن أتخـذ الطـلاب العلمانيـين مـن قضيـة المخطوطة السريـة، لجلابي ود عربي. شـعاراً للمطالبة بالحريات والحقوق الأساسـية، واتسع سقف المطالب ليشـمل كل الحقـوق المدنيـة، حتـى أوضاع المثليـين في الدولـة الجنجويدية!

في أوج هـذه البلبلـة التـي اعـترت البـلاد الكبيرة مـن أقصاهـا إلى أدناها، إتصـل عـدد مـن مراكـز الأبحـاث والجامعـات الأمريكيـة والأوروبيـة، بذلـك العـالم اللغـوي الكبـير، وقدمـوا لـه عرضـا مغريـاً لـشراء نسـخته، التـي كان قـد أودعهـا خزينـة منيعـة في أحـد البنـوك اللندنيـة، و كخيـار ثـان عرضـوا عليـه شراء صـورة منهـا، إذا تعـذر بيـع الأصـل!

للأسـف كان الـبروف عـالم اللغـة وقتهـا، قـد بلـغ منـه الزهايمـر مبلغـه، فأصبـح شـبه ميـت سريريـا، إذ تعطلـت وظائفـه الحيويـة، وفقـد القـدرة عـلى النطـق! ولم تمـض سـوى أيـام معـدودة حتـى قـضى نحبـه مأسـوفا عليـه، فالرجـل كان مـن ركائـز سـجن البـلاد الأسـيرة!

مـا ألم بالـبروف الكبـير كان غريبـا، مريبـا! الأمـر الـذي جعـل الخيـال الشـعبي، واللاشـعور السـياسي يلتقيـان في نقطـة واحـدة: مؤامـرة مـن الأجهـزة الأمنيـة الجنكويزيـة، لاغتيـال كل مـن يملـك نسـخة مـن المخطوطـة السريـة لجـلابي ود عـربي! إلا أن عبـد الرحمـن ود التـوم كان لـه رأي مختلـف، إذ زعـم أن المخطوطـة مرصـودة في لعنـة!

الأوامـر التـي صـدرت إلى مكاتـب المعلومـات والاسـتخبارات، في كل أنحـاء المنطقـة والعـالم، تلخصـت في عبـارة واضحـة: "الحصـول عـلى المخطوطـة أو صـورة منهـا" بـأي ثمـن!

وإلى ذلـك شـهدت منطقـة جـلابي ود عـربي تحـركات محمومـة، مـن قبـل سـياح خواجـات و أفارقـة وعـرب، مـا ترتـب عليـه إزدهـاراً كبـيراً في الاقتصـاد الخراجـي و الإقطاعـي البـدائي (لكـن القـوي) لجـلابي ود عربي. ولم تتوقـف حتـى ذلـك الحـين ردود الأفعـال إذ اسـتمرت تتـوالى دون انقطـاع!

فيـما تخـلى بعـض أئمـة المسـاجد وعلـماء اللغـة وأصـول الديـن، عـن وظائفهـم التاريخيـة المقدسـة، للجهـاد في جبهـة أخـرى، حمايـة (لبيضـة الديـن) فاتجهـوا لأول مـرة في حياتهـم لدراسـة التاريـخ!

وهكـذا تـم في غضـون أسـابيع قليلـة، تأليـف العديـد مـن الكتـب، لدحـض الوقائـع والأحـداث، التـي حملتهـا المخطوطـة السريـة، التـي لم يقرأهـا أي مـن هـؤلاء المؤلفـين!

فسـجل أحـد الكتـب الموسـومة بـ (إلجـام العـوام عـن الـكلام في شـأن جـلابي ود عـربي رداً عـلى مزاعـم الكفـرَّة اللئـام) مبيعـات مذهلـة في أفغانسـتان وباكسـتان والسـعودية والعـراق والبوسـنة وبـلاد الروهنجـا والمغـول! الأمـر الـذي لم يجـد لـه النقـاد الحبرتجيـة والمراقبـين العنقالـة تفسـيراً بنيويـا مقبـولاً!

وإزاء هـذا التعـدي المهنـي عـلى علـماء التاريخ، تـرك المؤرخـون عملهم، وانسـحبوا في صمـت مريـب، منشـغلين بتجـارة التمبـاك ومحـلات المرطبات والشـاورما، التـي كتبـوا عليهـا بالخـط الكوفـير: "كلـو وأشربـوا مـن طيبـات مـا رزقناكم".

الأمـر الـذي لم يسـتطع أحـد أن يفـسره لصالحهـم أو ضدهـم! لكـن بعـض خبثـاء المدينـة، في محاولـة لتبريـر انسـحاب المؤرخـين، زعـم أنـه رأى أكـثر مـن مـؤرخ، لديهـم اسـتثمارات صغـيرة خـلاف التمبـاك، كفراشـين للكتـب عـلى أرصفـة السـوق العـربي، فلـم ينكـر حقيقـة، أن بعضهـم يعمـل في دكانـه الخـاص ببيـع التمبـاك وآخـرون اتجهـوا لبيـع المرطبـات والوجبـات السريعـة. بـل أن بعضهـم إمتلـك بعـض البصـات التـي تزينـت مؤخرتهـا بالآيـة: "سـبحان الـذي سـخر لنـا هـذا ومـا كنـا لـه مقرنـين".

وحتـى هـذه اللحظـة، التـي أكتـب فيهـا عـن المخطوطـة السريـة لجـلابي ود عـربي (قـال حسـن) لم أتمكـن مـن العثـور عليهـا لتحقيقهـا!..

VI

كل مـا وصـل إلى علمـي مـن صديقـي حسـن أو سـواه، هـو مجـرد حـواشي وبعـض الشـذرات، التـي سأسـتعرضها لاحقـاً، عـلى أمـل أن أتمكـن يومـاً مـن تحقيقهـا.. فـما هـي طبيعـة هـذه الحـواشي والشـذرات؟!..

أنهـا تبـدأ بوصـف جغـرافي محـض، لسـاورا المملكـة القديمـة، ويتضـح أن هـذا الوصـف الجغـرافي ينطبـق عـلى جغرافيـة جـلابي ود عـربي، مـا يعنـي أن سـاورا البائـدة، هـي الموقـع الجغـرافي ذاتـه لجـلابي ود عـربي؟!

VII

(**جـلابي ود عـربي**)، الآن ليسـت هـي "الحّلـة" التـي أنشـأها الأسـلاف النازحـين واللاجئـين والمهاجريـن وعابريـن السـبيل.. "جـلابي" أصبحـت الآن مـن أحيـاء الدرجـة الأولى، التـي تتمتـع بكافـة الخدمـات.

فمنـذ الحريـق الكبـير الـذي قـضى عـلى كل شيء في جـلابي ود عـربي، حدثـت تحـولات مدهشـة: إذ أعيـد إنشـاء المدينـة مـن جديـد، وبـدلاً عـن أولئـك الفقـراء البؤسـاء، الذيـن كانـت تعـج بهـم جـلابي ود عـربي، حـل شـعب كامـل مـن المتأنقـين في "جلاليبهـم" البيضـاء الناصعـة، و بدلاتهـم الزَّاهيـة، وأصبحـت جـلابي ود عـربي بـين ليلـة وضحاهـا، رسـمياً "مدينـة الفـردوس الفاضلـة!".

وهـذه المدينـة رفيعـة المسـتوى، أصبحـت هـي الحلـم عسـير المنـال، حتـى لبعـض رجـال الأعـمال والسياسـة والفنـون والرياضيـين والمهنيـين الكبـار، وصفـوة المجتمـع بصـورة عامـة!

جميعهـم يحلمـون بالسـكنى فيهـا.. السـكنى في الفـردوس الـذي كان أسـمه ذات يـوم (جـلابي ود عـربي).

ثمـة علامـات فاصلـة يـؤرخ بهـا لجـلابي ود عـربي مثـل: النـزوح الأخـير، إغاثـة الأب ريغـان الـذي أنقـذ أهـالي جـلابي ود عـربي مـن الانقـراض في سـنوات المجاعـة.. و حريـق بيـت أم التيـمان، إلى آخـره مـن الأحـداث الكبرى، التـي مثلـت فواصـل أو مراحـل انتقاليـة في حيـاة جـلابي ود عـربي.

"شـخصيات حميمـة تخطـر عـلى ذاكـرتي الآن".. قـال صديقـي حسـن، فأجبـت:

"ماذا تعني، ومن تقصد؟!"

"سأجيب عن أحد السؤالين..

.. أقصد أم التيمان، التي توهمت، منذ مراهقتها الباكرة، عاشقاً كقبض الريح! فظلت تستدعيه من نبض الحروف، في رسائله العاطفية القديمة، التي تخبئها بعناية!

أم التيمان اختفت في ظروف غامضة.. لم يستطع أي من سكان جلابي فك طلاسمها!

أطياف عديدة لأناس عرفتهم ذات يوم، في لحظات إنسانية مختلفة، تتراوح بين الضعف والقوّة، يمرون على الخاطر الآن، خارجين من قلب الذاكرة:

تمضي ست البنات العشمانة، سارة خير الله.. وتمضي ثريا.. يمضي أدروب.. حسان جداد حسان جد.. جداد:

هذا رجل عجيب وغريب، كادت أن تفتك أفكاره المتطرفة بجلابي ود عربي. فبعد عودته من الأراضي المقدسة، وفيما يبدو أن العرافين الذين طردوه ذات يوم، هم ذاتهم الذين أعادوه مرة أخرى إلى جلابي؟!

وتعبيراً عن ولاءه وتقديره لهذه العودة أخذ يقيم الندوات في مسجد جلابي، ولا يكتفي بخطبة الجُمعة. كان يُكثر الحديث عن فرقته الناجية، ويعمم أحكام التحريم، منكلا بتاركي الصلاة:

"نكاحهم باطل.. ذبيحتهم ومؤاكلتهم حرام.. لا يدخلون مكة.. لا ميراث لهم أحياء أم أموات.. لا يغسلون ويكفنون.. ولا يُصلى عليهم.. ولا يُدفنون مع المسلمين.. (يتنحنح) عباد الله، اتقوا الله.. أستغفروا الله إن كنتم مؤمنين.. استووا يرحمكم اللّه".

هذا التصعيد العاطفي شديد التركيز لمنظومة الترغيب والترهيب، التي شهدها خطاب حسان جداد، أصاب أهالي جلابي ود عربي البسطاء

بالذعـر والقلـق والتوتـر، فأصبـح مزاجهـم عكـراً وأخلاقهـم ضيقـة!

ينفجـرون لأي سـبب، وبـدون سـبب.. فالرجـل أعتمـد في تدمـير معنوياتهـم، عـلى الكلـمات ذات الوقـع الرمـزي الثقيـل في اللاوعـي الجماعـي.. وهكـذا بـين ليلـة وضحاهـا، وعـلى نحـو مباغـت، نصَّـب حسـان جـداد نفسـه خليفـة اللـه عـلى الأرض، ووسـيطاً سمسـاراً بـين النّـص المقـدس وأهـالي جـلابي ود عـربي البسـطاء المرّوعـين!

لم يـترك جـداد شـاردة أو واردة، تمـس حيـاة أهـالي جـلابي ود عـربي، إلا و أقحـم أنفـه ملتمسـا لهـا حكـماً تحريميـاً صارمـاً، فتدخـل بصـورة مبـاشرة في حياتهـم.. تفاصيلهـم الدقيقـة، التـي يصعـب التـماس ربـط لهـا في النّـص الدينـي العمومـي جـداً!

قائـلا بأهميـة إغـلاق بـاب الفتنـة، معتمـداً عـلى لغـة الخطـر الدائـم، المحـدق بأهـالي جـلابي ود عـربي الفقـراء المغلوبـين عـلى أمرهـم!

ولمبالغاتـه الهذيانيـة المكثفـة، أعتقـد بعـض البسـطاء: أن جـداد هـو الناطـق الرسـمي باسـم اللـه، كـما أن النصـوص التـي يستشـهد بهـا، قـد نزلـت في حقهـم وحدهـم، وأُختصـت بهـا جـلابي ود عـربي، دونـاً عـن سـائر مخلوقـات اللّـه وأراضي كونـه الواسـع!..

ولـولا أن ثلاثـة مـن أهـالي جـلابي ود عـربي، ربضـوا لـه ذات ليلـة غـاب فيهـا البـدر، و أبرحـوه ضربـاً، لأصـاب الرجـل أهـالي جـلابي ود عـربي بالجنـون!

خرجـت الشـائعات بـأن الثلاثـة الذيـن أبرحـوا حسـان جـداد ضربـاً هـم: كسـبان الضّـاوي وجـمال الحلّـة وعبـد الرحمـن العويـر..

لكـن لم يكـن ثمَّـة مـا يؤكـد هـذه الشـائعات، رغـم التحريـات الواسـعة، التـي قامـت بهـا الشرطـة.

وتخليدا لذكرى هذه "العلقة" الساخنة التي تلقاها جداد في ذلك "الكمين" من قبل المجهولين الثلاثة، أقام أهالي جلابي ود عربي فيما بعد، ضريحاً و نصباً تذكارياً لهؤلاءِ الثلاثة، أسموه ضريح ونصب: الجنود المجهولين!

هذه العلقة التاريخية، جعلت جداد شيئا فشيئا يخفف من ترويعاته للناس، وتدخلاته في حياتهم، خاصة أن الأهالي للثأر منه حاصروه بشائعات مذهلة، جنحت بعضها للزعم، بأن جداد أغتصب ثريا بنت السّرّة في أول أيام مراهقتها!

وكادت هذه الشائعة بالتحديد، تصيب جداد بالجنون!.. فقد أسودّ وجهه وتهدل جفناه، وكان واضحا أن الرجل لم يغمض له جفن، منذ وقت أطول من الوقت نفسه!

ويبدو أن هذه الشائعة المتقنة بالتحديد، هي التي نجحت في تحجيم نفوذ جداد، إلى أقصى درجة ممكنة. فقد تقلص خطاب ارعابه الأهالي البسطاء في جلابي ود عربي، فاضطر الى ايقاف حملاته إلى أن تهدأ الأحوال. لكن يبدو أن خطابه الإرهابي تمكن من بعض النفوس!

فحتى صديقي حسن كما علمت لاحقا انضم لفترة محدودة إلى طائفة العرَّافين التي ينتمي إليها جداد الذي وضح أنه تمكن من توليف بعض القلوب بسخاء مريب!

أخبرتني سارة بعد مضي وقت طويل، من انضمام شقيقها حسن إلى العرَّافين، أن حسن في ذلك الوقت تحول إلى كائن مزعج، إذ أخذ يحلّل ويحرم كما يعن له، فحطم التلفزيون الملّوّن الذي أقتنوه بعد جهد جهيد، وأحرق الملايات الجديدة لأنها ملوّنة، وألحق بها الصّور الفوتوغرافية، بدعوى أن كل ذلك حرام! الأمر الذي دفع والدته (حاجة بخيتة) إلى طرده من البيت.

وبعد مضي بعض الوقت أدرك حسن خطأه، فوّسط سارة لدى أمه، وأخوانه فسمحوا له بالإقامة الجبرية، ريثما يتأكدون أن اللّه رد صوابه.. تذلل حسن وطلب السماح فسامحته أمه "قلب الوالد شفوق!"..

عاد حسن لكن لم يعد لديهم تلفزيون أو ملاءات ملونّة!

في ذلك اليوم الذي جاء فيه حسن طالبا السماح، فرح أشقاؤه واحتفوا به بإقامة بارتي صغير، دعوا له الجيران والأحباب، الذين كانوا يتساءلون:

"ما المناسبة؟!"

"لقد عاد حسن"

كانت فرحة الحي بعودة حسن لا تقابلها فرحة، احتفى به الجميع حتى أن خلاّنه من شلّة عبده الخال، عزموه على كأس من عرقي الجوافة البكر، فشرب حسن في ذلك اليوم، كما لم يشرب من قبل، وغني: "سامحني" حتى الصّباح..

كان عبده الخال أكثر أفراد الشلّة سعادة، فهو صديق طفولة حسن وصباه وزميل دراسته، وشريك مغامراته العجيبة! كما أنه من أكثر الذين تضرروا من تلك التحولات "الجدادية" التي اعترت حياة حسن قال له مازحاً وهو يمد له كأس عرق الجوافة الثالث:

"البباري الجداد بوديهو الكوشة".

فضحك حسن دون أن يعلق، وهو يحاول نسيان تلك الأيام، التي كف فيها عن الأكل مع عبده الخال في صحن واحد، بدعوى أن مؤاكلته حرام! ما أضطر عبده الخال الى طرده في نهاية الأمر، وتحذيره من زيارته مرة أخرى!

VIII

ما قالته الميرم كلتوم لسلمى خير اللّه، عندما جاءتها لتفتح لها الكتاب، لم يختلف كثيراً عما قاله لها أبكر المعراقي بعد ذلك بوقت طويل. قالت لها الميرم:

"ستخرجين من عتمتك إلى إشراق، يملؤك بالنور. فلا ترين سوى درباً أخضر، وجُذُر تسلقتها نباتات الخريف، وبين بين نهرين من اللبن والخمر، على ضفافيهما تنهض أشجار المانجو، التي تُغرد بين تلافيفها الطيور الملونة، وتجلس تحتها الطواويس والغزلان.

ستخرجين من عتمتك إلى بوح ندى، يخاطبك الناس بالشعر، وتتكلمين بلغة العصافير، وتدركين أول الأنبياء (دالي) وتخرجين من كتابه كما خرج علي.

تحكى له عن طيّ الزمن، والمسافات والوجوه المغبرة، وعكرة خلفتها ورائك. فيبادلك الحكمة، ويبتسم ثم يسجد وتنتظرينه وتنتظرينه.. لكنه لا يرفع عن السجود، إذ يغادر إلى الإشراق".

خرجت سلمى خير الله من الغرفة المعتمة، دون أن تعيرالصّبي الصغير، المتكئ على مواربة الباب، أدنى التفاتة!

مضت في الدرب الملتوي، تتجنب المستنقعات والبرك الصغيرة، في الزقاق المظلم. وتخشى أن تهاجمها كلاب الحي على حين غرَّة..

وهى تخلع ثيابها حائلة اللون، ترتدي قميص نومها الداكن الخشن، وبالها مشغول بالاغتراب، الذي تخطط له، بعد أن خلفّت وفاة والدها المبكرة أوضاعا بالغة السوء، سألتها أمها بلامبالاة:

"أين تأخرت كل هذا الوقت؟!"

فأجابت باقتضاب وهى تستلقى على سريرها:

"أخذتني سارَّة إلى العرَّافة"

كانت صديقتها الوحيدة سارَّة، قد ألحت عليها، بالذهاب معها إلى الميرم كلتوم العرَّافة، ذات المهارات المتعددة، فهى تخط الودع وتقرأ الكّف وتضرب الرَّمل وتفتح الكتاب.. بعد أن تضع أعواد البخور، على المباخر العديدة المنتشرَّة في الغرفة الصغيرة الضيقة، بضوئها الكابي و الموحي، ليتصاعد الدُّخان السحري، محيلا الرؤية إلى ضبابية متقشعة، مسرباً الخدَّر والإحساس بالوجع اللذيذ الذي يختبئ فى كل شىء.. حتى قطع الأثاث العتيقّة..

كانت سارَّة دهشة للسؤال الذي يطرحه حال سلمى، فهجسَّت بالإجابة عن هذا السؤال. باصطحابها إلى الميرم كلتوم، ولية الله الصالحة، التى ولدت مختونة، كما أشاع عنها عبد الرَّحمن العوير عند رحيله إلى جلابي! وعزفت عن طلب الرِّجال، كما يحكي التاريخ القرِّيب لجلابي ود عرَّبي والمدينة الريفية!

ماء شبابها يتجدد كل يوم، كأنه لا يغيض! فهي نضرَّة لا يغشاها غضَّن! أو يخطَّ عليها شيب!

وعندما حدثت سارّة الميرم كلثُّوم عن سلمى خير الله. تبسمت الميرم عن أسنانها النّاصعة، المكتملة، ولم تنبس ببنت شفة!

فى البدء رفضت سلمى الذهاب، ثم لانَّت! وكأن قوة خفية نهضت فجأة، تدفعها دفعاً. وعندما خرجت من غرفة الميرَّم، كانت سارّة قد أختفت من الصالة، حيث تركتها قبل أن تدخل على الميرَّم، التي مضت بها في دروب ذلك العالم البرزخي، تدفعها دفعا لقطع وهاده وسباسبه، إلى أن توقفت عند شجرة (اللألوب) في المنتهى! فتركت سلمى تسير وحدها، كطيف سابح في بحر من النور الكُّلِّي!

لم تبحث سلمى عن سارة، وغادرَّت بيت الميرَّم فى عجل، وهي تتعثر في قطع الأثاث بطريقها. دون أن تشعر بها. إلى أن لفحها تيار هواء بارد، فأدركت أنها بمنتصف الزُّقاق المفضِّي إلى الشارع الرئيسي.

كانت سلمى منذ طفولتها تبدو كغزالة نافرَّة.. فعندما تبدأ الفتيات في لعبة (الحِجلَّة أو عريس وعروسة، إلخ..) تقصي نفسها كوزينة على ضفاف بحيرَّة شاسعة، لا تريد التوغل.. تتركهن يمرحن وحدهن وتراقبهن وهي تنشد:

"الزَّارعينا في كبد البوصة.. نَّي، نَّي.. مو نجيض..

الطير كَلّي البرسوسة..

الزَّارعينا فى كبد الغابة.. نَّي، نَّي..

مونجيض.. الطير كلّي الورّتابة.."

وظلت هذه الأُنشودة، تعزِّية وحدتها، منذ ذلك الوقت.

وكانت حين ترغب فى فصل نفسها عن العالم، الذي أخذ يتهشم حولها، بعد أن فضحهم حسّان شقيقها الكبير في الحي ونكَّس رؤوسهم، تتوغل منسحبة إلى داخلها، وتدخل فى حالة لا شعورية، وتبدأ فى ترديد أنشودتها المحببة، بصوت عميق، ملؤه الأسى واللّوعة. كأن طقسا بكامله، تؤديه جوقة من الرّهبان.. إلى أن يخترق صوت سارَّة كالمعتاد، في كل مرَّة عالمها الطقسي، لتكمل الأُنشودة:

"الناس عرسوا..

انا فى النميم يا يابّا.."..

هكذا تشرخ سارَّة عالمها فى كل مرَّة، فلا تملك سوى أن تنظر إليها بمحبة، وتمسح حبات العرَّق من وجهها، وتبتسم دون تعليق!.. تقول لها سارّة:

"جاني عريس"

"مبروك"

"وأنت؟"

"مالي أنا؟!"

"يجب أن تتزوجي"

"ألا ترين كيف هو حال أسرتي، ساغترب"

واغتربت سلمى..

سنوات غربتها تمضى بخطى وئيدة، كتسحب الشمس شيئاً فشيئاً، قبل أن تغيب، وطفل سارَّة الذي أرسلت لها صورته، فى السنة الأولى لولادته، يكبر.. يصير صبيا وسيما، تطل شقاوة أمه من عينيه.

تبتسم سلمى عند هذا الخاطر، وتُدخل آخر الصُّور، التى أرسلتها لها سارَّة قبل شهر، للصَّبي أليف الملامح، صبوح الوجه.. فى إطار مذّهب حذاء التسريحة!

فى غربتها المترَّفة، تنفتح حياتها على بوح قديم، ظنَّت أنها خلَّفته وراءها.. بوح يُطل برأسه من رَّحم الماضي، بين آونة وأُخرى.. يخزّ رغباتها الغامضة، التى ليست لديها فكرة واضحة عنها!

فقط محض رغبات فى التلظي والتشظي.. تخرج منها إلى صلوات سرِّية طويلة، تختمها بتلك الأُنشودة التي تحبها، دون أن يخترِّق صوت سارَّة عالمها الطقوسي، ويشرَّخه!

تتفجر كوامن شجنها لوجه غامض، تعرفه ولا تعرفه، يجئ بملامحه المبهمة، من خلف ضبَّاب المغيب، لحظة ما قبل الفجر الغامضة.. يصبح كيانها كله مشدوداً كوتر كمان، عميق الجُرح والآهة. أسيان كندى فجرٍ شاحب.. يخرج إبن سارَّة من الصورَّة..

يعـزف حتـى تـكَّل يـداه مـن العـزف المنفـرد، فيتوقـف عـن العـزف، وتخـرج سـارَّة، مـن سـطور الخطـاب..

تشُـد الوَّتـر (وجـدان سـلمى) وتعـزف نغـما مألوفـاً، عـن الشـجن والترقـب وإنتظـار المسـتحيل، فتهتـف فيهـا بـكل التحفـز العميـق: (أنـه هـو!) فتتوقـف عـن العـزف..

تسـتند إلى سـاق النّخلـة الوحيـدة في الحـوش، كالمنهـارَّة. تدخـل فيـه.. تتـلاشى!.. وعبثـاً يطـول إنتظارهـا لخـروج سـارَّة، التـي كانـت قـد احتضنـت إبنهـا، وغابـت في سـطور الخطـاب..

تعيـد سـلمى الصـورَّة إلى التسريحـة، تلوكهـا الهواجـس والظنـون، فتحـترق بنـيران الأسـئلة، إلى أن يأخذهـا النَّـوم، وتمـضي بهـا الأحـلام إلى عـالمٍ مضـئ!

تتلّفـت حولهـا لـترى مصـدر الضـوء، وعبثـاً تبحـث.. فإضاءتـه مـن اللا- مـكان كصـوت طائـر مارتجلـو: لا شرق. ولا غـرب.. لا شـمال أو جنـوب. تتسـلق حائطـاً أخـضر. يبـدو لهـا ناعـماً. وتسـبح بعـده في نهـر مـن الخمر.

تتـشرَّب مسـامها بالخـدَّر، وتتسـع رؤاهـا ورؤيتهـا، فتـدرك الضفـة الأخـرى منهكـة..

وهـى بـين الصَّحـو والنَّـوم، تحـط عـلى كتفهـا يمامـة، وتقـترب غزالـة، لتجلـس إليهـا في حنـو. تحـكي لهـا عـن الـذي وجدتـه ملقـىً عـلى شـاطئ البحـر وحيـداً، ينضَّـح بالعـذاب. فسـقته مـن ثديهـا..

"كان ينضَّحُ بالعذاب!"

تؤكد.. فتقول اليمامة:

"العذاب غسول الصالحين"

.. و تحلّق، تحلّق بعيداً بعيداً.. لتجد سلمى نفسها بين منزلتين..

لطالما حلمت في تلك النهارَّات البعيدة، بوجهه غجري الملامح. يأخذها من قلب حلقة (الذِّكر)، ويمضي بها في مسارات قائظة بالتوجس، مشحونَّة بالمغامرَّة، بين احتمال موت جدير بحياتيهما، وحياة لا تدركها تلك الهواجس والظنُّون، التي عانتها في أسى والتياع، بانتظاره المضن!

كطاقة بعث -كانت حياتها- تخرج من قلبِ دهاليز التاريخ وأزقته وحواريه، في مدنه المدفونة.

وعندما التقت (علي) تصورته في البداية هو.. لكنها ما أن توغلَّت في عالمه، واكتشفت علاقته المعقّدة بـ أم التيمان وست البنات العشمانة وثريا، وكل الحكَّايا التي عرفتها عنه (ولم تلمِّح له أبداً بأنها عرفتها).. أصيبت بانقباض خفِّي!

لطالما حاولت التخلّص من علاقتها غير المسمَّاة به، وكثيراً ما كانت تُعزِّي نفسها بمحاولة إيجاد المزيد من الإجابات لرفضها له، فتقول:

"على كل حال علي يصغرني كثيراً"

ظلّت تقاوّم سطوته عليها، حتى اختفى من حياتها تماماً! لكن ظلَّت الطاقة هي نفسها.. تتفجر هكذا كبركان تجتاح حممه كل شيء، تدفعها دفعا لارتياد عوالم لا تدركها. فقط تحسها. وتكاد تتلمسها. بأناملها التي ترى ما لا يُرى!

حاولت أن تغلق قلبها دونه، لكنه ينفتح على شبح وجهه، غامض الملامح.. وجهه المحزون، بخذلان حواريه، وخيانة حسن الصديق القريب (مع ثريا).. وجهه المندفع من عالم سرمدي، بعيد.. بعيد.. لا تدركه الأبصار.. فتهتز سلمى كنخلة، في مهب الرِّيح، يحاصرها "التساب" في غمرَّة الإدراك لوجودها غير المدرَّك!

وتمضي في رحاب عالم تصله ولا تصله. وإذ تصله لا تجده. وهو فيها. وهي فيه. يتماهيان، فلا يصبحان واحداً، بل صفراً.. مركزاً

للواحـد، وواحـداً عـلى هامـش الصفـر..

(تتوحد) فيه، ليتلاشيا معا، ولا يعد لهما وجود: (صفر!)..

وخـز شـفيف وشـقِّي، يجبرهـا عـلى طـرد هـذا الخاطـر.. وخـز يتكـون كدمـل.. يتحفـز للانفتـاح عـلى نافـذة متربَّـة. بتعاقـب الفصـول.. لثمـة خفيـة تنزعهـا مـن مكانهـا، تتلَّفـت حولهـا، وتسـتكين. خـدَّر.. بلسـم، يهدئ صبوتهـا.. عذَّابهـا الجـرح! فتترقـب وجهـه أكـثر.. وجهـه الغامـض يلـوح مـن "شـفق" المغيـب، فجـأةً، كـما صعـد فجـأةً، تـاركاً صالبيـه: حيـارى، مروعـين مـما شُـبه لهـم، في ذلـك الفجـر الـذي ينـذر بالمخـاوف!

يمـضي بهـا.. يُقلـق أحلامهـا، و يعـزف عـلى الكـمان أغنيـات الحـب والريـد للتـي طـال انتظارهـا.. الجـرح، العـذَّاب.. لمخلصهـا مـن عذَّابـات الوصـول (العـذَّاب. العـذَّاب غسـول الصّالحـين!)

تضـج بالأنـين.. الشـجن وتأوهاتـه.. ألم الغربـة القاحلـة وأحتراقاتهـا.. وهـذا المـوت الـذي يدنـو منهـا حثيثـاً، ليقودهـا إلى (الفنـاء)، مبـدداً تصوراتهـا..

ذاك الوَّجـه الغامـض، الـذى يتبـدى عـن أوتـار الكـمان، وتلافيـف الشـجن عـصي البَّـوح.. يقلـق وحدتهـا.. تتشـظى بـه، فيمـضي أكـثر لوعـة والتيـاع، ويمـضي ولا يجـئ.. يغيـب فى سرمديتـه.. وتحـت وطـأة الانتظـار تغـوص، في أرخبيـل شـائك. يدفعهـا الشـوق.

تعـبره مـلأى بالجـروح المتقيحـة، فتتمـدد تحـت نبـات (اليقطـين) وتهتـف:

"ما تلك التي بيمينك؟!"..

تتشكَّل معهما (هُوِّية واحدة):

"بيميني محض نور"..

ثـم يُطِّـل وجـه المدينـة الريفيـة، و جـلابي ود عـربي خارجـة لتوهـا مـن قلـب التاريـخ.. و تطِّـل الوجـوه التـي عرفتهـا ولم تعرفهـا.. يطِّـل وجـه أم التيـمان في ذلـك اليـوم، وقـد قـررت أن تغـادر جـلابي ود عـربي الى الأبـد.. دون أن تُفصـح عـن السـبب الحقيقـي، إذ اكتفـت بالقـول:

"كرهت هذا المكان"..

يطـل وجـه (عـلي- آري- سـورنق- دالي) وذلـك الشـعور بالذنـب في عينيـه، كلـما جـاءت سـيرة أم التيـمان (أو لنقـي، أو سـابا سـليلة الجنيـات) بينهـما عرضـاً..

أطـل وجـه المـيرم، كانـت منتصبـة.. تتقـدم تجـاه سـلمى ببـطء، تعـبر إليهـا مـن مـكان بـلا ملامـح، حيـث تقـف فى الغيـاب!

تبـدل وجـه العرَّافـة، حـل محلـه وجـه إبـن سـارَّة شـاباً فتيـاً، متلفعـاً بـبردة الكتَّـان، الناصعـة ذاتهـا.. تقـدم منهـا فاتحـاً ذراعيـه!

لحظتهـا كانـت أحلامهـا (هـي/ سـارة) يغلـب عليهـا الغمـوض والألـق.. وهـو يقـترب.. يدنـو منهـا.. يسـتحيلا إلى لا شيء. يتبـددان في الضـوء، الـذي يغمـر أسـقف البيـوت الواطئـة، الشـجر، أوكار الطيـور، جحـور القـوارض، حظائـر الحيوانـات الأليفـة، ووجـوه المـارَّة.. عابـري السـبيل!

تتـلاشى ذكرياتهـا القديمـة، لتتشـكّل اللا-ذكريـات.. يتـلاشى الحنـين في الحنـين.. في ذكريـات الطفولـة، شـارع البيـت، أشـجار الحـوش الكبـير، قهـوة منتصـف النهـار، الطرِّيـق إلى محطـة المواصـلات وعاصمـة بلادهـا الملبـدة بالحـذّر..

حنينهـا لأسرتهـا، لعالمهـا ذاك.. النّـاس والأشـياء.. يتـلاشى كل شيء! يتشـكّل فقـط وجـه الحبيـب، فى بُردتـه الكتّـان، الناصعـة. يقـترب شـيئا فشـيئا إلى سـطح عـالم الحنـين المنهـار في الحنـين.. ليحـل مركـزاً لوجودهـا وكيانهـا وحسـها.. ويلعبـان اللعبـة ذاتهـا: يكـر فتفـر. تفـر، فيكـر.. ثـم

يدهمها ليلاً ليخطف منامها، ويقطف وردة جُرحها، ليغذي الحنين من بوح تلك اللحظات الغامضة، التى ربما عاشاها أو لم يعيشاها معا، أو عاشتها سلمى وحدها!

فقط تشعر سلمى بسارة، تتقمصها.. وابنها يحتضنها حتى تئن ضلوع سلمى. ويغلبها إرهاق الحنين، فتغرَّق في النَّوم!

أحلامهما (هي وسارّة) غلَّب عليها الغموض والتوجع، المستمد من أعماق غربتيهما.. ركاميهما.. البلى الذي حاصرهما، وكل التخثُّر الذي حاولتا تمزيق أغشيته، للإفلات من تبدد الزّمن والمكان، والشروع فى الحُلم..

تكلم معها (علي) كثيراً عن سارة:

"يجب أن تتكلمي معها، فقد أصبحت سيرتها على كل لسان.. الشباب يستغلون كونها مطلقة"

"لا أستطيع"

"لماذا.. أنت صديقتها؟!"

"وأنت كذلك"

"غير ممكن. وأنت تعلمين ذلك جيداً"

"هل تشتهيها مثلهم؟"

"إنها بالنسبة لي: أخت.. أخت صديقي حسن"..

فتهز رأسها وتزُّم شفتيها؛ تنهي الحوار دون أن يلوح في عينيها أنها اقتنعت بشيء!

IX

في هـذا الوقـت، كانـت ثمـة ظاهـرة لم تألفهـا جـلابي ود عـربي مـن قبـل، قـد بـدأت بالـبروز، هـي ظاهـرة "الرباطيّـة"، الذيـن يقطعـون الطريـق عـلى النَّـاس، ليـلا في الخـلاء الواسـع، الـذي يفصـل بـين جـلابي ود عـرَّبي والمدينـة الريفيـة، فيجـردون (المـارَّة في طريقهـم مـن أو إلى جـلابي) تحـت تهديـد السـلاح الأبيـض أو النَّـاري مـن ممتلكاتهـم القليلـة!

وهكـذا أصبـح الخـروج أو الدخـول إلى جـلابي ليـلاً، مـن الأمـور التـي تحتـاج للتسـلُّح بالشـجاعة والهـراوات الغليظـة، أو الأسـلحة البيضـاء أو الناريـة!

ولأن جـلابي ود عـربي لم تدخلهـا شـبكة المواسـير بعـد، لأنهـا خـارج التخطيـط، كان النـاس يلجـأون لـشراء الميـاه مـن عربـات الـكارو البرميـل، وبعـد أن تمكـن حسَّـان جـداد مـن حفـر بـئر داخـل فنـاء المسـجد، حـدث إنفـراج في أزمـة الميـاه الى حـد معقـول!

فأحيانـا لا تـزور عربـات الـكارو البرميـل "حِلَّـة" جـلابي ود عـربي، لأعطـال تصيـب البوابـير التـي تعمـل بالجـاز عنـد الشـاطيء لضَّـخ ميـاه النيـل في براميـل الـكارو، فيلجـأ أهـالي جـلابي ود عـربي في مثـل هـذه الحـالات إلى بـئر المسـجد، محتملـين التوتـرات التـي يصيبهـم بهـا جـداد في سـبيل "باغـة" أو "جـردل" مـن ميـاه البـئر!

وتعبـيرا عـن رفـض سـت البنـات العشـمانَّة لابتـزازات حسَّـان جـداد لهـم في مثـل هـذه الحـالات، كانـت قـد اتفقـت هـي وجاراتهـا ذات مـرة، فأوقفـن ثـلاث عربـات كارو برميـل وقلـن لأصحابهـا، أن إمـام المسـجد يقـول لهـم، أن يفرغـوا الميـاه في بيـوت زوجاتـه (سـت البنـات وجاراتهـا) وعندمـا ذهـب أصحـاب الـكارو بعـد إفراغ الميـاه، إلى جـداد يتقاضـون منه

ثمـن الميـاه، كان الرجـل دهِشـاً! فنفـى أنـه قـال شـيئا مـن هـذا القبيـل بـل مـضى ينفـي بأغلـظ الإيمـان أنهـم بـين زوجاتـه، وعنـد المواجهـة معهـن أنكـرت سـت البنـات وجاراتهـا، بـل وأنتهـرن أصحـاب عربـات الـكارو:

"هؤلاء لسن نحن.. نحن لم نفعل شيئا.. ربما تعنون نساء أخريات"

وفي الحقيقــة أن أصحــاب عربــات الــكارو، لم يركــزوا في الوجــوه، خاصـة أن أهـالي جـلابي كلهـم يتشـابهون، رغـم إعتقادهـم الغامـض أنهـم مختلفـون! فحدثتهـم أنفسـهم، بأنهـم ربمـا فعـلا، قـد أفرغـوا مياههـم في بيـوت أخـرى! فلـم يسـتطيعوا الاصرار عـلى مطالبة سـت البنـات وجاراتها..

ولإدراك جـداد أن ثمـة شـائعات قادمـة ينـذر بهـا المنـاخ العـام، إذ تكوَّنـت للرَّجـل خـبرة كافيـة بأهـل جـلابي، اضطـر أن يدفـع ثمـن الميـاه لأصحـاب الـكارو البرميـل، قاطعـا الطريـق عـلى أي محاولـة لنسـج حكايات وروايـات مـن هـذا الحـادث العـرضي! الـذي أدرك منـذ البدايـة أنـه "مـن عمايـل الفاجـر المطلوقـة سـت البنـات!"

حـاول أهـالي جـلابي ود عـرَّبي، عـن طريـق العـون الـذاتي، أن يحفـروا لأنفسـهم بـئراً أو بئريـن، وبعـد اختبارهـم لعـدة مواقـع، اكتشـفوا أن الموقع الوحيـد، الـذي يحتـوي عـلى احتياطـي جـوفي عـذب، هـو ذلـك الـذي نقـل إليـه حسَّـان جـداد الجامـع، فانطلقـت الشـائعات أن: جـداد دفـع الكثـير مـن الرشـاوي لهيئـة مياه المـدن، ولذلك كان يعرف سـلفا أن المـكان الوحيد، الـذي بـه إحتياطـي جـوفي هـو هـذا الموقـع، الـذّي شـيَّد عليـه المسـجد، ولذلـك نقـل المسـجد إلى هـذا الموقـع عـن عمـد دون إستشـارة أحـد!

في هـذه الفـترة كانـت حكومـة أبـو لكيلـك الجنكويـزي، قـد أصـدرت فرمانـاً، بـأن تدفـع المسـاجد فواتـير الميـاه والكهربـاء، وعوائـد الأرض إلى آخـره في نظـام المكـوس والجبايـات والريـع، الـذي أشـتهرت بـه حكومـة الجنكويـزي، أسـوة بـكل العقـارات في البـلاد الكبـيرة!

أصاب هذا الفرمان عدداً مقدراً من مواطني البلاد الكبيرة، وجداد شخصيا، بصدمة كبيرة. ولكن جلابي لم تأبه للأمر كثيراً، فجلابي ود عربي لم تدخلها المياه أو الكهرباء الحكومية، لحظة صدور هذا الفرمان، كما أنها خارج التخطيط، بالتالي ليست عليها عوائد على الأرض. كما أن أعمال مواطنيها خارج دائرة المظلة الاقتصادية. حتى أن أثريائهم يفضلون دفن أموالهم على وضعها في بنوك الجنكويز اللصوص!

زُبدة القول أن جلابي كأنها ليست جزءً من جغرافيا وتاريخ البلاد الكبيرة، ومع ذلك "نُخبة جلابي" من الذين تلقوا قدراً من التعليم، مكنهم من فك الخط، وكنوع من التضامن الإنساني، مع أحياء المدينة الريفية داخل التخطيط، تصدوا لما حمله هذا الفرمان، بالكتابة على الصحف الحائطية، التي كانوا يعلقونها في دكاكين وكناتين جلابي ود عربي، حيث أكدوا أن المساجد التي يرتادها عامة الشعب (ما أطلقوا عليه السواد الأعظم)، يجب على الحكومة رعايتها، لكن تلك التي تتبع للعرَّافين الجنكويز أو أي من حلفائهم في الجماعات الشبيهة، التي تعتقد أنها فرقة ناجية، يجب أن تدفع الفواتير والضرائب والمكوس والقبانة والطُلبة والذكاة وأي نوع من الرسوم القديمة والجديدة والتي ستستحدث (ينبغي أن تتحمل الفئات الناجية تبعات نجاتها كاملة، فلا يعقل أن يتحمل الشعب، الذي سيمضي إلى الجحيم قدماً، من عرقه عبء دفع الفواتير عنها!) فيخسر ماله بعد أن خسر آخرته! كما يزعم العرافين الجنكويز (من ليس معنا في حزبنا، حزب الله فهو مع حزب الشيطان)!

وهكذا اعتبر عدد من المراقبين المتنورين؛ أن ثمة "خطاب علماني" يتشكل في جلابي، يعتبر فتحاً مميزاً في مجال الفتاوىٰ، التي تعني بالتراث وقضايا العصر.

وعندما علم المتعلمين، الذين أصبحوا يوصفون بـ (علمانيي جلابي) بهذا التقرِّيظ أعجبهم كثيراً؛ رغم أنه كان غامضاً بالنسبة لهم وغير مفهوم!

إذن وجـد خطـاب العلمانيـين في جـلابي قبـولا منقطـع النظـير، في المدينـة الريفيـة والأحيـاء المجـاورّة. بـل تطـور الأمـر إلى أن نقلتـه "وكالـة رويـترز" وعنهـا نقلتـه وكالـة الأنبـاء الفرنسـية و"صـوت كولونيـا" والإذاعـة السـويسرية، وعـدد مـن وكالات الأنبـاء الدوليـة الأخـرى.

وتعاطفـت معـه ردود أفعـال عالميـة مقـدرَّة، فقـد تحركـت عـلى إثـر مـا أذاعتـه رويـترز، منظمـة الدفـاع عـن حقـوق الانسـان المغلـوب عـلى أمـره، و جمعيـة المعذبـون في الأرض الإقليميـة، ورابطـة الفلاحـين والعـمال الدوليـة، وأصدقـاء الجـراد، والعفـو والأزمـات الدوليـة ومراقبـة حقـوق الإنسـان وكهربـاء بـلا حـدود، وكتلـة الأقليـة السـوداء في جوهانسـبيرج، والرابطـة العالميـة للسـكن العشـوائي والحيـاة البريـة.

وقـد أوردت إذاعـة "سـوا سـوا" الأمريكيـة الموجهـة، في سـياق نشرتهـا حديثـاً مفخـماً ومفخخـاً، يعـبر عـن وجهـات نظـر لم تسـمع بهـا جـلابي، التـي ليـس لديهـا ناطـق رسـمي، لديـه كل هـذه القـدرة عـلى التحليـل، وكانـت مونـت كارلـو، تسـتهل تحليلاتهـا الإخباريـة عـن ردود الفعـل، حـول وجهـة نظـر علـماني جـلابي ود عـربي بـ:

"وقد قال العلمانيون في جلابي ود عربي.."

وفي واقـع الأمـر أن علمانيـي جـلابي ود عـربي (إن وجـدوا) فهـم ليسـوا علمانيـين بالمعنـى الـذي تحدثـت عنـه هـذه الإذاعـات، فهـم أولئـك البسـطاء الذيـن مـن الممكـن أن يقـض مضاجعهـم أي خطـاب دينـي عاطفـي، والحكمـة تأتيهـم "طيـف طايـف" مـع تهاوّيـم "البنقـو والحشـيش، أو تجليـات "عرقـي البلـح البكـر"..

هذا هو كل ما في الأمر ببساطة..

الفصل الثاني

I

وقتها كان أبكر المعراقي (الذي كان أسمه ذات يوم آدمو) قد وفد حديثا إلى جلابي ود عرَّبي من مكان ما (كان حريصا على التخلص من شخصيته الحقيقية مستكينا للعزلة)..

حياة أبكر المعراقي في شخصيته التي تخلص منها (شخصية آدمو القائد الثوري) قبل أن يلجأ إلى جلابي ود عربي منتحلاً شخصية أبكر المعراقي.. كانت غريبة لغير المقربين منه، وغامضة في الآن نفسه!

تنهض في قدرته على تسريب تلك المشاعر المتناقضة للآخرين: التوبة، القدر، الثورة، التراجيديا، القلق، الشغف والموت.

وكلما أقتربت منه أكثر، اكتشفت أن هذه المشاعر المتناقضة، هي إختصار لمعنى الحب والقضية (الوطن) عند آدمو!

لطالما حاول آدمو السيطرَّة على أبولكيلك الجنكويزي، مدفوعاً بهذه المشاعر المتناقضة، ولم يجن سوى المقاومة، التي كادت أن تودي بحياته، لأكثر من مرَّة، لولا نفوذه وتراجعه عن الاستمرار، في محاولة التأثير على أبولكيلك. كان آدمو رجلاً استثنائيا، لا تنقصه الشجاعة ويدرك أن أصعب شيء لمن كان مثله، الابتعاد عن الشّر، وظل أبو لكيلك هو التجسيد الحي لما يطلق عليه، آدمو (شراً!).

حبيبته حليمة "الوّرتابة" تكرر مراراً بخفوت:

"نظراتك تخيفني.. تثقبني، من أين جئت بهذه العيون؟"

وكعادته عند تلقف يدها، لا يعلم ما هو أفضل شيء يمكن قوله لها!

ولا يزال آدمو رغم مرور سنوات طوال يتذكر في قيلولاته المتكاسلة، كل ما مر بحياته. من مرارات وأسى.

كأن كل شيء حدث البارحة فقط.. وبين كل ذكرى وذكرى، يتوقف ليحاسب نفسه (لو كنت صمت وأغلقت فمي لما جرى الذي جرى، ولما تورطت في شخصية أبكر المعراقي.. هذه الشخصية الكريهة إلى نفسي..) يتأوه آدمو فى وحدته، متكئاً على بقايا من ذكريات، تشظت في هجير السنوات العجاف..

كثيراً ما يرى الحيرَّة، تأكل عيني حليمة الواسعتين.. حيرتها منذ أول لقاء لهما في سني حياتهما الباكرة. حين أخترقا عالميهما، غائبين في غلالة برزَّخية تقاطع فيها الألم مع القسوَّة والنيران التلظي، معلنان مواجدهما الوليدة للوادي. وأشجار القمبيل. وشجر القنا، و..

منذها بقدر ما اقتربا من بعضهما، ازدادت المسافة بينهما إتساعاً.. فقد أدرك آدمو أنها لا تنتمي إلى عالمه..

ذلك الحس الأسطورى، الذى يهيمن عليه ويتغلغل فى روحه وجسده!.. ولكن ظل مخلصاً لها! وظلت وفية له.. كانت سعيدة بسيطرته عليها، وكان يفهم دخيلتها!

ومع ذلك ظل آدمو لسنوات طويلة، يشعر بالحاجة للحب، في كل ما هو حوله.. لا يحتمل كلَّس الحياة.. يعانى آلامه وحده، دون أن تصدر عنه آهة واحدة.

منذ ميلاده، ولدى دخوله "الخلوى" أخذ يفكر فى كوّن اللُّغة.. اللُّغة التى يحفظ بها سور الكتاب المقدس.. و لغة قبيلته المختلفة عنها.. وفى هذين الكونين أخذ يتحرك، لاستكناه هذا السّر الذي يبدأ من هنا وهناك بين تلافيف الآيات، ومتون الأحاديث. وحواشي سيرَّة النَّبي العربي.. كان سؤالاً جارحاً يتغلغل داخله، لينفتق عن ضباب يفضي إلى ضباب آخر!

قدر خفى ذلك الذي قاد آدمو إلى المدرسة الابتدائية، دوناً عن

أقرانـه، في القريـة الصغـيرَّة، الرابضـة عـلى ضفـة الـوادي. حـذاء دغـل القمبيـل..

وبـين مرحلـة وأخـرى، كانـت هويتـه تتمـزَّق لتلتئـم وتلتئـم لتتمـزَّق هُويتـه التـي صاغهـا أبـواه.. وأهـل قريتـه. بأسـحارهم وطقوسـهم وطبيعـة الـوادى الناهـض أسـفل الجبـل..

كانـت لغتـه الأم تبتعـد، لتحـل العربيـة، التـى التهمهـا ذكاءه الحـاد محيطـاً أسرارهـا، وأطماعهـا وهيمنتهـا عـلى لغتـه الأم!

تعـرف آدمـو عـلى التاريـخ الإنسـاني وهـو يـودع آخـر مراحلـه الدراسـية.. أدرك صراع الإنسـان في محاولاتـه الدائمـة للسـيطرة عـلى قـوى الطبيعـة، والمـوارد.. ولم يسـتطع تفـادي رؤيـة تاريـخ قريتـه، يتحـول الى أشـلاء، بـين معـان تاريـخ أوروبـا والعـالم، وبـلاده الكبـيرة التـي يشـقها النيـل كفلقتـين، لنـواة نصفهـا متغضِّـن كالعُرجـون القديـم.

المعـارف المتناقضـة و المتصادمـة، فتحـت وعـي آدمـو، عـلى أسـئلته الحارقـة، التـي سـتلازمه في قـوادم الأيـام.

تناهشـته الأسـئلة، ففتـح كيانـه عـلى مصراعيه، متوغـلاً فى عُزلـة عميقة، لم يخـرج منهـا إلا وهـو حامـلاً السـلاح ضد أبـو لكيلـك الجنكويزي.

قبـل سـنوات طويلـة مـن اتخـاذ آدمـو لقـرار الثـورَّة المسـلحة، داهمـت حليمـة غربتـه ووحدتـه القاسـية.. على شـفة الـوادي.

جلسـت دون أن تسـتأذنه.. التفـت إليهـا ووجههـا يلتـف بوجهـه.. كان صفـير الرِّيـح يتخلـل الـوادي الـوادع.. غابـت فى مسـام الريـح.. تبعهـا آدمـو، وهـو يجذبهـا إلى مركـز الريـح..

وغارقـين فى أنينهـا ولوعتهـا وهـي تحتـك "بقـش القطاطـى وصريـف الحيشـان، المزروبـة بعيـدان الدّخـن" كتبـا أغنيتهـما الحالمـة!

كان آدمو يُدرك أن حليمة تعلقت به منذ الصغر، لأنه المحسوس أمامها. تنظر لقصتهما معا، كقصة حب يانعة، وهما يتسللان خلسة من (خلوة الفكى ابراهيم شطة)، إلى الدَّغل فى ضفة الوادي أو الغابة حيث (صندل الردوم) والدروت، أعلى قوز السمسم)..

كان هدوء حليمة يضفي على جنوحه طابع المغامرَّة التى يحب، وبشعائرهما المقدسة عند لقاءاتهما، تنفتح بوابات السحر على مصاريعها، فتنقلق عليهما، نوافذ الشجن الريفي، ويتماهيان معاً في أنشودات أثرية لم تكتشف، متجذرين في القصص المنسية للبلاد الكبيرة!

غموض آدمو هو ما يدفع بقلق حليمه إلى أقصى الحدود: عندما يغيب دون رسائل، عندما يعود دون ترقب.. تتمنى ألا يسافر مرة أخرى أبداً..

هكذا ظلت حليمة تعاني توجداتها منذ سنوات دراسته الأولى في المدينة، حتى لحظة دخوله في تلك العزلة البديعة، التي خرج منها ثائراً يحمل السلاح، معلنا تمرده على أبو لكيلك الجنكويزي..

كثيراً ما كان حرص حليمة على لفت أنظار الآخرين يقلقه، ويفجر داخله كل كوامن التوتر الأزلي، لروحه الملتفة فى "دمور" أبيض يحاصره في أحلامه النادرة!

جمال حليمة.. جاذبيتها وسحرها، الذى يشبه تلك الإحساسات المتسرِّبة، من بوح آلهة المعابد الغابرَّة!.. كل شيء يخص حليمة يدفعه إليها دفعاً، وتتسع المسافة بينهما أيضا في الآن نفسه؟!

II

بعد محاورات عديدة، ووعد ومواعيد فاشلة، في إطار من السّرية، المتسربلة بسلسلة معقدة من الإتصالات والوسطاء.

بعد كل هذه المحاولات، نجح آدمو في لقاء مندوب (اليانكي).. تحدَّث آدمو عن آلام شعبه وأمجاد أسلافه وجهودهم الدبلوماسية، قبل هيمنة (الجنكويز) علي البلاد الكبيرة..

تحدَّث عن البُعد الإنساني لقضيته وواجب الأسرة الدولية. وكان مندوب (اليانكي) يبتسم في خبث ودهاء!

في تلك الظهيرة القائظة؛ التي ألتقي فيها آدمو اليانكي، كان مشحوناً بانفعالات الأرض حليمه.. ومشاهد الرِّفاق الذين سقطوا في غارات الجنجويد، علي القرى والحلالات.. حاصرته صورة أمه العجوز (خاطرَّة) وهي تحترِّق داخل قطيتها المحاصرَّة بالجنجويد..

جاءته صورة أبيه (لأول مرة يراه يبكي).. كان مقطّب الجبين، في صمته كلام، وفي عينيه تمتزج مشاعر شتى..

أدرك آدمو أن الجنكويزي أبولكيلك اختطف حليمة للضغط عليه.. التاع.. هاجَّت دواخله.. كانت ذكريات الذين لطالما أحبهم بعمق، وترسخ وفائه لهم في وجدانه، تداهمه كألف عقرب تتصارع داخل زجاجة مغلقة؟!

انفض اجتماع آدمو باليانكي، فتوجه إلى أتباعه وحواريه.. ضغط على مشاعره الذاتية. تغلب على ألمه وأحزانه، و خطب فيهم عن حالهم ومآلهم، حتى سالت من عيونهم دموع الدَّم، تبلل أرض المعسكر المخفي بعناية في قلب الجبال والأحراش.

ومضى ينظم صفوف جيشه، معلنا حربه الضارية على الجنكويز..

ومـع اشـتداد المعـارك، والهزائـم المتواليـة لجيـش أبولكيلـك انتـشر الفـزع، في أوسـاط العالمـين ببواطـن الأمـور، مـن صفـوة جمهوريـة المملكـة الجنكويزيـة العظمـى، بينـما كانـت العامـة، تمـضي في حياتهـا بإيقاعهـا ذاتـه، لا تعـرف شـيئا عـما يجـري في الحـدود البعيـدة!

فأجهـزة إعـلام أبولكيلـك، عتمَّـت عـلى غـارات الجنجويـد وهزائـم جيـش أبولكيلـك، وأكـثرت مـن بـث تلـك الأغنيـات العنصريـة البغيضـة، المعبـأة بمزاعـم الشـجاعة، التـي تكـرر فيهـا (شرابنـا مويـة نـار.. لحـم الأسـود مزتنـا.. فـرش البيـت حريـر.. ترقـد عليـه "فرختنـا") ولم تنـس كذلـك بـث أغنيـات (الجبجبـه؟!)؛ التـي تحـرض عـلى القتـل الجماعـي والأغتصـاب وحـرق القـرى، حيـث غـارات الجنكويـز لا تبـق ولا تـذر!

كان الجميـع يتسـاءلون كيـف لآدمـو، الـذي لطالمـا شـدا، بثوابـت أبولكيلـك العجيبـة، وتغنـى بأمجـاده، كآخـر خلفـاء النبـي العـرَّاف ذو البدلـة البيجيـة، عـالم القانـون واللُّغـات، و"خابور" فتـاوى النـكاح الشرعي، وحيـض النسـاء النفسـاوات.. كيـف لآدمـو هـذا، أن يشـق عصـا الطاعـة عـلى سـيده المهيـب الركـن أبولكيلـك؛ ويعلـن الثـورة عـلى سـعادته، بـكل هـذا الجنـون؟!

وبالطبـع سـقط هـذا السـؤال، في قصـف الأنتونـوف والهليكوبـترات والمدفعيـة الثقيلـة، عـلى الفلاحـين والبسـطاء، الذيـن كانـوا ينظـرون لآدمـو (المنقـذ، المخلـص الـذي سـيملأ أرضهـم عـدلاً، بعدمـا ملئـت جـوراً) بعيـون ملؤهـا الأسى والالتيـاع!

قال عباس ود الخزين:

"لا بد من القضاء على قطاع الطرق، وزعيمهم آدمو المارق المرتد"

"ولكن، هؤلاء ليسوا قطاع طرق!"

كان ود الخزّين لحظتها يؤكد على صدق النزوع النفسي لأبولكيلك؛ و شهوته المريضة في القتل؛ وعشقه الدَّم والاستباحة..

ففي اليوم الذي سبق اليوم، الذي استولى فيه أبولكيلك على السلطة، في جمهورية المملكة الجنكويزية. كان قد أفتتح انقلابه على الأمراء الطائفيين، بقتل عشرة من الفلاحين و ثلاثة غنمايات وحمارين ليتأكد من كفاءة بندقيته!

فربت كبير العرَّافين على كتفه بود، مستحسنا فعلته..

ومن بين كل المقربين منه، كانت علاقة أبو لكيلك بآدمو مميزة (دونا عن كل علاقاته بالعرَّافين الذين يملأون قصره) على الرغم من إحساسه الدائم، بأن التفاهم مع آدمو، من الأمور التي تصعب عليه، إلا أنه وجد نفسه منجذبا إليه على الدوام!

ربما لأن آدمو لم يكن يكترث للتفسيرات العقلانية لسلوك أبولكيلك.. هذه التفسيرات التي، لو طرحها لوجد أبولكيلك، حرجاً كبيراً في تبرير وجوده واستمراريته!

أكثر ما كان يزعج أبولكيلك، هو خوفه الدائم من شيء غامض لا يدري كنهه بالضبط!..

هذا الخوف الذي يطارده منذ الطفولة الباكرة، جعله لا يستطيع احتمال العلاقات المستقرة بالآخرين، ووقف خلف تعذيبه فى الصّغر، للزواحف والعصافير، حتى أنه ضرب والدته (بحديدة في عضم الشيطان، لأجل قنقر عيش!) وهكذا ظل يتسلّي (عندما بلغ مرحلة الشباب) بقتل الكلاب والفئران والقطط!

سبب أبولكيلك بسلوكه العدواني مع أقرانه لأسرته توترا وقلقا عظيمين! وازعاجا لا حد له!

كان أبولكيلك على الرُغم من الخوف العظيم، الذي يسكنه يشعر بأنه عظيم ونبيل، ولا أحد يدري كيف تكوّن في دخيلته مثل هذا الشعور الزائف!

ظلت علاقة أبولكيلك بكل من حوله عاصفة، لا تفتأ بين آن وآخر؛ تقتلع أمامها كل ما هو جميل يربط بينه والآخرين!

أخضع أبولكيلك كل من حوله (الوحيد الذي لم يتمكن من إخضاعه، كان آدمو نفسه) وكثيرا ما كان يشعر، أن علاقته بآدمو أشبه باختبار قوة.. كان الهتاف باسم أبولكيلك، والتصفيق له من أحب الأغنيات التي يشتهي سماعها في كل لحظة.

لا يذكر أبو لكيلك فى حياته العامرة بالمعارك، أنه أحب فتاة قط. كل الفتيات اللائي ربطته بهن علاقة عابرة، أسقطهن من حياته بمجرد انتهاء رغبته فى الاستمرار. جميعهن كنّ جميلات، صغيرات، خاضعات، يتباهى بهنّ أمام أصدقائه، بفخر واعزّاز.

ولطالما حلم بنوع من الحب الأسطوري، كذاك الذي جمع بين العشاق في ألف ليلة وليلة! ولا زال ينتظر مثل هذا الحب الكبير! على الرّغم من أنه يملأ وقت فراغه بالزواج من الأرامل (زوجات قادة جيشه، الذين أسقط طائراتهم في أحراش البلاد الأسيرة!).

الغرّيب أن أبو لكيلك ليس هو رئيس البلاد الفعلي فهو(مجرد) القائم بأعمال القصر، لكنّه من هذا الموقع أصبح عمليا الرّجل الأول في البلاد الأسيرة، فكل الأموال والأجهزة الحساسة، مفاتيحها في يدّه!

ويبدو أنه عندما تآمر مع العرّافين ضد جداد، كان ذلك لخشيتهم أن يمضي جداد في الاتجاه ذاته، الذي سبقه إليه آدمو.

العلاقة بين أبو لكيلك وكبير العرَّافين، ظلَّت غامضة حتى لحظة دخول اليانكي، في مؤخرة طلائع مليشيات آدمو، فكبير العرَّافين شخص

مـن ذلـك النّـوع الـذي تنسـج حولـه الحكايـات، التـى يصعـب تصديقهـا، فـإلى جانـب أنـه كائـن فطـر عـلى الإختـلال الجنـسي (كـما يطيـب لـوَّد الخزِّيـن التعبـير)، فقـد كان جينيـاً أيضـاً مختـل عقليـاً!

كان مولعـا بالابتسـامات الشـبقة، التـي يمنحهـا لأتباعـه وحواريـه بسـخاء..

فكبـير العرَّافـين ظـل طـوال عمـره، فى حالـة حـب دائـم، كعاشـق ولهان ومغـرم بالذكـور، مـن كل شـكل ولون!

لكنـه أيضـا كان عاشـقا لتلـك التّرانيـم مجهولـة المصـدر والغامضـة، التي يسـمعها آخرالليـل فتملـؤه حبـوراً، وتجعلـه يسـير آلاف الفراسـخ، في طريق لم يمـض فيـه أحـد مـن قبـل.

يتبـع تلـك الهواتـف المضيئـة (كـما يزعـم) التـي تقـوده من ظلـمات الى إضـاءة خافتـة، فشـعور بالخـدر اللَّذيـذ.. حيـث يشـعر بالتحـرر الكامـل.. كان يوهمـه بأنـه حصـل عـلى الحُرِّيـة، بعـد أن دفـع ثمنهـا مـن عزلتـه لعـشراتِ السـنوات!

عـلى الرُّغـم مـن النجـاح الباهـر، الـذي حققتـه ثـورَّة آدمـو المسـلحة، إلا أن أبـو لكيلـك اسـتطاع تطويقهـا فيـما بعـد بطريقـة مـا (بتنفيـذ مؤامـرة داخليـة ضـد آدمـو، إذ انقلـب عليـه بعـض قـادة ثورتـه، وهمـوا بقتلـه فوجـد نفسـه مضطـراً للهـرب) أصبـح آدمـو بـين مطرقـة الثـورة، التـي صنعهـا وسـندان أبولكيلـك الجنكويـزي، فلـم يعـد يثـق بأحـد أبـدا، إلى أن أنتقـل إلى الحيـاة الآخـرة بطريقـة غامضـة!

قالـت التّايـة زوجـة أبـو لكيلـك لجارتهـا محاسـن زوجـة وزيـر الدفـاع خلـف اللـه الجنجويـدي:

"أبـو لكيلـك مسـكين وغلبَّـان، مـا قـادر يتفـكك مـن سـيطرَّة الـزول ده عليهـو.. يقولـو شـمال يمـشى شـمال يقولـو يمـين يمـشي يمـين؟!"

سالت محاسن بتردد:

"دحين يعني ما عندو شخصية؟!"

فرمقتها التاية بنظرَّة غاضبة، جعلتها تتراجع وتضيف:

"بـري يـا أختـي راجلـك منـو الزيـو.. هيبـة وسـلطان، لكـن النـاس في الرسـول اتكلمت!"وعندمـا ابتسـمت التايـة، هـدأت اضطرابـات محاسـن وانفعالاتهـا التـي كادت تـشرخ الجـدار! ووجدتهـا فرصـة مناسـبة، لتـسر للتايـه:

"كل مـا يشـاع عن إنقسـام العرَّافـين، و منـاوأة أحد القسـمين أبولكيلك، محـض اخـتراع لـذَّر الرَّمـاد في العيـون، فـكل مـا حـدَّث ويحـدُّث، هـو مـن بنـات أفـكار كبـير العرَّافـين، لغـرَّض لا يعلمـه إلا هـو بـسرِّه الباتـع وأبـو لكيلـك شـخصيا!"

فابتسمت التاية فى رضا، وهمست محاسن فى سرها:

"سجّم خشم أمو!"

وقتهـا كانـت حـاضرة جمهوريـة المملكـة الجنكويزيـة، قـد أفاقـت مـن بـوح غفوتهـا الغامضـة، عـلى تأوهـات أبولكيلـك الجنكويـزي التـي اهتـز لهـا القـصر المتـآكل، وفي الوَّقـت نفسـه، كان آدمـو لا يـزال يسـتعيد فى خاطـره، ذكريـات الصِّبـا والطفولـة!

أفـاق أبـو لكيلـك مـن الكابوس، الـذي رأى فيه نفسـه مشـنوقاً، ينظر إلى رأسـه وهـو يتـدلى تحيـط به أنشـوطة طرَّفهـا ثابت فى السـقف! فتـأوه تلك الآهـات العميقـة التي سـمعها كل من في القصر من حاشـية وأتباع جنكويز!

مـن أعمـق أعـماق بوتقـة جمهوريـة المملكـة، تلفـت أبولكيلـك في فراغ الغرفـة ذاتهـا! التـي خرجـت منهـا أخطـر القـرارات، لأكـثر مـن نصـف قـرن مــن الزمان.

تلـك القـرارات التـي قذفـت بشـعبه إلى حالـة مـن اليـأس والبـؤس الفريـد، والقلـق والتوتـر العظيمـين، وغـيرَّت مـن مصـيره باتجـاه آخـر أكـثر غموضـاً، مـن آهاتـه الملتاعـه.

عندمـا تـولى أبولكيلـك زمـام الأمـور فى جمهوريـة المملكـة، كان مدفوعاً مـن العرَّافـين، الذيـن أوهمـوه بأنـه رجـل ذو شـأن عظيـم فقـدَّر ثـم قـدَّر، ورأى أن مـن الحكمـة أن يفعـل بشـعبه، كل مـا يشـير بـه العرَّافـين.

وعندمـا حدّثـه عبـد الجـوّاد ود الباهـي، نقـلا عن أحـد العارفـين بأسرار العرَّافـين، الذيـن أحكمـوا الحصَّـار حـول أبي لكيلـك، لم يصـدِّق عبـد الجـوَّاد بـل وأنتهـره، فخـرج الآخـير غاضبـا، ومـضى أبولكيلـك، إلى كبـير العرَّافـين يُسرِّب إليـه شـكوك ود الباهـي، فلـم تمـض سـوى أيـام قليلـة، حتـى مـات ود الباهـي أو (قتـل) وتكـرَّرت حـالات المـوت فى ظـروف غامضـة! لـكل مـن تشـكَّك في أمـرِ عرَّافـين أبي لكيلـك!

وأصبحـت منذَّهـا مقـولات العرَّافـين، مـن ثوابـت أبولكيلـك التـي يـصرَّ عليهـا فى خطاباتـه الجماهيريـة، أكـثر مـن العرَّافـين أنفسـهم، حتـى شـاع في جمهوريـة المملكـة القـول فى سـخرِّية: (الـتركي ولا المتـورِّك) كنايـة عـن المـأزق الوجـودي لأبي لكيلـك، فى تبنـي أمـور غريبـة! نيابـة عـن أصحـاب هـذه الأمـور!

ظهـيرة ذلـك اليـوم الـذي أفـاق فيـه أبولكيلـك، مُحـاصراً بكوابيـس اليقظـة، التـي اخترقـت أحـلام جمهوريـة المملكـة، اسـتعاد في ذاكرتـه عمليـات السـحق والتنكيـل، التـي قـام بهـا ضـد الجمعيـات السرِّيـة (التـي كانـت علنيـة قبـل توليـه الحكـم، انقلابـا عليهـا) حتـى لم يبـق لهـا صـدي.

كانـت تقاريـر مخبريـه مؤخـراً، تؤكـد أن زعـماء الجمعيـات السريـة الهاربـون، شـمتانين فيـه، وليـس لديهـم اسـتعداداً في إقالـة عثرتـه، وتطييب خاطـره في محنتـه الكـبرى.

ظهيرة ذلك اليوم هتف أبولكيلك (بعد اطلاعه على آخر التقارير) بحاشيته التي كانت تتساءل، باحساس ملؤه الزُّعر والخوف والترقب!

سميَّ أبولكيلك وصليَّ، وأستهل بثوابته المعتادة، التي طالما حوَّلت حنين أهل الجمهورية الملكية إلى أسي، وذكرَّيات أسلافهم بكل الحكايًا القديمة إلى حربٍ ضارية، انتزعها أبولكيلك من قلب التأريخ، ليزرعها في حاضر حاضرَّة البلاد الكبيرة.

فاستحالت تلك الثوابت إلى كوابيس، أقلقت مضاجع عمال "القصَّب- الكتكو والفحامَّة" والفلاحين البسطاء في أقاصي البلاد و دوانيها، وأولئك الذين يعيشون على جنِّي الثمار، و مطاردة الأرانب بـ "السفاريك!".

كان كل من في القصر، يتصبب عرَّقا عندما ختَّم أبولكيلك خطابه:

"من أراد العودة فليغتسل، بماء البحر ومن أراد السلطة، فليحمل السلاح لقتالنا"

لحظتئذ، همس عباس السنجك لود القرَّاي:

"أبولكيلك ما ناوي يجيبها البر!! أنه يدعو معارضيه لحمل السلاح؟!"

فهز الأخير رأسه وصمت مطرقا بعيداً عن وجه آدمو، الذي غضَّنته الأوجاع التي صنَّعها أبولكيلك وجنجويده في قومه!

كان آدمو إثر هذا الخطاب، قد أضمَّر في نفسه شيئا، لم تكشِّف عنه سوى وقائع الأحداث فيما بعد!

إذ هرب في سرِّيه تامة، وبعد هروبه انتشرت البيانات والمنشورات السوداء، التي تحكي عن فساد عقل أبولكيلك وجنون وفساد حاشيته وأتباعه!

ورغم أن هذه المنشورات لم تحمل توقيعاً محدداً، إلا أن أصابع

الاتهام في أجهزة أبولكيلك الاستخبارية أشارت كلّها إلى آدمو، وتناقلت حاضرَّة البلاد الكبيرة، في سرِّية تامَّة، أحد البيانات التي لم يكتب عليها ولا حرف واحد، فإماطة اللثَّام عن علاقة كبير العرَّافين الحميَّمه باليانكي، وربائبهم من جوار البلاد الكبيرة الطامعين، لم تكن بالأمر الذي يحتاج إلى بيان!

لحظتها كان مفكري الدولة الجنكويزية ومثقفوها ومبدعوها، قد أكملوا كتابة ملحمتهم الغامضّة، التي لم تحمل سوى عبارة واحدة، على مدى عشرة ألف صفحة هي:

(المصيرك تنجرح بالسلاح..) ولم يتبرَّع أيٌّ من النقَّاد المزعومين، لشرح المحتوى المعرفي و الدلالي للفظ (السلاح) التي وردت في الملحمة العظيمة لأهل الحاضرَّة، رغم تساؤلاتهم المريرة.

ولأن أبولكيلك لا يهجسَّه سؤال، اكتفي باستحسان الملحمَّة، مداريا جهله بعيون الشِّعر الجنجويدي، لكنَّه لم يتوانى في أن يعرض بعصاه ويرقص. ما دفع أحد الخبثاء في الصفوف الأمامية أن يهمس:

"جَّب.. جَّب.. جَّب.."..

وقال آخر:

"حتودينا في ستين داهية"

وتصدى جبر الدار ود تور شين للمسألة فلاك لسانه وهمهَّم ودمدَّم، ولم يفهم أحد الحاضرين شيء سوى كلمة:

(جنكويز!)

لحظتها كانت قبيلة الجنكويز (التي ينتمي إليها أبولكيلك) قد غادرت مضارِّبها إلى مكان غير معلوم، وأرسلت زعمائها إلى قصر أبولكيلك ذي القبة الحمراء، عند مقرن النيلين في قلب الحاضرَّة

الجنكويزيــة.

كانــوا يناقشــون خططهــم لحمايــة القبيلــة، وحمايــة أبولكيلــك مــن أيَّ هجـوم محتمـل، ويخططـون لاسـتكمال خطَّـط العرَّافـين بحـرق مزيـد مــن القــرى و"الحــلالات والفرقــان" واغتصــاب أكــبر عــدد مــن الفتيــات دون سـنِّ العشرِّيـن وقتـل كل الرِّجـال والأطفـال والشـيوخ دون اسـتثناء.. وعندمـا جلـس أبولكيلـك إليهـم أكـد عـلي خُططِّهـم..

كان أبولكيلـك منـذ طفولتـه الباكـرة، كائنـاً متوحـداً يعشـق العزلـة، ويجنـح إلى العنـف و لديـه نـزوع فطـري قـوي للانقيـاد، وذاكـرة ذات قدرة فـذَّه عـلى حفـظ تعليـمات العرَّافـين وتنفيذهـا (في صالوناتـه الخاصـة)..

إثـر نجـاح آدمـو، في تصعيـد وقائـع السَّـحل الـذي تـمَّ لقومـه، وتحرِّيك هـذه الوقائـع المأسـاوية للضمـير العالمـي، أفـاد أبولكيلـك أنـه فعـل مـا فعـل ليـس اسـتجابة فقـط لأوامـر العرَّافـين، بـل لحبـه للبيئـة، هـذا الحـب هـو مـا دفعـه لأعـمال الإبـادة الجماعيـة، واسـتجابة لأجهـزة إعلامـه، بـأن هـؤلاء السـود البدائيـون، يهـددون الحيـاة البريـة بالصيـد وينهكُـون الأرض بزراعـة التمبَّـاك والبنقُّـو!

كـما أن الاغتصـاب مـن وسـائل تحسِّـين النَّـوع الفعالـة، لدمجهـم في بوتقـة جمهوريـة المملكـة الجنكويزيـة العظمـى.

ظـلّ الهـدّف الحقيقـي لــ أبي لكيلـك غامضـاً! حتـى عـن أفـكاره الشــخصَية المضمــرَة!

وفي لحظـات تجلِّيـه الخـاص، عندمـا تتـسرَب إليـه حكايـات الاغتصَّـاب والقتـل الجماعـي وحـرق القـرى. يتسـاءل في سريرَّتـه (لمـاذا فعـل مـا فعـل، بإطـلاق جنكويـزه لإشـاعة كل هذا البـؤس الذي يهدِّد الحـاضرَّة ذاتها الآن!).

كان أبولكيلـك ينتـج أفـكاره بطريقـة عجيبـة.. إذ ينفَّـث ذلـك النَّـوع مـن الدُّخـان، الـذي يتصاعـد في قـاع دماغـه، متموجـاً في دوائـر حلزونيـة.

ومـن قلـب هـذه الدوائـر، تتشـكل أفـكاره التـي سرعـان مـا يتلقفهـا الجنجويـد، فيزرَّعـون الرُّعـب فى تلـك القـرَّى النائيـة البعيـدة، في نفـوس الفلاحـين والصياديـن البسـطاء، فى أقـصى التاريـخ المنـسي للبـلاد الكبـيرة الأسـيرَّة!

قـال ود عطّـا اللـه الـذى حـارب جـدَّه الكبـير مـع الإمـام المهـدي، ومـات مـن الجـوع والعطَّـش وتعذيـب الأنصـار في سـجون الخليفـة:

"أبـو لكيلـك يعـانى مـن ضغـوط عظيمـة مـن اليانـكي، الذيـن هـدَّدوه بالويـل والثبـور وعظائـم الأمـور، وجعلـوه يرتجـف مـن الخـوف والفـزع!.. ويهتـف بالتايـة:

"دثرينى.. زملينى!".

حاولـت إذاعـة أبـو لكيلـك أن تلطـف مـن الشـقاء والضجـر؛ الـذي اعـترى حيـاة أبـو لكيلـك فأعلنـت عـن بيـان هـام ترقبـوه في اهتـمام، وعندمـا اسـتمعوا إليـه شـملهم ذُعـر وخـوف مقيمـين! كان اليانكي يتدفقون من كل فج. فكر محمد أحمد ود السّرة:

"لابد أن أبو لكيلك الآن في محنة عظيمة!"

ولحظـة تـلى وزيـر دفـاع أبولكيلـك خلـف اللـه الجنكويـزي (الـذي ينحـدر والـده مـن صلـب أحـد الأتـراك في جيـش الدفـتردار) بيـان التصـدي المزعـوم لليانـكي. كان أبـو لكيلـك شـخصياً؛ لحظتهـا يجتمـع بسـفير اليانـكي، مؤكـداً عـلى فـروض الـولاء والطاعـة (للمـرة الألـف منـذ اسـتيلائه عـلى السـلطة مـن قبضـة الأمـراء الجنكويزالذيـن سـبقوه إلى حكـم البـلاد الكبـيرة الأسـيرَّة منـذ اسـتقلالها الوهمـي!). كان ود الـسُّرَّة مثـل أبولكيلـك لا يعلـم أن الآخـير بتنفيـذه لمـا يشـير بـه كبـير العرَّافـين، إنمـا يُنفـذ خُطَّـة اليانـكي المزدوجـة لاحتـلال البـلاد الكبـيرَّة، مـرَّة أُخـرى!

وعندمـا احتـج أبولكيلـك فى ذلـك الاجتـماع بخنـوع، قمعـه سـفير اليانـكي بقسـوَّة:

"نحن لم نقل لك أرتكِّب الفظائع!"

كان أبـو لكيلـك قـد أسـقط في يـده؛ وتلَّفـت حولـه في غرفـة الاجتـماع تسـيطر عليـه الرغبـة في الهـروب الآن قبـل أيّ وقـت آخـر!

III

بعـد مـضي كل هـذه السـنوات، هـا أنـا أجلـس الآن وحـدي، في هـذه البـلاد البعيـدة الغريبـة، أرمـي ببـصري إلى الـوراء البعيـد، فـأرى كل الخيـارات سـيئة، وأفضـل الأسـوأ هـو مغـادرة البـلاد الكبـيرة الأسـيرَّة، فهاجـرت!

والآن أسـائل نفـسي كالعـادة: (متـى تعـود إلى البـلاد الأسـيرَّة يـا عـلي؟!) فيـدّوي سـؤالي في فـراغ المـكان، دون أن يعـود الصـدى راجعـاً، "فأتيقـن" بالصَّبر عـلى الغربـة!

ينـسرب خاطـري مـن آن لآخـر.. غالبـا، ليسـتعيد حِلَّـة جـلابي ود عـربي بناسـها و حياتهـا، فتقفـز المـيرَّم كلتـوم، التـي وجدتهـا بهـذه البـلاد، فحفزَّت في داخـلي كل ذلـك العـالم المنـسي، للمدينـة الرِّيفيـة وجـلابي ود عـربي!

IV

كنت واقفاً أمعن فيهما النظر، إلى أن تلاشيا في الشارع الخالي إلا منهما. فردّدت بصري، وأنا أشعر بميدان التحرير يمتلئ فجأة بالنَّاس، ويهيمِّن الضجيج على شارع القصر العَينِّي! والزِّحام يُعيق حركة المرور، في الشارع المفضي إلى طلعت حرب! كانت الحياة قد عادت إلى طبيعتها؛ في اللحظة التي تهشمت فيها طبيعتي، بعد أن دهستني عربة النقل الكبيرة، وساوتني مع الأسفلت. وحتى الآن لا أدري، هل ما حدث أمامي حقيقي، أم هو وهم تخيلته!..

هل المِيرَّم كلتُّوم، التي عرفتها في طفولتي، هي ذاتها الشيخَّة كلتُّوم التي اختفت أمام عيني قبل قليل؟ هل هي ذاتها.. التي غيرَّت حياتي؟ عندما دخلتها فجأة في ذلك المساء، عند مدخل ضرِّيح السيدة زينب؟!..

هل هي ذاتها هذه التي غيرَّت حياتي مرة أخرى، لحظة رأت عبد الرَّحمن (العويـر) ود التوم فاقتربت منه و مدَّت أناملها تخاصر أصابعه، ومضيا معاً ليتلاشيا في شارع القصر العينِّي! كانت الشيخّة كلتُّوم منذ عرفتها، تكتفي عن سؤالي بالنظر إلى بؤبؤ عينَّي، تعبره إلى جوفي فتدرك حقائقي وتلوِّح لي بها! فكنت أرى نفسي في "رقائقها" التي تعبر بي تلك المسافة الكامنة، في عجزِّ اللغة وقصورها، عن ترجمة نفسي بهذه الدِّقة المتناهية، التي تلوح في إيماءات الشيخَّة وإشاراتها، التي تُفكِّك ما استغلق داخلي، وتبوح برموز باطني، المفعم بالتلويحات، فأرى نفسي كالشمس: ساطعة.. و حياتي تنساب فيها من الميلاد إلى المنتهى، عند شجرَّة اللالوب التي خيمَّت عندها المِيرَّم، تناجي ود التُّوم فيما تعابث

غرابهـا الأشـهب، وأنـا اقـترب منهـما حامـلا قلبـي عـلى كفـي..

تنسـاب حيـاتي هكـذا بإيجـاز ورحابـة، محاطـة بمكاشـفات الوصـول، المنزَّهـة عـن مزالـق اللغـة، و سباسـبها ووهادهـا ومضايقهـا الوَّعـرة!

إذن هكـذا.. كان مـا بيننـا مـن أمـر مـن المبتـدأ إلى المنتهـى! أول مـرَّة جلسـت فيهـا إليهـا غابـت عنـي كأنهـا ترتحـل في عـالم لا نهـائي. لا يمـت إلى هـذه الـدَّار بصلـة.. كانـت هائمـة. مغترِّبـة في الزَّمـن والمـكان. لا شيء يبـين منهـا في ثوبهـا الصّـوف المطـرَّز بالريـش وأليـاف الشـجَّر.

لا أدري إن كان هـذا الثـوب، يخفـي داخلـه الشـيخَّة كلثُّـوم أم يخفـي شـخصاً آخـر!

كنـت قـد التقيـت الشـيخَّة قبـل أيـام عنـد ضرِّيـح السـيدَّة زينـب، واسـتقبلتني قبـل قليـل في دارهـا، وبعـد لا تـزال التسـاؤلات تتفاعـل داخـلي! تـرى هـل هـي المـيرَّم ذاتهـا: تلـك الدَّرويشـة، التـي كنـا نجلـس إليهـا في الطفولـة، بعـد أن نعبـث مـع الغـرَّاب الأشـهب في شـجرَّتها اللالـوب، والـذي كانـت ترعـاه باهتـمامٍ غريـب.

كنـا نسـألها مـا يعـنَّ لنـا مـن أسـئلة، فتبتسـم وتحـكي لنـا عـن طَّـي المـكان والزَّمـان، و"المسـيد" و"حـيرّان" (الشـيخ كـوكَّاب العنقَّـرة).

هـل هـي المـيرَّم كلثُّـوم ذاتهـا، أم يُخفـي هـذا الثَّـوب الـذي أجلـس إليـه الآن شـخصاً آخـر، لم يسـبق لي معرفتـه؟! كنـت مرتبـكاً، وخائفـاً.. وحائـراً، ربمـا.. وربمـا مذهـولاً ومسـحوراً! وذاكـرتي تحـاول أن تسـتعيد، تلك الحكَّايات المتناقضَّـة عنها، في تلك الطفولة البعيدة. "حلَّت الميرَّم كلثُّوم على حينا فجأة"

(قالـت سـارَّة)، واتخـذت مـن تقاطـع الشـوارع، في قلـب الحـي مكانـاً لكـوخ صغـير، اسـتحال بمـرور الوقـت إلى بيـت كبـير غامـض بسـوره الطينِّـي، الـذي تنبعـث منـه رائحـة الزَّعفـران.

لا نـدري متـى شـيدَّته.. فجـأة رأينـا الكـوخ الناهـض في قلـب ميـدان التقاطـع!.. ولم تمـض فـترة وجيـزَّة حتـى أختفـى الكـوخ بـين سلسـلة مـن الغـرَّف المسـورَّة بجـدرانِ الزَّعفـران! كانـت المـيرَّم ذات جـمال ملائـكي، وعينـين اجتماعيتـين، ووداعـة وسـمت شـبابها الـذي تجـاوز سـن العشريـن بقليـل (وقتهـا) وقـد أضفـى عليهـا ثوبهـا المزيـج مـن اللِّيـف والصُّـوف والرِّيـش؛ وقـاراً، انسـحب عـلى بشرتهـا القمحيـة المشرَّبـة بغبـار السـفر المسـتمر، الـذي لم يسـتطع إخفـاء يناعتهـا، كزهـرَّة برِّيـة مـرَّت عليهـا عاصفـة دون أن تذروهـا أو تكسرهـا.. كل ذلـك أضفـى عليهـا غموضـاً وسـحراً غريبـين! هـذا الغمـوض والسـحر هـو مـا أثـار الأسـئلة، التـي حملتهـا إليهـا لجنَّـة الحـي، فـردَّت عليهـا بهـدوء ولطـف:

"أنـا المـيرّم كلثُّـوم بنـت دورشـيت السـلطان، ولكـن كل العاشـقات لم يكـنَّ سـواي يومـا!"

اسـتهجن أعضـاء لجنـة الحـي اجابتهـا لكنهـم عملـوا (مـع ذلـك) عـلى أن يتقبَّـل الحـي وجودهـا.

تذمـر النـاس في البـدء.. ثـم خفتـت أصواتهـم شـيئاً فشـيئاً، ثـم تقبلـوا الأمـر عـلى مضـض، فصَّـار وجـود المـيرَّم أمـراً واقعـاً في الحـي!

خاصـة أن أحـد أعضـاء اللجنَّـة مـن (أهـل الحـل والعقـد في المدينـة الرِّيفيـة) قـد عـرض عليهـا الـزواج (عـلى نحـو غـير معلـن) فرفضـت وعـرض عليهـا آخـر أن يفـرد لهـا غرفـة في داره (سراً) فرفضـت ذلـك أيضـاً. وآخـيراً تعاطـف معهـا كل أعضـاء اللجنَّـة، بدفـع مـن الرجلـين اللذَّيـن قدمـا عروضهـما السرِّيـة للـزَّواج والمسـاكنَّة (هـذه العـروض التـي لم تخـرج إلى العلـن إلا بعـد اختفـاء المـيرَّم) عـلى نحـوٍ غامـض! تعاطـف أعضـاء اللجنة معها وعملوا على دعمها، فأدخلوا بعض التحسـينات على كوخها، واشـتروا لها ثياباً لم تلبسـها مطلقاً، وأتاحوا لها حمامات بيوتهم.

وهكـذا أصبحـت المـيرَّم كلتُّـوم، جـزءً مـن النسـيج الاجتماعـي للحـي، ومعلـماً بـارزاً فيـه بشـجرَّتها "اللألـوب" وغرابهـا الأشـهب، الـذي لا يفـارق الشـجرَّة أبـداً!

كانـت شـجرَّة "اللألـوب" هـذه قبـل أن تنصُّـب "المـيرَّم" كوخهـا تحتهـا: يابسـة وجافـة منـذ وقـت طويـل، وبمجـيء المـيرَّم اخـضرت الشـجرَّة وجـاء هـذا الغـرَّاب بلونـه الأشـهب، فاعتـبر بعـض المتبحرِّيـن في العلـم، أن تلـك كرَّامـة وليـة صالحـة! صـارَّت المـيرَّم إذن جـزء مـن الذاكـرَّة العامـة للحـي، الـذي بـدت كأنهـا ولـدت فيـه! أخـذت المـيرَّم "تخّـط الـودع" للصِّبيـان والصَّبايـا، الذيـن يـزورون كوخهـا. وتبيـع "النبـق" و"القُنقُليـس" و"الـدُّوم" للأطفـال الذيـن يتجمعـون في العصَّـارى حـول كوخهـا، فتحـكي لهـم كل الحكايَّـا التـي حكتهـا لهـم مـن قبـل، مـراراً وتكـراراً دون أن تـكِّل أو تمِّـل! فجـأة بـدأت الحكايـات حـول المـيرَّم تنطلـق، لا أدري: هـل تزامـن انطـلاق هـذه الحكايـات بعـد حلوِّلهـا المفاجـيء بقليـل، أو بعـد ذلـك بوقـت ليـس بالقصِّـير، إذ رَّوج الرِّجـال.. خاصـة أولئـك الذيـن في لجنّـة الحـي، أن المـيرَّم نزحـت مـن أرض بلدتهـا، بعـد أن ضربهـا الجفـاف والتصحُـر، وبسـبب الحـرب الأهليـة أيضـاً.. فعندمـا مـات أهلهـا بسـوء التغذِّيـة لم تجـد بـداً مـن مغـادرة ديارهـا الخطـرَّة. فضربـت في الأرض حتـى أسـتقر بهـا المقـام في هـذا الحـي.

"لمـاذا لم تسـكن في جـلابي ود عـرَّبي، وفضَّلـت عليهـا المدينَّـة الرِّيفيـة المتاخمـة؟!"

الإجابـة عـلى هـذا السـؤال تحـل عـدداً كبـيراً مـن الألغـاز.. لكـن للأسـف لـن يسـتطيع أحـد سـوى المـيرَّم الإجابـة عـلى ذلـك! إلى آخـر الحكايـات مـن هـذا القبيـل، والتـي تـم اعتمادهـا رسـمياً، كحكايـا صـادرة عـن السـلطة العليـا للحـي!

لكن كانت هناك حكايات أخرى فاعلة ومؤثرة؛ رغم أنها لا تعبر عن وجهة النظرالرَّسمية للحَّي، هي حكايات النُّسوة اللائي أخذن يؤكدن أن المِيرَّم حلَّت بالحي كلعنَّة! فهي هارِّبة من القتل؛ بعد أن أحبت أحد حيرَّان الشيخ كوكَّاب العنقرَّة، في بلدتها التي في نواحي "دار الريح"، وقرر أخوتها ثأراً لشرفهم قتلها (لكنها هربت) بعد أن قاموا بقتل "الحُوَّار!" وحكَّت نساء أُخريات، أن "المِيرَّم" ليست من نواحي دار الريح القريبة، بل من الغرب الأقصى في دارفور على تخوم الصحراء الكبرى.. حيث النساء متحررات، يمكنهن السفر إلى أى مكان وفى أى وقت دون "مُحرّم" وأنها جاءت إلى هنا لتخطف أحد "أولاد البحر" من زوجته فقد رأته في إحدى رحلات عمله، كسائق عربة نقل بضائع..

فأحبته وأحبها، وبعد سفره، قرَّرت اللِّحاق به وبحثت عنه طويلاً، إلى أن حلَّت بهذا الحي، لاعتقادها أنه يسكن فيه، وأن بصرها سيقع عليه لا محالة. وهكذا نهضت قصص النُسوَّة في الحي، عن المِيرَّم على أساس أنها، تبحث عن رجل ما، فأخضعن أزواجهن وأولادهن لتفتيش يومي ومراقبة صارمة. ولذلك عندما أقترب الشاب الغَّض، والغامض المنكفئ على نفسه والمتوحد: عبد الرَّحمن ود التوم من حياة (المِيرَّم كلتّوم)، وأصبح لا يفارق مجلسها، مع الصِّبية الذين يصغرونه كثيراً. ثارت حفيظة الصَّبايا، وشاعت شائعة بين النسوة في الحي: أن المِيرَّم وود التوم قد وقعا في المحظور!

ثم بدأت النسوة يحاصرن المِيرَّم بأطفالهن، فيوعزن للأطفال، بأن يهشموا قيلولاتها، برمي شجرة "اللالوب" والغرَّاب بالحجارة، وألا يجلسوا إليها، ورَّميها هي ذاتها بالحصى الصغيرَّة.

وكنت أراقب كل ذلك بصمت، وانا مشدوداً إليها، لكنني لم أقوى على فعل شئ!

إلى أن أختفت المـيرَّم فجـأة كـما ظهـرت فجـأة، وتعـددت الحكايَّـات والرِّوايـات حـول اختفائهـا المفاجـئ!

لكـن كل الرِّوايـات أجمعـت بـين متناقضاتهـا، أنهـا فجـر اختفائهـا، كانـت تحمـل "صُرَّة" كبـيرة، منسـوجة مـن الرِّيـش الأشـهب عـلى ظهرهـا! وظلَّلـت بعـد ذلـك لوقـتٍ طويـل، أتسـاءل عـن مصيرهـا، إلى أن غـادرت البـلاد الأسـيرَّة والتقيتهـا فجـأة في هـذه البـلاد، عنـد مدخـل ضرِّيـح السـيدة زينـب، الـذي كنـت أتـردد عليـه بانتظـام، كل جمعـة لأكـثر مـن عامـين ونصـف، وأخـذت أتسـاءل: (هـل هـي المـيرم كلتـوم ذاتهـا، أم شـبهت لي فاسـتمرأت هـي الأمـر؟!)..

وكأنهـا أدركـت تسـاؤلي، فخـرج مـن الثَّـوب الـذي كنـت أجلـس إليـه صـوت (الإمـام عبـد القـادر الجيـلاني، هكـذا خلتـه) رقيقـاً مفعـماً بعذُّوبـة الموسـيقى؛ وهـو ينشـد في عشـق الحبيـب زفـرات حـرى! ثم تنهدت بعمق وزفرت ثم التفتت الي تقول:

"عذراً يا علي"

"لا داعي للاعتذار يا شيختي"

لم أتوقـف عـن زيـارَّة الضرِّيـح، إلا منـذ تلـك الأمسـية التـي التقيتهـا فيهـا عنـد المدخـل وأنـا في طريقـي إلى الخـروج.

تعرفنـا عـلى بعضنـا، واسـتعدنا بعـض الذِّكريـات البعيـدة، وركبنـا معـا الأتوبيـس ذاتـه إلى "العتبـة" حيـث أفترقنـا، على وعـد أن أزورها في شـقتها، التـي مـا أن اسـتقبلتني، فيهـا حتـى دخلـت في تلـك الحالـة مـن الغيـاب!

ومنـذ ذلـك اللقـاء الأول عنـد الضرِّيـح؛ أصبحـت الشـيخَّة كلثُّـوم صديقتـي الوحيـدة، في هـذه البـلاد الغريبـة.

كنـا قـد تقاربنـا، كأننـا أصدقـاء منـذ وقـت بعيـد، جمعتنـا ذكريـات

منصرمة، وبقايا أطياف حميمة.. ارتدنا سوح شاسعة، تعرَّفنا خلالها على أدقِّ حقائق أنفسنا.

تلك الحقائق التي لا تبين إلا في الارتحال والغوص بعيداً في منابع النُّور..

هكذا سرنا معاً بأقدامِ الصدق والتجرُّد عن الاكوَّان الظاهرَّة، وتلك الذِّكريَّات المحزِّنة: وهي تنسحب إلى داخل كوخها، لتنجو من الحصّ التي يرميها عليها الصِّبية، أو تسُّد أُذنيها حتى لا تسمع الضجيج في شجرَّةِ "اللألوب" عندما تضرب الحجارة فروعها الشوكية السميكة. طارَّت بي الشيخَّة كلتُّوم، بأجنحة المحبة مخترقة سماوات الأحوال والمقامات، ولم تحُط رحالها أبداً والجيلاني لا يفتأ يهتف بها..

ما وطد علاقتي بالشيخَّة كلتُّوم هو تلك العِفَّة، والرِّقة التي تسِّم حياتها.. وكلامها في الجد والهزل، وتلك الأحوال التي ترتادها، فتغيب عني، لكني أراها في خاطري: أين تمضي فتدهشني تلك المشاهدات، وذاك الحضور الذي تغيب فيه.

كُنت أُدرك أن روحها وقلبها يتوقان إلى تلبية نداء الشوق والتنعم بالوصال، وما أن تنتفض وتسترد ذاتها الغائبة، متصبَّبَةً بالعرَّق والغُبَّار والطين، وتجدني لا أزال قربُها حتى تفتر شفتاها عن إبتسامة هادئة وتقول:

"أوصيك يا علي بالسخاء والرضا.. الصبر والإشارة، الغربة ولبس الصوف.. السياحة والفقر.."... فأضحك وأنا أرد عليها:

"يا شيختي، لا أملك سوى قلبي، وهذه الثياب ولا أظنني أرضى. فقد تركت بلدي لأمر، وأصبحت في شأن آخر، وأظنني صبور على هذا الابتلاء! ولا أظن ثمَّة غربة أكثر من البعد عن الأهل والأوطان! ولا من هو أكثر غربة منِّي في الذَّات والأرض! وما عاد الصُّوف يصلُّح

لحياة هذا الزمان؛ الذي زهد فينا.. ومع ذلك، ألا قاتل الله الفقر، فقد طبع أكلي ومشرَّبي وكسوتي بخشونته.. يا شيختي؛ الوصايا لمن يستطيع إنفاذها؛ وإذا انطبق الحال والمقال لا ضلال عن الطريق"

فتضحك:

"يا علي القلب إذا صفا، تجلَّت عليه سطعات الأنوار الشهودِّية، حتى يصبح مجالاً للوسع النَّوراني، فكيف تقول أن الزَّمان زهد فينا؟!.. والزَّمان لا يزهد!"

فأبتسم وأشعر أن عروق قلبي تنتفض، وتمضي بعيداً تخترق الطبقات والحجُب لتنزرَّع في اللانهاية فتستردني:

"يا له من قلب!"

سألتها عن الحوَّار الذي أحبت، وتلك الحكَّايّا، التي تناقلها الحي عنها، فتنهدت:

"كان ذا وجه صبوح وإبتسامة، كلما ضاقت اتسع نورها! الوحيد الذي لم يكن يخشاني، ويحضر الطعام إليَّ، تحت شجرة اللألوب ولا ينهض إلا بعد وقت طويل.

كان فتىً صالحاً مليئاً بالاشراق ولا يعرَّف ذلك، لكن القوَّة التي شدَّته إليَّ، هي ذاتها القوّة التي شدَّتني إليه، كطرَّفين يلتقيان، ليخلفان وراءهما عذُّوبة الماء السلسبيل..

تلك كانت أول الحكايات وآخرها، فليس في حياتي حكاية سوَّاها، حكايتي وعبد الرَّحمن ود التُّوم، وكل ما عدَّاها من حكايا باطل ومحض أراجيفٍ أكاذيب من نسج خيال الحي، كنت آنس به ويأنس بي تلويحاً وتلميحاً، فالصَّبي (ود التوم) تغلَّب على مراهقته بصلاحه ونقاء قلبه، وذاك هو الإشرَّاق..

لكـن أهـل حيَّـك ضربـوا علينـا الحصَّـار، دونمـا سـبب... طـردني سـكان حيـك، بعـد أن قتلـوا غـرَّابي الـذي جاورتـه واعتنيـت بـه، وطـردوني بعـد أن أحرقـوا شـجرَّة "اللألـوب"، وافترقنـا ولم نلتـق بعـد ذلـك أبـداً.

لكنّنـي كنـت أعلـم أنـه سـيموت كمـداً كـما سـتموت أنـت، وكـما سـأمضي وإيـاه، إلى شـجرَّة اللألـوب في المنتهـى، لنقيـم في كوخنـا تحتهـا، نلهـو مـع غرَّابنـا الأشـهب الوديـع..

تركـت الحـي دون ضغينـة حتـى لا أقتـل كاللالوبـة والغُـرَّاب، ولم يتبـق لي سـوى ذكرَّيـات الأيـام الخـوالي.

يا علي أنبل الذكريات تلك التي تخلو من مرارة و ضغينَّة"

V

في بوح الاحتضار.. في الخط الواهن الذي يفصل الحياة عن الموت.. من أعلا برهات هذه اللَّحظة السرمدية، أطل وحدي على

إحدى شرفات خاطري المتسع، لأراقب أحوال العالم المنسي لـ "جلابي ود عربي" وأتساءل:

هل هذا الذي أراه حقيقيّ أم محض وهم، يستغل ثقوب ذاكرتي.. يعبئها، بعجينة خمير، يتشكَّل منها تاريخ حلة جلابي ود عربي: ناسها.. كلابها.. دروبها.. حبيبتي ثريا.. التي لم أحب كما أحببتها

حمل إليَّ حسن أخبار ثريا.. قال باقتضاب:

"أصيبت بالسُّل وماتت من جرائِه، قبل أن يهرُب خميس إلى مكان غير معلوم، فبقيت السُّرّة والدتهما تلوك حسرَّتها، على فقد البنت والولد في آن واحد!"

لا زلت أرى معالم جلابي ود عربي، حيث ينهض الدُّكان الصَّغير لأبي في قلبها، مُحاصراً برائحتها المزِّيج من أبخرة الخمر البلدي ورائحة الجنس والعرَّق!

VI

منـذ بدايـات القـرن التاسـع عـشر، ومجتمـع جـلابي ود عـربي يشـهد حركـة انتـماء تشـد أطرافـه المتباينـة، التـي جمعـت أشـتاتا في بوتقـة الكينونـة الهلاميـة، التـي أقيمـت بالنـزوح والغـزو الأجنبـي والاسـتعمار المحـلي في الحـاضرة.

ومـع ذلـك التبايـن كانـت تـبرز قـوى، تجـذب تلـك الأطـراف بعيـداً عـن بعضهـا دون أسـباب موضوعيـة، الأمـر الـذي شـغل بـال المؤرخـين طويـلاً! للبحـث عـن جـذور هـذه الظاهـرة في حلـة (جـلابي ود عـربي)، التـي تشـكَّلت عـلى غرارهـا كل "حـلالات وفرقـان" وبلـدات البـلاد الكبيرة، بحواضرهـا ومدنهـا الرِّيفيـة..

أثمـرت جهـود هـؤلاء المؤرخـين "المخطوطـة السريـة" التـي توصلـوا مـن خلالهـا لتفسـير مبـدئي، لأول مـرة حـول هـذه الظاهـرة.

يقـول محمـد سـعيد القـدال عـلى خلفيـة أشـارت في كتابـه الانتـماء والاغـتراب: (أن أدونيـس كتـب مقتبسـا كانـط: "أن العصفـور الـذي يـضرّب الهـواء بجناحيـه لـكي يطِّـير، يتصـور أنـه لـو لم يكـن هنـاك هـواء، لـكان طيرانـه أسـهل! والحقيقـة أنـه لـو لم يكـن هنـاك هـواء، لمـا اسـتطاع أن يطـير!)..

وعلـق محمـود أمـين العـالم، عـلى هـذا قائـلا: لا سـبيل للتقـدُّم والقطيعـة الجدَّليـة الحقيقيـة، إلا مـن خـلال الذاكـرة التراثيـة. فلـكي نطـير أبعـد مـن الهـواء، ولـكي نتجـاوزه لا نسـتطيع ذلـك إلا مـن خـلال الهـواء وبفضـل الهـواء وعـلى الرغـم مـن هـذا الهـواء؟!)..

VII

قبل قليل (ثوان فحسب) أتصلت عبر هاتفي المحمول، بصديقي القدّيم حسن في الدِّيار البعيدة. سألته عن "حلة جلابي ود عرَّبي" فأكد لي بطريقته الساخرَّة، أنها لم تعد كما تركتها. ففي السنوات "القادمات" التي لم تأت بعد شهدت جلابي ود عرَّبي، نهضة عمرانية مدهشة، إذ أعيد بناؤها على نحو عصرِّي حديث ومنسجم، فتراصَّت الأبراج والعمارات باتساق، ونهضت الجسور والطرق والكباري والمستشفيات والمدارس والجامعات، والساحات الخضراء والملوَّنة بالورود والحدائق، التي كما في ألف ليلة وليلة وبدائع الزِّهور.

وصار كل الناس ناعمين، كحكايا أبن حزم في ألفتهم و إيلافهم.. فقد تحقق أخيراً في جلابي ود عربي، ما حلمت به وما لم تحلم به يوماً!

تمّ تشييده في السنوات القادمات، بعد أن زارها موظفي تنظيم القرَّى ومعالجة السكن الاضطرَّاري، وأجروا البحوث تلو البحوث بُعيد زوال حكومة الجنكويز بقليل!

قطعت الأتصال بحسن دون تمهيد، لتستعيدني بعض الوقائع التي عشتها في جلابي ود عربي، عندما كنت أمضي إليها بعد الدوام المدرسي، بصحبة حسن وخميس لأبقى في دُّكان أبي حتى يتمكن من قضاء مشاويره.

وكالعادة لا يلبث حسن أن يمَّل، فيمضي إلى منزله في مدينتنا الرِّيفية، فأظل وحدي في الدُّكان، أبيع للناس الى أن يحضُر أبي بعد أنقضاء النهار.

كنتُ مغرماً باكتشاف هذا العالم الغريب عنِّي.. عالم جلابي

ود عـرَّبي النَّاهـض في العلاقـات الثنائيـة المتوالـدة والمتشـابكة بصـورَّة معقـدَّة.. لا تبـين فيـه الثنائيـة التـي طبعتـه بوضـوح لتداخلهـا في شـبكَّة مـن العلاقـات الوَّهميـة، التـي ظلَّـت غامضـة بالنسـبة لي، ومسـتغلقة عـلى فهمـي لوقـتٍ طويـل، قبـل أن أبـدأ في الاهتـمام بحـواشي المخطَّوطـة السرِّيـة، محـاوِّلاً اسـتقراء مـا خلفهـا مـن عـالم مخفِّـي بعنايـة دون مـتن.. فقـط.. فقـط حـواسي توحـي (كلـما حللـت رموزهـا) بمزيـد مـن التفاصيـل الغامضـة! فعلاقـة مثـل علاقـة الـسُّرَّة بكرتـون، أو علاقتـه هـو بهـا: كانـت مـن العلاقـات التـي وقفـتُ عندهـا حائـراً لوقـتٍ طويـل. لم يسـتطع أحـد أن يفـك طلاسـم هـذه العلاقـة، التـي لا تخلـو مـن حميمَّيـة ووُّد، أو يعـرَّف كيـف ومتـى ولمـاذا نشـأت مثـل هـذه العلاقـة الملتبسَّـة! كـما لم يجـرؤ أحـد عـلى سـؤالهما عـن طبيعـة هـذه العلاقـة غـير المسـمَّاة!

لكـن مـا اسـتقر في نفـوس أهـالي جـلابي ود عـربي، أنهـا علاقـة مسـاكنَّة فحسـب، دون أيُّ تأويـلٍ جـارح، وليـس لأي أحـد منهـم علـمٌ بالكيفيـة التـي توصلـوا بهـا لهـذه القناعـة، ومـع ذلـك كانـوا يلمحـون في جلسـاتهم الخاصـة لأشـياء أُخـرىٰ!

وكنـت كثـيراً مـا أتسـاءل: كيـف رضى خميـس وثريَّـا بتقبـل مسـاكنَّة كرتـون لهـم؟ وهـو الغرِّيـب عنهـم؟!

وللمفارقـة أن اللحظـة الوحيـدة التـي أدرك فيهـا أهـالي جـلابي ود عربي، حاجتهـم الماسـة لمقابـر بـذات قـدر حاجتهـم لمعرفـة الطقوس، التـي تجرى للمـوتى، كانـت هـي تلـك اللحظـة التـي ماتـت فيهـا ثريّـا!

ولذلـك عندمـا أكتشـفوا مـوت حسَّـان جـدَّاد وأدروب حرقـا، بسـبب الحرِّيـق الـذي لم يبـق منهـما سـوى العظـام المشـويَّة، التـي التصقـت عليهـا بقايـا اللحـم المتفسِّـخ، ولم يسـتطع أيٌّ مـن المتحرِّيـن، الذيـن ظلـوا يتوافـدون لأيـام عديـدَّة عـلى حِلَّـة جـلابي ود عـرَّبي، التوصـل للأسـباب الحقيقيـة التـي أدت إلى الحرِّيـق، الـذي شـبَّ في كل أطـرافِ الحلَّـة وقلبهـا

في وقـت واحـد! ولم يـترك شـيئاً دون أن يلتهمـه! لذلـك عندمـا اكتشـفوا مـوت جِـدَّاد وأدروب حرقـاً، كانـت لديهـم فكـرة واضحـة عـن "إكـرام الميـت!"

بسـبب ذلـك الحريـق الـذي حـول حلـة جـلابي ود عـرَّبي بكاملهـا، إلى رَمـاد تـذروه الرِّيـاح!

قبـل هـذه اللحظـة بوقـتٍ طويـل؛ كان الفشـل مصِّـير كل مـن حـاول أن يفـك طلاسـم علاقـة الـسُرَّة بكرتـون..

و"الـسُرَّة بنـت عرجـون" وقتهـا كانـت إمـرأة أربعينيـة، لا تخلـو مـن ذلـك النَّـوع مـن الجـمال السـائد، الـذي لا يلفـت الإنتبـاه، لا يَعـرَّف لهـا أحـد أهـلاً أو أقـارب، وكانـت هـي ذاتهـا تُـصِّر دائمـاً عـلى أنهـا "مقطوعـة مـن شـجرَّة".. ولا أحـد يَعـرَّف لأبنيهـا أبٌ مـن بـين رجـال جـلابي العديدين!

بـدى للجميـع منـذ أول يـوم حلَّـت بـه بينهـم، كالهاربـة مـن شـئ يطاردهـا، فهـي زائغـة العينـين عـلى الـدّوام، وتنتفـض باسـتمرار، ومـع ذلـك اتسـمت حياتهـا بطابـع الكتـمان والتحفـظ!

حتـى أن حسّـان جـدّاد لم يسـتطع أن يحصـل منهـا عـلى إجابـة واضحة، عـلى عـرض الـزواج الـذي تقـدم بـه إليهـا قُبيـل هجرّتـه إلى اللّـه (كـما ذكـر) زاعـماً أن عرضـه لصّونهـا وصّـون ابنتهـا ورّعايـة ابنهـا.. (كـما قـال) فهـما يحتاجـان الأب في هـذه السّـن الخطـرّة، وهـي تحتـاج لـزّوج "عـلى سـنة اللّـه ورسـوله، فالشـيطان شـاطر"!

يئـس "جـدّاد" بعـد محـاورات ومـداورات، فـصرّف النظـر وهـو يشـعر بالهزيمـة تضعضـع كيانـه..

لم تكـن للـسُرّة أيُّ صديقـات في حلّـة جـلابي ود عـربي أو خارجهـا، بإسـتثناء تلـك العلاقـة اليتيمَّـة التـي ربطتهـا بسِّـتِ البنّـات العشـمانَّة، التـي رغـم تجاوزهـا سـن الأربعـين، إلا أن أول مـا يَلفـت النظـر فيهـا،

هـو بشرّتهـا الصَّافيـة، التـي تشـبه مزيجـاً مصفـىً، مـن لَـوّن القمـح والبُّن نصـف المحـترّق!

كانـت ذات جـمال "جنّـي" دفـع حسّـان جـداد للإنزِّهـال التَّـام، فأخـذ يُطارّدهـا لأكـثر مـن عامـين، وعندمـا امتنعـت عليـه تقـدَّم مـن الـسُّرّة صديقتهـا! كنـتُ بعـد نهايـة كل يـوم دراسي أركـب دراجتـي الفليبـس، رادفـاً حسـن وخميـس، نعـرِّج عـلىّ حلـة جـلابي ود عـربي، وبعـد أن يتركني والـدي في الـدُّكان ويمـضي.

يتجـرّد خاطـري مِنِّـي وينهـض جـوارِّي، فأتكـئ عليـه وأتأمـل أحـوال العـالم المنـسي لحلّـة جـلابي ود عـربي.. وحسـن ينظـرُ الىّ صامتـاً، دون أن تنفـرج شـفتيه عـن كلمـة واحـدة.

كنـتُ أشـعر بهـذا العـالم غريبـاً، يحـاصرني بظلالـه محـاولاً توليفـي كجـرّوٍ صغـير. وأذكُـرُ وقتهـا فيـما اذكُـرُ: الحـزن العميـق في عينّـي الـسُّرّة وهـي تجاهـد (دائمـا) إخفـاء جُـرّحٍ غامـض يتمظهـر في هـذا الحُـزن.

ربمـا لأننـي فاجأتُهـا مـع والـدي، في الغرّفـة الخلفيـة التـي يقـع مدخلهـا مـن جهـة البـاب الـسِّرِّي للـدُّكان. كانـت رجليهـا مرفوعتـين لأعـلى. أعـلى مـن أقـصى شُرفـات خواطـري! وكان أبي يربـضُ عليهـا كأبي الهـول، وكنـت مذهـولاً لا أشـعر بنفـسي ولا أدري أيـن أقـف.. في أيُّ نقطـة مـن المسـافة التـي بـدَت شاسـعة وقريبـة في آن!

لكن ما أُدرّكه تماما أن ذلك المشهد أصبح السِّر الصّغِير لثلاثتنا!

في ذلـك اليـوم الـذي أحـترَّق فيـه بيـتُ أُم التيـمَّان، التـي كانـت قـد أسـتيقظت في الفجـر فاشـعلت نار"الدُّوكـة" تمهيـداً للبـدء في صناعـة المرّيسـة، وهـي تُمنِّـي نفسـها بـأن تتمكَّـن اليـوم مـن تطبيـق وصفـة مزِّيـد الحلبـي، التـي أشـار بهـا.

كانـت تحـادث نفسـها، وكلُهـا أمـل في أن تمكنهـا هـذه الوصفـة مـن

تحسين سمعتها في سوق "المرايس"، الأمر الذي سيجعل دربها سالكاً لسرقة زبائن السُّرّة، الذين كانت تطلقُ عليهم "الزباين الهايلايف".

عندما أستيقظت أُم التيمان، كانت الدّيكة لا تزال بعد تعزّف سيمفونية الفجر، تشاركها كلاب الحلة والضّفادع التي تنقُّ في خيران جلابي، كجوقة استثنائية!.

فمن مفارقات هذه الحّلة (في نظر سكان المدينة الرّيفية) أن كلابها هي التي تقوم بالإعلان عن الفجر!

فالدّيكة تصحو متأخرة بسبب تناولها مخلفات صناعة الخمر البلدي "المشك والبلح" وصحو الكلاب باكراً كثيراً ما يُثير حفيظة الدّيكة، التي تتأخر في النّوم، فتعبرُ عن احتجاجاتها بعد ذلك بالصياح، بعد أن تكونُ الشمس (عمليا) قد أشرقت!

هذا التفسير العلمي البارع، تبرّع به حسّان جداد باعتباره المثقف الجهبوز في حلّة جلابي ود عربي.. إذ كان هذا الرَّجل كثيراً ما يتحدث عن معرّفته العميقة والواسعة بعلوم الأولين والآخرين، ويذكر أسماء لكتب "يقول عبدُّه الخَال على لسان حسن أنه بحث عن العناوين التي ذكرها له نقلاً عن جداد، كثيراً ولم يجد كتاباً واحداً يحملُ إسما من هذه الاسماء؟!"

أشعلت السُّرّة النّار، والسماء بعد لا تزال تنتثر على صفحاتها، حُبيبات الأُرز المضيئة الآخذة في التلاشي، مفسحةً لضوء الفجر المتسلل على استحياء.

لحظتها كان نباحُ الكلاب في الشوارع، يقطعُ ما تبقى من الصّمت، كسكين صدئة تقطع قماش عتيق، وما أن حاولت الشّمسُ أن تطل، حتى سمعت أُم التيمّان خطواً خارج دارها وهُتاف:

"أم التيمّان.. أم التيمّان أنا عبد الرَّحمن ود التوّم"

فركضت نحوه في غضب، تنفضُ فيه ما تبقىَّ من نُعاسها المخمور، حتى صحىّ نصف سُكان الحِلَّة على سماع شتائمها المقذِّعة وصراخها المسعوّر.. ونشيج عبد الرَّحمن العوير الذي كان يتلقى على ظهره في انكفاء الضربات القاسية من "مفراكتها" الغليظة التي تستعملها لتحرّيك "المرّيسة" في "بُرمة" الفخار الكبيرة.. ولم تتوقف عن ضرب عبد الرَّحمن الذي اضطر في النهاية أن يخر كجمل منحور!

عند هذا الحد تجمع أهل الحي بينه و بينها، وأخذ عبد الرَّحمن شيئا فشيئا يتمالك نفسه، فنظر إليها بغيظ مكتّوم، ودون أن ينبس ببنت شفة، رَفع يديه إلى السماء ومضى.

كانت عادةُ التجوال في شوارع الحلّة واحدة من العادات المزعجة لعبد الرَّحمن العوير. فهو ما أن يبدأ الفجر في البزوغ، حتى يمضي هاتفاً بأسماء أصحاب البيوت التي يمرُ بها. هكذا أعتادَ عليه النّاس وألفوه منذ ترك المدينة الرّيفية وحلّ بينهم.

VIII

كنتُ بعد أن أُسلّم والدي الدُّكان، أعرج خفيةً منه الى دار أُم التيمّان. تدخلني غرفتها التي لم تسمح لأحد سواي بدخولها، وُتخرجُ كالعادة "شنطتها" السوداء العتيقة من أحد أرفف دولابها حائلُ اللوّن. فتفرغ أحشاء الشنطة وتمد لي الرسائل القديمة (التي تحرصُ عليها) لأقرأها لها:

"حبيبتي تيمة.. "..

وعندما أُنهي قراءة الرسالة، التي بالكاد تكشفُ تعابيرها المرتبكة، عن أحاسيس ومشاعر كاتبها، وأصل إلى توقيعه "سوكا". تمسح أُم التيمان دمعةً يتيمةً، تنحدر من عينها اليسرى، فأقرأُ لها رسالة أخرى، فتنحدر دمعة أخرى من عينها اليمنى.

هكذا تنحدرُ الدّمعات من عيون أُم التيمان بالتناوب.

كل رسالة بدمعة، فأسألها عن (سوكا) كاتب هذه الرسائل، فتهزُ رأسها وتمضي لتحضر لي كورة "الكانجي مورو أو العسلية".. ثم بعد ذلك تطعمني شيئا من بقايا "مناصيص ومرِّين" لا شك عندي أن بعض زبائنها الموسرين خلفوا لها هذا الطعام.. ثم أشربُ مرة أخرى ما تبقى من شرابي، وعلى عجل أمضي متخفياً خشية أن يلمحنّي أحد، فيخبر أبي الذي لن يتورّع عن إحالة حياتي إلى شقاء وضجر!

من الشخصيات المنسية التي كانت تسقط باستمرار عن الذاكرة الرسمية للحلة: شخصية أبكر وأدروب وريّاك. ورغم أن جميع الأهالي يتذّكرون أنهم عندما سكنوا جلابي ود عربي واستقر بهم المقام فيها؛ وجدوا أدروب وأبكر وريّاك، جزء من المعالم الرئيسية لحلة جلابي ود

عـربي، يتذّكـرون كل شيء وينسـون هـذه المعـالم الثلاثـة البـارزة والمنسـية في آن!

كل سـكان الحلّـة لا أحـد منهـم يتذكـر أنـه سـكن قبلهـم أو سـبقهم إلى السـكنّ!.. ربمـا أن نسـيانهم جـاء مـن سـكنهم عـلى مبعـدّة مـن بيـوت الحلّـة المتلاصقـة، إذ يحيـط ببيـوت أبكـر وريّـاك وأدروب الفضـاء مـن كل جانـب.

حلّـة جـلابي ود عـربي ليسـت كبقيـة الحـلالات والفرقـان، التـي في أطـراف البلـدات والمـدن. فهـي حلّـة نهضـت فجـأة عـلى مبعـدة مـن النيـل. إثـر موجـات النـزوح الكبـيرة، التـي تسـبب فيهـا الجفـاف والتصحر، الـذي ضرب أنحـاء واسـعة، مـن الأطـرَّاف الغربيـة للبـلاد الكبـيرة.

وعـلى الرغـم مـن أن الحلـة أسـمها جـلابي ود عـربي، إلا أن الأصـول الأثنيـة لسُّـكانها كانـت أمـا أفريقيـة خالصـة أو هجينّـة، ومـع ذلـك كان سُـكانها يـصرُّون عـلى هـذا الاسـم: "جـلابي ود عـربي".. ولم يحـول هـذا الإسـم دون تقسـيم جـلابي ود عـربي إلى حـلالات صغـيرَّة داخلهـا، مثـل "فرّيـق الشـايقية"، "الجلابّـة المسـاليت"، "حلـة العـرب"، "حـي الدينـكا الجلابـة"، "حلـة الفـور"، "فرّيـق النّوبّـة".

هـذا المـكان الـذي نهضـت فيـه جـلابي، كان أهـالي المدينـة الرّيفيـة، التـي تعتـبر حلـة جـلابي ود عـربي واحـدة مـن ضواحيهـا، يزرَّعـون فيـه الـذُّرَّة الرفيعـة والدُّخـن كنشـاط ثانـوي بعـد دوام عملـه.

ومـا إن نهضـت هـذه الحلـة، حتـى لم يعـد لديهـم خيـار سـوى التوغـل بعيـداً عنهـا، لإنشـاء حواشـات جديـدة من الأراضي البـور، التـي لم تمتد إليها أيـدي سـكان حلّـة جـلابي، يزرّعـون فيهـا مـا يعينهـم عـلى حياتهم القاسـية.

فقـد كانـوا يمارسـون الزراعـة بعـد دوام أعمالهـم. خاصـة أن الأراضي التـي احتلهـا النازحـين، وأقامـوا فيهـا حلتهـم، لم تكـن مملوكـة لأحـد،

فهـي مملوكـة للدولـة، منـذ العهـد الاسـتعماري الأول، مـرورا بحكومـات الاسـتعمار المحـلي المتعاقبـة، وصـولاً لحكومـة أبـو لكيلـك الجنكويـزي.

لذلـك لم يكـن ثمَّـة جـدوى مـن محاولـة سـكان المدينـة الريفيـة، إجـلاء أهـالي جـلابي ود عـربي، فاكتفـوا بوضـع اليـد عـلى الأراضي البـور. ومـن ثـم شرعـوا يعملـون عليهـا كحواشـات زراعيـة بديلـة لحواشـاتهم، التـي اسـتولى عليهـا النازحـون فجـأة، وأقامـوا عليهـا حلتهـم "جـلابي ود عـربي".. كانـت الدهشـة تهيمـن عليهـم، إذ ظلـوا يتسـاءلون لوقـت طويـل، عـن التوقيـت الـذي بـدأت تنشـأ فيـه هـذه الحلّـة بالضبـط، دون أن يلحظهـا أحـد!!

كـما ظلـوا يُعـبرون عـن مخاوفهـم باسـتمرار، عـن خطـورَّة هـذا الوضع، الـذي لا يملكـون شـيئا لتغييره!

العجيـب في الأمـر أن موظفـي السـكن العشـوائي، الذيـن أرسـلتهم المحليـة، عندمـا جـاءوا وسـألوا عـن قريـب أو حفيـد لهـذا الـ "جـلابي ود عـربي" لم يسـتطع أحـد أن يدلهـم عليـه، واتضـح أن ذاكـرة السـكان لا تحتـوي عـلى هـذا الاسـم إطلاقـا ضمـن قوائمهـا، التـي تـؤرخ بهـا لأشـجار نسـب أهـالي الحلـة، التـي ينتهـي بعضهـا عنـد الفضـل بـن العبـاس! عـلى الرغـم مـن أن عـدداً مـن مؤرخـين "جـلابي" أكـدوا أن الفضـل بـن العبـاس كان عاقـراً! الأمـر الـذي اسـتغله بعـض الخبثـاء، الذيـن أخـذوا يتسـاءلون:

"إذن كيـف ينسـب إليـه بعـض أهـالي جـلابي أنفسـهم؟ ولماذا لا ينسـب أحـدا منهـم نفسـه إلى أبي لهـب مثـلا فهـو أيضـاً عـم الرسـول (ص)، او بلال فهـو عـلى الأقـل مـن الحبشـة بالتـالي قريبنـا؟!"

وهـذا السـؤال الـذي لم يتـبرع أحـد بالإجابـة عنـه، أزعـج "لا" أحفـاد الفضـل بـن العبـاس وحدهـم، بـل أزعـج كثيريـن مـن مثقفـي الدولـة الجنكويزيـة، فسـارعوا لإقامـة النـدوات السـجالية التـي اسـتمرت لسـنوات تحـت نفـس الشـعار:

"دليل الناس في معرفة نسب أحفاد الفضل بن العباس"

وهـذا الشـعار انبثقـت عنـه عـدة شـعارات جانبيـة، للتأكيـد عـلى أهميـة الموضـوع، مثـل:

"الرقـص والطـرب في سـيرة جـلابي ود عـرب" و"مسـك الختـام في معرفـة حـكام جـلابي ود عـربي مـن خليفـة وأمـير وإمـام" إلى آخـره مـن هـذه الشـعارات، التـي شـغلت بـال الكثيريـن في جـلابي نفسـها بعـد أن رّوعـت الآمنـين خارجهـا وأدهشـتهم أيمـا دهشـة وأعطتهـم الإحسـاس بأنهـم أجانـب في بـلاد أجدادهـم!

فجلابي كانت تتصور ذاتها على نحو مختلف تماماً، عندما حاصرها مثقفو الدولـة الجنكويزيـة بهـذه النـدوات، وكتمـوا عـلى أنفـاس وعيهـا الجنينّـي!

ويبـدو أن الموضـوع كان جـاداً أكـثر مـما قـدر الجـوار الإقليمـي لجـلابي، فقـد اسـتمرت هـذه النـدوات لسـنين عـددا، ولم تتمكـن بعـد كل ذلـك من دحـض ذلـك السـؤال المريـب الـذي كان قـد ألقـى بـه أحـد الحشاشـين في جـلابي، في واحـدة مـن لحظـات التجـلي النـادرة، بعـد أن خـدره "البنقـو" ونقلـه إلى الـبرزخ، فأخـذ ينظـر مـن هـذه المنطقـة السـامية إلى جـلابي، التـي بـدت كنقطـة صغـيرة في كـون البـلاد الكبـيرة الواسـع.. رمـى فوقهـا بهـذا السـؤال فتلاشـت في فـراغ هـذا الكـون.

ثـم لم يعـد الحشـاش يـرى جـلابي، فقـد اختفـت في تلـك اللحظـة مـن تجلياتـه النـادرة مـن الجغرافيـا والتاريـخ. ولم تطفـوّ عـلى السـطح مـرة أخـرى إلا بعـد أن تدخـل أبولكيلـك مدليـا بدلـوه كآخـر العبابسـة، في تصرّيـح رسـمي تناقلتـه لنـدن والجزيـرة، بـأن إسرائيـل عـبر عملائهـا في جـلابي والمنطقـة، تتدخـل في الشـئون الداخليـة للبـلاد الأسـيرَّة عـبر جـلابي، بهـدف خلـق أزمـة وطنيـة تمكنهـا مـن السـيطرة عـلى منابـع النيـل، وإقحـام أنفهـا في موضـوع النفـط، الـذي ظلـت عقـود البـلاد الكبـيرة مـع

الـشركات الأجنبيـة لاسـتخراجه وتكريـره وتصديـره غامضـة! لا يعـرف عنهـا أحـد شـيئا كأكـثر الاسرار قدسـية في أروقـة قـصر أبـو لكيلـك.

وفي الحقيقـة أن أبـو لكيلـك وأسرتـه وحاشـيته، عملـوا منـذ وقـت مبكـر عـلى تحويـل اقتصـاد البـلاد الكبـيرة إلى حسـاباتهم الخاصـة في عـدد مـن بنـوك العـالم!

عندمـا اكتشـف موظفـو السـكن العشـوائي، أن أهـالي جـلابي ليسـت لديهـم إجابـة عـلى مـا طرحـوه مـن أسـئلة مبـاشرة، بـادروا بطـرح سـؤال آخـر أكـثر بديهيـة:

"إذن لمـاذا أطلقتـم عـلى بلدتكـم هـذا الاسـم؟!" وهنـا انـبرى كل الأهـالي للـرد بصـوت واحـد جهـوري ارتجـت لـه أطـراف المدينـة الريفيـة:

"لم نطلقه ولا نعرف من الذي أطلقه!"

فـازدادت حـيرة الموظفـين، الذيـن كانـوا يعلمـون مـما درسـوه في وثائـق علاقـات الأرض والـرق، في البـلاد الكبـيرة، أن جـلابي ود عـربي مـرت بتحولات عديـدة عـبر التاريـخ، فقـد سـكنتها القبائـل الغربيـة في مرحلـة مـن مراحل تاريخهـا، وعمـدت وقتهـا إلى تكويـن مؤسسـة منظمـة للـرِّق والاسـترقاق، فقـد كانـت جـلابي في ذلـك العهـد مركـزاً لجلـب الرقيـق، وانطلاقـاً منهـا كقاعـدة كانـت حمـلات جلـب الرقيـق تنطلـق في مجاهيـل البـلاد الكبـيرة.

وعندمـا تـلاشى نفـوذ المجموعـات الغربيـة، وأصبحـت السـلطة في جلابي بيـد المجموعـات الجنوبيـة تغـير أسـم جـلابي مـن جـلابي ود عـربي إلى جـلابي ود جنـوبي.. إذ اسـتمرت ثـلاث مـن المجموعـات الجنوبيـة في تأكيـد وترسـيخ مؤسسـة الـرِّق، وقامـت بحمـلات مبدعـة إذ أدخلـت تحسـينات كبـيرة عـلى نظـام المؤسسـة المـوروث.

لكـن لتناقضاتهـا الذاتيـة كمجموعـات تسـترق بعضهـا (ذات التناقضات التـي أودت بسـلطان المجموعـات الغربيـة) سرعـان ماتهشّـم نفوذهـا

تحت ضربات معاول المجموعات الشرقية؛ التي لم تستفد من دروس الغير أو الماضي هي الأخرى (بعد أن غيرت الاسم إلى جلابي الشرقاوي) ومضت في ذات الطريق الذي أسقط نفوذ سابقيها.

ما أتاح الفرصة لأن تكون هذه المجموعة، لقمة سائغة تحت ضغط المجموعات، التي هزمت في المراحل السابقة التي مرّت بها جلابي، ومن ثم كان الطريق ممهداً لاستيلاء الجلابة العرب والنهريين على جلابي، ومنذ هذه اللحظة أصبح إسمها جلابي ود عربي!

واستمر هذا الاسم على الرغم من زوال ثقافة الجلابة، وأنهيار مؤسسة الرق تحت ضغوطات العالم والصحوة المفاجئة لضمير الآباء المؤسسين لمرحلة ما بعد الاسترقاق وجلب الرقيق في جلابي!

كما أن المساحة الجغرافية لجلابي الحقيقية، التي كانت تشمل المدينة الريفية. تقلصت و تقلصت إلى أن تحولت لأراض بور قام سكان المدينة الريفية باحيائها بالزراعة، إلى أن برزت بشكل مفاجيء جلابي مرة أخرى للوجود..

التاريخ الأقدم لجلابي (وفقا لبعض الاجتهادات الأثرية والتاريخية) يفيد بأن جلابي مقر لممالك جلابية عريقة منذ عصر ما قبل الديانات التوحيدية الستة، لكن هذا التاريخ ظل مجهولاً فالكشوفات الأثرية التي أفادت بأن جلابي والمدينة الريفية، هما موقعا مملكة ساورا، التي ظلت أسباب نشوئها في هذا المكان وعوامل انهيارها غامضة إلى حد كبير، لم تقنع أهالي جلابي بأنهم أحفاد لأسلاف ضربوا بجذورهم في هذا المكان!

إذ كان أهالي جلابي بصورة عامة، يشعرون أن حياتهم هشة. وأنهم يقيمون على قشرة بيضة سرعان ما تتهشم ويتهشمون معها، ولا يدري أحد: كيف تكون هذا الشعور داخلهم!

هـزّ الموظفـون رؤوسـهم، واقترحـوا عـلى أهـالي جـلابي ود عـربي اسـم (الفـردوس) كبديـل. فهـزّ الأهـالي رؤوسـهم دون تعليـق.. وهكـذا أصبـح لحلّـة النازحـين اسـمين:

اسـم رسـمي مـدّون في السـجلات "الفـردوس" واسـم أشـتهرت بـه الحلّـة "جـلابي ود عـربي"، وهـذا الاسـم الأخـير كانـت التنظيمات السياسـية الطائفيـة تسـتغله أيمـا اسـتغلال في الانتخابـات، إذ يـسرح السياسـيون "المسـاطيل" والمخموريـن بخيالهـم يتحدثـون عـن أمجـاد مزعومـة لـ "الجـد المؤسـس لجـلابي!"

الأمـر الـذي يجعـل أشـجان عـدد كبـير مـن الأهـالي ومشـاعرهم "الوطنيـة" تهتـاج فيصوتـون للمرشـحين الأماجـد وهـم يهتفـون: "لا نصـادق غـير.." ، "لا نبايـع إلا .."، "الجـلابي ود عـربي تقـف مـن خلفكـم وتشـد مـن أزركـم "، "جـلابي ود عـربي ُتحـي الثّـورَة "، "الجـلابي ود عـربي جاهـزة لحمايـة العقيـدة والوطـن"، "الجـلابي ود عـربي تدعـم ضرب السـد العـالي بصواريـخ كـروز"، "السـد السـد لازم ينهـد"، "الجـلابي ود عـربي تتحـدى أمـيركا وتحذرهـا للمـرة الآخـيرة"، "الجـلابي ود عـربي تتبنـى مذبحـة أم الحـمام ومحاولـة اغتيـال امبراطـور وادي النيـل الفاشـلة!"

هـذه الهتافـات هـي في الأصـل عبـارة عن الشـعارات المكتوبـة "بالتفتة" والبوهيـة عـلى القـماش المخـرّم، والتـي علقهـا السياسـيون في أنحـاء جـلابي عـلى جـدارات البيـوت وأبـواب الدكاكـين والكناتـين والبقـالات الصغيرة.

وهتـاف أهـالي جـلابي بهـا في لحظـات "التوتـر والاهتيـاج الوطنّـي" هـو إسـتثناء ينقـضي بانقضـاء حالـة التوتـر والاهتيـاج العابـرة، ففـي واقـع الأمـر، أن هـذه الشـعارات كانـت تسـتفز الكثيريـن مـن أهـالي جـلابي ود عـربي، الذيـن يعتقـدون أن الجـد المؤسـس "جـلابي" مـا هـو إلا جـد وهمي خـرج مـن بنـات إبليـس الأفـكار الجنكويزيـة!

وإذا كان موجود فعلاً جد بهذا الاسم، فهو غير جدير بأن تفتخر به بلدة جلابي ود عربي العظيمة.

وأن أي قول خلاف ذلك هو إستفزاز مع سبق الإصرار والترصد للذين لا تربطهم به صلة نسب أو شجرة قرابة، وأن توظيف السياسيون لحدوتة جلابي ود عربي ما هو إلا تكريس للتواطؤ ضد القيّم النبيلة التي أساء إليها الجد جلابي المغضوب عليه..آمين..

وهكذا يثير السياسيون الذين يفدون أيام الانتخابات، المشاعر القمقمية الحبيسة لأهالي جلابي ود عربي وذكريات الغزو والسلب والنهب والفتوحات التي جادت بها العبقرية البدوية الصحراوية للجنكويز القدامى!

وكأن ستين ألف شيطان في داخل كل شخص من الأهالي انطلقوا لتعانق قبة السماء هتافاتهم التي يرتج لها السمّاك والثريا وكواكب جمهورية الصين أيضا!

كأن أهل جلابي ود عربي، لم تكن هذه الهبات الغضنفرية جزء من حياتهم العامرة بكل ما هو عجيب وغريب! فما أن ينتهي موسم الانتخابات ومع نفاد المصارّيف والسكر والزيت والذّرة؛ التي اشترى بها السياسيون أصوات الناس، ينسى أهالي جلابي كل شيء خاصة تهديداتهم لأمريكا، التي دفعت وزارة خارجيتها لأن تضع جلابي ود عربي ضمن المناطق الراعية للإرهاب والتطرف!

لا يعتبر أهالي جلابي أن هذا أمر خطير، فلا أحد منهم مهموم بعلاقة جلابي بأميركا. أو علاقة أميركا بالعالم الذي جزء منه جلابي الموقرّة..

هكذا تعود الحياة في جلابي بعد الانتخابات لإيقاعها الراكد المألوف، محفوفة بالآمال العراض التي رسمها السياسيون في أذهان الناس قبل أن يرحلوا، فأهل جلابي ود عربي كأسلافهم الغابرين لا يتعلمون من

دروس الماضي.. يصدقون السياسيين ويظلون حبيسين لهذه الأحلام التي تبدت عنها وعود الانتخابات، التي يبذلها السياسيون بكرم في لحظات الحماسة المنبرية، أمام مكبرات الصوت، حتى أن أحدهم وعد أنه لو فاز سيصطحب كل أهالي جلابي فوجا إثر فوج في رحلة سياحية للفضاء الخارجي، حتى يطلعوا على إنجازات واحدة من سلالات أسلافهم الغابرين الذين هبطوا من السماء!..

ووعدهم آخر أنه حال فوزه سيشيد طرقا قارية تربط البلاد الكبيرة بالقارة الأم، و سيشيد في "دار صباح" كبري على البحر الأحمر، ليسافر الناس إلى الحج بالعربات أو الدواب بدلا عن البواخر التي تتعرض للغرق، والطائرات المهددة بالسقوط!

وطبعا صدقة أهل جلابي رغم إدراك بعضهم أن السياسيين أصلاً يبذلون الوعود لأنهم لا ينفذونها، فهي "طق حنك" صرف!..

وفي الحقيقة لو قاموا بانفاذها لن يجدوا أحداً يصوت لهم، فالناس وقتها سيعون أن هؤلاء السياسيين ليست لديهم برامج، وكل ما لديهم هو أضغاث أوهام في السلطة والتسلط، والتي عندما تمنح لهم – السلطة – لا يعرفون ماذا يفعلون بها سوى ارسال الجرافات للبلدات والأحياء العشوائية خارج التخطيط لهدمها دون تقديم معالجات لأصحاب هذه البيوت المهدمة أو بدائل! المفارقة أن جلابي لا تزال خارج التخطيط، كما أن السواد الأعظم من سكانها ليست لديهم شهادات ميلاد أو جنسية!!

بالتالي قانونيا ليس لديهم الحق في التصويت لعدم وجود أو اكتمال أوراقهم التي تثبت شخصياتهم، كما أنه والأمر كذلك ليس من حق المناطق خارج التخطيط، أن تتمتع بالخدمات الأساسية إلا بعد تخطيطها، ومع كل ذلك يعتقد أهالي جلابي ود عربي -أصالة عن أنفسهم ونيابة عن كل شعوب البلاد الكبيرة التي تشبههم- أنهم

مواطنـون مواطنـة كاملة،عـلى الرغـم مـن أن جـلابي ود عـرّبي تنقصهـا الخدمـات الأساسـية!

وهـذا الأمـر عندمـا يُثـار يلتبـس عـلى أذهانهـم ويرّبـك أفكارهـم، إذ لا يسـتطيعون حـل المعادلـة الصعبـة التـي تقـول بنهـوض المواطنـة في الخدمـات.. كـما قـال أحـد موظفـي تنظيـم القـرّى ومعالجـة السـكن الاضطـراري أثنـاء تدخينـه البنّقـو في بيـت مزّيـد الحلبـي!

حلـة جـلابي ود عـرّبي رغـم حداثـة نشـأتها، في هـذه المرحلـة مـن تاريخهـا المتقطـع كجـزر معزولـة، ظلّـت كالنبـات الطفيـلي تتمـدد بسرعـة، حتـى التهمـت أجـزاء واسـعة مـن المدينـة الريفيـة.

لم يكـن أحـد مـن سـكانها مـن جيـل المؤسسـين، فالجميـع كانـوا يؤكـدون، أنهـم جـاءوا ووجدوهـا ممتلئـة بالنـاس، كـما أنهـا لم تشـهد أي حالـة وفـاة تقتـضي وجـود مقابـر لوقـت طويـل مـن الزّمـن! والأغـرّب مـن ذلـك أن كل سـكانها بـين سـنّ المراهقـة والخمسـين.

ولاحـظ موظفـو السّـكن العشـوائي أيـام حمـلات الهـدّم أن أهـالي جـلابي كائنـات محيرّة، فكلـما جـاءت الجرافـات و هدمـت جـلابي، يُفاجـأ المجلّـس البلـدي أن الأهـالي شـيدوا جـلابي مـن جديـد، فجـلابي تجرّبـة سـكنية فريـدة، لا تيـأس مثـل الأحيـاء العشـوائية الأُخـرى، رغـم فقدهـا لأرواح عديـدة في أيـام الهـدّم المتكـرّرة، كأن روح شـجاعة هـي التـي تحـرك كل الأهـالي وتوحدهـم، وكل الأرواح التـي فقدتهـا جـلابي، قتلـت مقابلهـا عـدداً مـن عسـاكر الجيـش والشرطـة، الذّيـن كانـوا يأتـون لتنفيـذ حمـلات الهـدّم، الأمـر الـذي أفـضى في النهايـة إلى يـأس المجلـس البلـدي.

فبعـد خمسـة عـشرة محاولـة هـدم لجـلابي صرف نظـره تمامـا فيـما أسـماه ب(مسـألة جـلابي ود عـرّبي المعقـدّة) و أقـترح رئيـس المجلـس أن يطلـق عليهـا اسـم "الفـردوس" وتـترك وشـأنها كأيّ منطقـة حُكـم ذّاتي)..

ما لاحظه موظفو السكن العشوائي أيضا، أيام حملات الهدم التي كانوا يستعينون فيها بالجيش والشرطة (وخلّف ذلك بالطبع ضحايا بعدّد شعر الرأس من الجانبين) هو غياب الأطفال والمسنين، فهزّوا رؤوسهم ومضوا، ولم يعودوا بعد ذلك أبدا.

لكنهم كتبوا تقارير صارمة لم يتسرّب منها سوى عبارة واحدة:

"هذه البلدة، يجب ألا تشملها خدّمات الرّعاية الإجتماعية"

مع أن برنامج الرّعاية المذكور والذي لا وجود له سوى على المستوى النظري (ومع ذلك حتى نظرياً حُرمت منه جلابي ود عربي!!)..

أدهشت هذه العبارّة، التي سرّبها بعض الموظفين، الذين يرتادون جلابي طلبا للمخدرات أو الخمر أو الجنس، ليدخنّوا أو يحتسوا أو يقيمو علاقات جنسية (كل هذه الخدّمات مجانا)، بعد أن يقدموا وعودا عظيمّة للأهالي أصحاب الشأن في هذه الأمور (أنهم سيستخرجون لهم عقود ملكية للأرض:

"كل فرد منكم لازم يحصل على قطعة أرض في جلابي.. دي منطقة عندها مستقبل، كما أنه هناك كلام تحت تحت أنها منطقة نفط.. ولو ما فيها نفط أو دهب ذاتو.. قطعة الأرض بتنفعكم إن شاء الله تبيعوها للأمم المتحدة، تعيد فيها توطين اللاجئين البوسنيين، أو تعمل فيها مزارع دواجن نظام أمن غذائي وكدة"

وهكذا يطلق الموظفون العنان لأحلام أهالي جلابي، الذين يبدأ الواحد منهم يتصّور شكلّه في العقال والقطرّة والجلباب الأبيض، المصنوع خصيصا في الصّين لأهالي جلابي الأثرياء..

وتمضي به الأحلام فيتخيل نفسه وهو سائح في بلاد العالم الواسعة، يحمل عملة جلابي التي تُجندّل في طريقها كل أوراق النقد البترولية والصناعية، ولا تتوقف أحلامه إلا بعد أن يرى نفسه قد اكتفى

مـن ترحـال السـياحة، وملـذات الدنيـا وغـادر الفنـدق عائـدا إلى جـلابي الحبيبـة، حيـث تحـط بـه طائرتـه الخاصـة في مطارهـا الـدولي، عندمـا يطيـب للموظفـين تكـرار:

"أو تعملوا فيها مزارع دواجن .."..

تضحـك "فدّاديـات" جـلابي؛ إذ يخطـر عـلى بالهـن لحظتهـا "حسّـان جـداد"..

ظـل سـؤال الرّعايـة الاجتماعيـة الـذي سربـه الموظفـون؛ يشـغّل بـال جـلابي إلى أن تمكـن منهـا ذلـك الحريـق العجيـب المريـب، فالمطـافي لم تتدخـل، إلا بعـد أن أتى الحريـق عمليـاً عـلى كل شيء!

أشـارت بعـض الشـائعات الموثوقـة، أنـه تكنيـك جديـد مـن جماعـة أبولكيلـك في المجلـس البلـدي الجنكويـزي لمحاربـة السـكن العشـوائي!

IX

لم تكن أُم التيمّان، هي القصة الوحيدة في حياتي بجلابي ود عربي. فهناك قصة أخرى مع ست البنات العشمّانّة، في تلك السنوات الباكرة من مراهقتي.

كانت ست البنات العشمانّة بين آن وآخر تصّطادني، وأنا أترنح من "الكانجي مورو" أو "العسلية"..

أتسلل خفيّة منفلتاً بحذّر من بيت أم التيمان، فتحملُّني العشمانّة حملاً على دخول بيتها.

في البدء كنتُ أمانع، ولا أوافق إلا بعد الحاحها الشدّيد.

بعد ذلك أصبح بيت ست البنّات محطتي التالية لبيت أُم التيمّان. ولم تكن تدع أحداً يراني إذ تُدخلّني إلى دارها من باب خلفي مموّه.. ألج عبرّه الى غرفتها الخصوصيّة..

كانت تغسل لّي وجهي، وتمسح علىّ رأسي كقط وُتقبلُّني بجنون، وقبل أن تدعني أنصرف تعطّيني أوراق اللّيمون أو فصوص الثوم لأضعها في فمي وأمضغها كي تُزيل رائحة "الكانجي" أو "العسّلية" من أنفاسي.

عدد من صغار التُجار في المدينة الرّيفية، أغلقوا محلاتهم وانتقلوا إلى جلابي.. كان أبي أحد هؤلاء التجار الذين لا أدري سبب انتقالهم ولكن بالنسبة لأبي، فربما كان الحنين لبيئته القرّوية التي لم تعرّف الكُهرباء ومواسير المياه هو السبب.

تلك البيئة الغامضّة بعوالمها السّحرية، في أقصى دار الريح.. ربما ذلك هو ما جعله ينتقل بدُّكانه الصّغير إلى جلابي ود عرّبي، فهي تُمثل الظل للقرية التي جاء منها.

في البداية كانت الحرب بين أبكر والشيخ "جداد" غير معلنّة، ولكن ما أن سافر حسّان جداد، إلى الأراضي المقدّسة وعاد، بعد أن بقي فيها لأكثر من عامين، وأصبح اسمه الحاج أو الشيخ حسان بدلا عن حسان جداد حاف، حتى أبرز أنيابه لأبكر! بالحديث الكثيف عن الدّجل والشعوذّة، ثم لم يلبث أن أخذ في خطبة الجمعة، يخصص محاور وفصول كاملة عن ذلك ضاربا بأبكر المثل!..

ورغم ذلك كان أبكر صامتا صمتا مريبا، لا ينبس ببنت شفة.. انطلقت بعض الشائعات تعليقاً على حملة حسان جداد ضد أبكر، زاعمة أنه يحسد أبكر على النساء الجميلات، اللواتي يأتين من المدينة الرّيفية خصيصا، كي يزيل عنهن "العوارض" أو سوء الطالع! أو يعالجهن من "الطب" أو العين، إلخ..

وذهب البعض الآخر إلى أن واحدة من اللائي يأتين إلى أبكر المعراقي، هي في الواقع سلمى خير اللّه التي تسكن المدينة الرّيفية، الأخت غير الشقيقة لجداد ذات نفسه!

وأنها تأتي لأبكر بغرض أن يكتب لها "للمحبة والزواج" أو يجدد لها ما كتبه سابقا، وجنح خيال البعض أن ثمة علاقة جنسية بينها وبين أبكر، هي الدافع الأساسي لحملة جداد الشعواء.

بينما أصر آخرون أن جداد رجل صالح ويرفض البدع، وهنا اضطر البعض إلى تذكيرهم بالعلاقة المريبة التي تربط جداد وأدروب، والتي لا يمكن أن تكون من علامات الصّلاح!

وهكذا تعددت الروايات والحكايّات حول المسألة، واضعة نصب عينيها (هذه الحكايّات والروايات) عوامل وعناصر وأسس وخيارات واحتمالات عدة، تقف خلف الحملة الانتقامية التي قادها جداد ضد أبكر، منذ عودته الميمونة، من الأراضي المقدسة، ولولا تهديدات

البعـض لجـداد لتطـورت إلى بسـوس أخـرى!

ولكـن، بعـد أن داهمـت قـوات الشرطـة العسـكرية والأمـن الايجـابي وجهـاز الأمـن العـام، في السـاعات الأولى مـن فجـر أحـد الأيـام منـزل أبكـر المعراقـي وحاصرتـه، وأخرجتـه مقيـداً بحبـال السـلب الغليظـة الـذي لا تعقـل بـه إلا البعـير، ونصبـت لـه عمـودا مـن خشـب الصنوبـر الـذي كانـت الحكومـة الجنكويزيـة قـد اسـتوردته مـن لبنـان خصيصـا للاعدامـات والشـنق، ونصبـت هـذا العمـود في قلـب أكـبر ميادين جـلابي بعـد أن نـادى المنـادي في النـاس بالميكروفونـات.

واصطف العسكر ورموه بالرصاص!

بعـد هـذه المداهمـة السريعـة والمباغتـة والمحاكمـة الايجازيـة السريعـة، والإعـدام الفـوري عـلى هـذا النحـو، أصيبـت جـلابي ود عـربي، برعـب لم تسـتطع التخلـص منـه إلا بعـد شـهور عديـدة حتـى أنهـا في الشـهور الأولى، لم تجـرؤ عـلى معرفـة السـبب، خلـف مـا فعلتـه أجهـزة الأمـن بأبكـر ، بهـذه الطريقـة العلنيـة البشـعة!!

رغـم أن الحكايـة كانـت واضحـة وضـوح الشـمس، كـما أن الأجهـزة الأمنيـة لم تحـرص عـلى إخفائهـا، إذ أعلنـت في بيـان رسـمي أن أبكـر ليـس أبكـر فاسـمه الحقيقـي هـو آدمـو.. ذلـك المتمـرد المسـلح المسـئول عـن التمـرد الـذي حـدث قبـل فـترة، في الأطـراف الغربيـة للبـلاد الكبـيرة عـلى الحـدود مـع تشـاد وليبيـا وإفريقيـا الوسـطى!

وبعـد احتـواء الحكومـة الجنكويزيـة مؤقتـا للتمـرد، بمسـاعدة تآمريـة مـن عـدد مـن قـادة المجموعـة المتمـردة، ومجموعـات إثنيـة منافسـة للمجموعـة التـي ينتمـي إليهـا أبكـر، وانقسـام مجموعـة أبكـر نفسـها بسـبب عـدد مـن الاختراقـات الناجـزّة مـن قبـل الحكومـة الجنكويزيـة لمجموعـات الإنقسـام.

لهـذه الأسـباب وأسـباب أخـرى اسـتطاعت حكومـة أبـو لكيلـك الجنكويـزي القضـاء مؤقتـا عـلى التمـرد!

وكان أبكـر الـذي لم يـرى وجهـه الجديـد سـوى قلـة، قـد هـرب منـذ وقـت مبكـر؛ عندمـا لم يعـد يثـق بأحـد مـن المجموعـات المنقسـمة، ولم يتـم العثـور عليـه رغـم البحـث المكثـف الـذي أجرتـه أجهـزة أمـن أبولكيلـك الجنكويـزي.

فقـد اختبـأ أبكـر متنكـرا في شـخصية معرّاقـي، في جـلابي التـي لا يمكـن أن تخطـر عـلى بـال الأجهـزة الأمنيـة، كمـكان يصلـح لاختبـاء أيّ شـخص لطبيعـة حياتهـا العلنيـة، التـي لا تعـرف الأسرار!..

ويبـدو أن إختبـاء أبكـر، وتنكـره تغطيـة لشـخصيته الحقيقيـة، كان مؤقتـا ريثـما يتمكـن مـن إعـادة بنـاء تنظيمـه المسـلح وترتيـب أوضـاع رجالـه، و ترتيـب أوضـاع ثورتـه المجهضـة لإشـعال نـيران تمـرده مـن جديـد.

هـذه الروايـة الرّسـمية أقنعـت الأهـالي. في البـدء. لكـن، بعـد أن اطمأن الموظفـين الذيـن يرتـادون جـلابي إلى زوال الخطـر عنهـا، وأن الأوضـاع في جـلابي قـد عـادت إلى طبيعتهـا، كـما أكـدت إذاعـة لنـدن بذاتهـا وصفاتهـا ذلـك..

إذن بعـد أن تأكـد الموظفـون بمـا لا يـدع مجـالا للشـك لديهـم بعـد اسـتماعهم للنـدن و لعـدد مـن الفضائيـات، عـادوا يرتـادون جـلابي مـرة أخـرى يمارسـون المثاقفـة التحليليـة للحـدث، أثنـاء ممارسـتهم الجنـس أو أثنـاء قعـدات الخمـر والحشـيش.

وهكـذا خرجـت إلى العلـن في فضـاءات جـلابي ود عـربي، تحليـلات تختلـف تمامـا عـما قالتـه الحكومـة الجنكويزيـة رسـميا في بيانهـا الشـهير، و هكـذا بـدأ الحديـث عـن انتهـاكات حقـوق الإنسـان والحـق في محاكمـة عادلـة، الـخ.. مـما يسـميه أبـو لكيلـك بـ: خزعبـلات العولّمـة!

عندما غادر الأثر المرّوع أهالي جلابي، علموا من بعض المتنورّين (علمانيين جلابي ود عربي) أن بعض القوى السياسية المعارضة أصدرت بيانات سرية تُعضد من معنويات أهالي جلابي (في هذه "المحنة التاريخية التي يمرون بها"- كما جاء في إحدى الصحف السرّية التي تطبع على أوراق الرونيو بآلة الخشب البدائية؛ المسماة "كرجاكة" والتي هي إحدى الإنجازات العبقرية للنضال السرّي تحت الأرض ضد (نظام أبو لكيلك)..

من أكثر التحليلات التي استوقفت أهالي جلابي، ذلك التحليل الذي التقطه مزيد الحلبي من أحد عمال السكة الحديد البائدة بأن: أبكر الذي أعدمته قوات الأمن ليس هو آدمو ولا يحزنون، وإنما هو كبش فداء لإحباط "جماهير شعبنا"، وقطع الطريق على انتفاضتها الشاملة والمحمّية بالسلاح!

فهذا الإعدام هو بمثابة القضاء على أمل الحركة الجماهيرية، في هبتها الثورّية القومية والأممية (حتى هذه اللحظة لم يُشاهد ذلك التعامل البروليتاري البائس في جلابي ود عربي مرة أخرى على الإطلاق، كما أن أسرته لا تعرف مكانه، وزملاؤه القدامى في العمل غيروا وظائفهم، فاغترب بعضهم إلى الخليج ومصر وقدّم بعضهم طلب إجازة طويلة الأمد بدون مرتب، واستقال البعض الآخر بدعوى أنه وجد فرصة عمل أفضل (مع أن شهود عيان يؤكدون أن هؤلاء بالذات أغلقوا على أنفسهم أبواب بيوتهم، وليست هناك عروض أفضل قدمت لهم، أو أي شيء من هذا القبيل!!).

هذا الموقف من الموظفين أسعد مسئولين سكة حديد أبو لكيلك وشيكة التلاشي، فهذه المؤسسة أصلا تم تدميرها بصورة منظمة بسبب أن نقابتها شكلت مصدر إزعاج لكل الحكومات الجنكويزية منذ جعفر الجنكويزي الثاني مرورا بصديق الجنكويزي الرابع عشر وصولا لأبو لكيلك الجنكويزي الخامس.

وبتقديـم الموظفـين لاسـتقالات حملـوا عبئـا كبـيراً عـن المسـؤولين، الذيـن كانـوا عمليـاً قـد باعـوا بقايـا قضبـان السـكة الحديـد لجمهوريـة "مالفـي" في أقـصى الجنـوب الآسـيوي، باعتبـار هـذه المؤسسـة (السـكة الحديـد مثلهـا مثـل المشـاريع الزراعيـة: خـاسرة!)

وهكـذا لم يعـد – ببيـع السـكة الحديـد – أى مؤسسـة قطـاع عـام، فقـد كانـت هـي آخـر مؤسسـات القطـاع العـام، التـي تبقـت مـن حمـلات البيع المسـعورة لمؤسسـات البـلاد الكبـيرة الأسـيرة، وكان الموظفـون يدركـون قبـل تقديـم اسـتقالاتهم (التـي يؤكـد البعـض أنهـم أجـبروا عليهـا) يدركـون أن السـماسرة الذيـن أطلقهـم أبـو لكيلـك في أصقـاع الأرض الأربعـة، لم يجـدوا مسـتثمرا مغريـا بعـد إلى أن لاح في الأفـق ذلـك المسـتثمر الآسـيوي. مصحوبـا بأمـوال دويلـة نفطيـة مسـاحتها أصغـر مـن جزيـرة تـو التـي تتوسـط عاصمـة الجنكويـز مترامية الأطـراف.

لكـن الشـائعة الجديـرة بالاهتـمام الشـعبي في جـلابي ود عـربي، تلـك التـي أنتجهـا الأهـالي أنفسـهم، والتـي تفيـد أن جـداد وظـف علاقاتـه النافـذّة للقضـاء عـلى أبكـر، الأمـر الـذي جعـل أهـالي جـلابي ودعـربي يخافـون جـداد كثـيراً (ونـدم البعـض بالفعـل عـلى كلام ربمـا يكـون قالـه لجـداد في وجهـه ذات مـرة، و انتابـت بعـض رّهـاف القلـوب ممـن أسـاءوا لجـداد الهـلاوس في أحلامهـم، إذ يأتيهـم جـداد في شـكل ديناصـور أو تنـين أو كائـن فضـائي غريـب ليشـتت أحلامهـم، بعـد أن يكتـم عـلى أنفاسـهم أو يخنقهـم أو يبتلعهـم، فـيرون أنفسـهم في أمعائـه الغليظـة، التـي تعتصرهـم.. يموتـون ببـطء ببـطء ببـطء شـديد)..

وهكـذا تـاب هـؤلاء عـن الإسـاءة إلى جـداد، والذيـن كانـوا أكثر شـجاعة خففـوا حملاتهم ضـده!!..

التخوفـات التـي ابدتهـا المدينـة الرّيفيـة عنـد نشـأة جـلابي ود عـربي، اتضـح أنهـا كانـت تخوفـات في محلهـا. فقـد صدقـت هواجسـهم وظنونهم،

فبعض نساء الموظفين والعمال كنّ يتركنّ بيوتهنّ ما أن يغادر أزواجهن إلى العمل، ويجئن إلى جلابي ود عربي ليمارسن نزواتهن. ولا يعدن إلى بيوتهن إلا عندما تقترب مواعيد عودة الأزواج المنهكين.

كذلك أصبح الطلاب يتسللون من مدارسهم، ليقضوا بقية يومهم الدراسي في جلابي لتلقي دروس الحياة السرية!

كان من أبرز معالم جلابي ود عربي كرتون وأدروب وجداد وأبكر وجمال الحلة ورياك وعبد الرحمن ود التوم (العوير) وكسبان الضّاوي، الذين كانوا يشتركون جميعهم في أحوالهم الغريبة، كما دونتها الذاكرة الشعبية لجلابي.

هذه الأحوال التي أصبحت مألوفة، إذ لم تعد بمرور الوقت تثير إهتمام أحد! على الرُّغم من أن ذاكرة جلابي نفسها، نهضت في هذه الأحوال!

لكن ما ظل ثابتا و راسخاً، أنه ما أن يُنطق اسم جلابي ود عربي حتى يتبادر إلى الذهن كرتون وأبكر وجمال والعوير والضّاوي.

فكرتون (وكرتون هذه ليست جزء من أسمه الحقيقي الذي لم يفصح عنه لأحد أبدا) كان يأتي مهندما ومتأنقا إلى جلابي صبيحة كل جمعة، فيدخل بيت السّرّة ست المريسة، ويبقى ليشرب حتى تتلاشى سحابة النهار، فيخرج مشعشعا، مترنحا ليمضي باتجاه المدينة الريفية متعثر الخطى متمتما بكلمات لم يسمعها أحد سواه!..

ولا يبين مرة أخرى إلا صبيحة الجمعة التالية، وهكذا اعتاد الناس عليه: يأتي ليشرب الخمر البلدي، وينصرف بهدوء دون أن يسأل أحد أو يسأله أحد! حتى أنه عندما سكن مع السّرّة في بيتها، لم يبد هذا الأمر غريبا أو مثيرا للتساؤل (بعض الشائعات أكدت أن جداد ذاته بشحمه ولحمه لم يهتم لهذا الأمر ليدرجه ضمن حملاته الوعظية في

ترويـع الآمنـين مـن آهـالي جـلابي) رغـم تبجحاتـه السـابقة، عـن إهتمامـه لأمـر الـسّرّة وابنيهـا ورغـم غاراتـه الدينيـة الجهاديـة المنتظمـة!

مـا كان يثـير التسـاؤل حقـا هـو: أيـن كان كرتـون يسـكن في المدينـة الريفيـة، وكيـف كانـت حياتـه بالضبـط ولمـاذا تـرك بيتـه ليسـاكن الـسرة سـت المريسـة؟!

X

الآن ومن أعلا بُرهات هذه اللحظة السرمدية، وفي لحظة احتضار. حيث جسدي مُلقى بين الحياة والموت، تجيء كل هذه العوالم ماثلة أمامي. حيث يتكثّف الزّمن حتى ليصبح دهرا!

فأجد نفسي جالسا على ُشرفة الخاطر، لأسمع صوت حسن ممتزجا في صوت شقيقته سارة.

صوتا واحدا متوحدا قادما عبر الزّمان والمكان مختزلا المسافات وقوانين الضوء والكيمياء والفراغ الواسع الذي يفصلنا!

يحدثني عن جلابي ود عربي التي لم تعد كما هي ذاتها تلك البلدة التي ينتهكها زوار الفجر وجرارات المجلس البلدي وقرارات اللجان الشعبية الفاسدة، وحملات الانضباط والنظام العام، والمباحث الجنائية.

فقد تغير الحال في مدينة الفردوس (جلابي ود عربي سابقا)..

أحاول تجميع الوقائع والأحداث، وترتيبها في ذاكرتي لإنشائها من جديد.. (جلابي) كما عرفتها: بلدة كل شيء فيها يُنبيء دائما، أن ثمة كارثة ستحدث بعد قليل!.. فكل شيء معد للانفجار!

فجداد لم يكتف بإعلان الحرب على أبكر فحسب، إذ سرعان ما شملت حملته الانتقامية رياك دون أن يدري أحد سببا مقنعا لذلك.

فجداد دون سابق إنذار أخذ يُحرض الأهالي على مقاطعة رياك (زاعما أنه وثني مسيحي كافر) آمرا عباد الله المؤمنين في جلابي بالابتعاد عنه وعزله، كالمرض المعدي مستهديا بالحديث: "إنما المسلمين (...) تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"

فكان البعض يهز رأسه موافقا، وربما تأخذه الحماسة فيهتف:

"واقتلوهم أينما ثقفتموهم"

فيرد عليه آخر:

"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة..."

وبالطبع يتدخل علمانيو جلابي همسا ضد هؤلاء "الهتيفة" الذين يريدون أن ينالوا حظوة عند جداد ويتجرأ بعضهم فيرفع صوته معارضا:

"أنت تريد إشعال الفتنة الدينية.. الدين لله والوطن للجميع"

بينما لا يأبه آخرون إذ ينصرفون بهدؤ، ما أن يبدأ جداد استهلال حملته.. وهؤلاء الذين لا يأبهون على وجه الخصوص، هم أول من لاحظ التبدلات التي اعترت شخصية كرتون التي أعتادوها.

إذ لم يعد كرتون يغادر جلابي إلا مرّة أو مرتين في الشهر، حاملا كل الكراتين وباغات الزيت الفارغة التي يشتريها من الدكاكين والكناتين في جلابي، يربط كل ذلك على حمّار السّرّة ثم يمضي بها إلى المدينة الريفية.. يغيب إلى أن تنقضي سحابة النهار فيأتي بدونها.

كان الأهالي في جلابي يتساءلون:

"أين يمضي بكل هذه الكراتين و(الباغات الفارغة؟!)"

فكان جداد يرد عليهم:

"ربما تكون فيها مصلحة. قطع الرقاب ولا قطع الأرزاق"

ورد جداد عادة يكون متوقعا، خاصة في هذه الحالة نظرا لمحاولاته الدؤوبة في تجنيد كرتون الى صفه، بعد أن نجح في تجنيد أدروب، الذي كان قد ارتبط به في علاقة مريبة، أثارت الأسئلة حتى في الأوساط العليا للعرافين، وفقا للشائعات التي ملأت جلابي ود عربي.

يعتقـد البعـض اعتقـادا جازمـا أن جـداد، أنضـم إلى العرافـين نظـرا لـدوره الكبـير في اعتقـال وإعـدام أبكـر المعرّاقـي، وأن العرّافـين هـم الذيـن مولـوا مشروعـه الخـاص بالاتجـار في الدجـاج والبيـض، وأنـه يحـاول تجنيـد كرتـون لهـذه المجموعـة العجيبـة، التـي تعـرف كل شيء، فـما أوتتـه مـن العلـم ليـس بقليـل، كـما أن جـداد حـاول مـن قبـل تجنيـد ريـاك ففشـل إلا أن نجاحـه في تجنيـد أدروب دفعـه إلى مواصلـة الجهـاد لتجنيـد المزيـد مـن العرافـين الجـدد.

أحـوال العـالم المنـسي لجـلابي ود عـربي مليئـة بالثغـرات والثقـوب (طبيعـة الذاكـرة المنتهكـة لجـلابي ذاتهـا) إذ تسـم ذاكـرتي في هـذه اللحظـة الفاصلـة بـين عالمـين بالإنهـاك، فتسـقط منهـا الذكريـات عشـوائية، متداخلـة، غـير مكتملـة.

تتكـوّم الأحـوال: حـالا فحـالا، أمامـي ككتلـة مـن القلـق الـكُلّي والأحاسـيس والشـجن. فيكـون التسـاؤل كالهـلاك: هـل كان لهـذه البلـدة وجـود أصـلا؟ أم هـي تشـكلت مـن دوار خمـر البارحـة، التـي لا تـزال ابخرتهـا تفـوح مـن أنفـاسي!

لم يطلـق أهـالي ود عـربي عـلى حسّـان اسـم جـداد للسـخرية منـه! فالتسـمية جـاءت للرجـل مـن تجارتـه في الدجـاج والبيـض. إذ لم يـترك بيضـة واحـدة أو دجاجـة "حايمـة" في شـوارع جـلابي أو المدينـة الرّيفيـة، إلا اسـتهدفها بالـشراء مـن أصحابهـا. وشـملّت اهتماماتـه بالطيـور حتـى فـراخ الحـمام، وعندمـا توسـعت مداركـه ضـم إلى تجارتـه الأرانـب والبـط وديـك الـرّوم ودجـاج "الفـولان" لكـن لم يـسر عليـه سـوى اسـم: جـداد "دجـاج"..

في الأيـام الأولى لتجارتـه، عندمـا وفـد إلى جـلابي حديثـا، كان يبـذل مجهـودا جبـارا في سـبيل جمـع أكـبر قـدر ممكـن مـن الفـراخ والبيـض والفراريـج.

يمشي على قدميه مسافات طويلة و يطرق كل الأبواب، في كل أحياء جلابي والمدينة الريفية مترامية الأطراف ليسألهم ان كان لديهم شيء منها للبيع.

ويوما بعد آخر أصبح أشهر من المحافظ، كل المدينة الريفية تعرفه. فلم يعد بحاجة للبحث عن الطيور أو البيض. فكل شيء أصبح يأتيه في مكانه. فلا أحد لديه بيض أو أيّ نوع من أنواع الطيور الجلابية أو العجمية يرغب في بيعه إلا وأتى به إلى جداد قاطعا المسافات من المدينة الريفية إلى جلابي (هذا إذا لم يكن من أهالي جلابي).

الذي ابتداء من هذه اللحظة أصبح أسمه حسّان جداد (بدلا عن حسان فقط - لوحظ أنه كان يفخر بلقبه الجديد "جداد" إلى حد الانتماء، فعندما تقول له "جداد" يبتسم بسعادة غامرة كأنك تناديه بـ "حضرتك" أو (جنابك) أو "سيادتك" ويبدو أن عمل الرجل في الطيور جعله من أصحاب الأحلام المحلقة في سماوات ليس للآخرين الأجنحة الكافية ليطالوها!

فالرجل طرح مشروع سلسلة من المجمعات الاستهلاكية أطلق عليه: "الأمن الغذائي". تزامن إطلاق هذا المشروع الأخطبوطي، الذي شمل ضواحي وبلدات المدينة الريفية، مع تأجير جداد لمحل في قلب السوق الكبير للمدينة الريفية.

وهكذا اتسعت تجارته وأصبح من أهم الموردين للبقالات الكبيرة، وأصبح محله في السوق الكبير للمدينة الريفية، مركزا لمجمعاته الاستهلاكية، التي شملت مشاريع فرعية مثل "مطاعم جداد للوجبات السريعة".. "جداد للعرديب والمرطبات التراثية".. "جداد للخضر والفاكهة".. "جداد للخردوات".. "جداد للترحيلات عبر المدن".. "جداد للصناعات الدوائية - تخفيضات خاصة للكلوتات الطبية والكوتكس والكوندمس..

وليفيترا للذين لديهم مآخذ على الفياجرا بسبب تحفظاتهم على الإعلان التلفزيوني المبتذل للفياجرا الذي يعرض فيه أحد الأشخاص وهو يغرس مسمارا سميكا في جدار صلب دون أن ينثني هذا المسمار، الذي يبدو من الواضح أنه سقى بماء الفياجرا، وتسهيلا لخدمة الزبائن ابتدر جداد بند خدمات توصيل مجانية.. "تاكسي جداد التعاوني".. "جداد للتبغ والعماري الأصلي"..

وتأكيدا على جديته التجارية شنّ جداد على الجمهور حملة إعلانية تلفزيونية عرضا لمنتجاته الطبية على وجه الخصوص، ولاحظ بعض المراقبين، مدى استفادة جداد من اعلانات الفياجرا والليفيترا.

لم يترك جداد شيئا يتم استهلاكه يوميا، لم يضعه ضمن مشروع مجمعاته الاستهلاكية! ورغم هذا اليسر الذي جاءه من وسع، لم يرحل جداد من سكنه القديم، فالرجل مشهود له بالوفاء للتاريخ والتراث الجلابي العريق!

شهد مسكن جداد الفارّه دونا عن كل مساكن جلابي ود عربي، توقف العربات الأمريكية واليابانية الفارهة أمامه بالساعات الطوال.. كان زواره يأتون في هذه العربات من مختلف أنحاء المدينة الريفية والبلاد الكبيرة، خاصة حاضرتها.

كانوا رجالا أنثويي الملامح.. طبيعة أصواتهم عندما يتكلمون وطريقة المشي "المتفدعة" عندما يترجلون عن عرباتهم الفاخرة.. وتأنقهم في ثيابهم الزّاهية وأجسامهم اللامعة "الندياني" وكل شيء فيهم انثوي، الأمر الذي أزعج أدروب فسأل أحدهم:

"وجهك مالو ناير كدي؟!"

فرد عليه:

"سيماهم في وجوههم"

فقطـع أدروب الحركـة، كأن أحـد الأمطـار الغزيـرة "صّبـت" عليـه لحظتهـا!.. في هـذا الوقـت كان جـداد قـد نقـل الجامـع مـن موقعـه القديـم وأكمـل بنـاء الجامـع الجديـد في موقـع آخـر. أثبتـت الأحـداث فيـما بعـد أنـه أختـاره بعنايـة منقطعـة النظـير، ونصّـب نفسـه إمامـا عليـه (ومأمومـا كذلـك أغلـب الأحيـان!! إذ توقـف الكثـيرون عـن إرتيـاد الجامـع، الـذي أصبـح اسـمه "جامـع جـداد" بـدلا عـن إسـمه القديـم "مسـجد جـلابي ود عـربي العتيـق!"..

في لحظـة سـابقة لهـذه اللحظـة (هـي اللحظـة التـي سـافر فيهـا جـداد لـلأراضي المقدسـة) وفي غيبتـه انطلقـت كثـير مـن الشـائعات حـول أعمالـه المريبـة! لكـن الشـائعة التـي انطلقـت مـن مجالـس النسـاء، كانـت مختلفـة عـن الشـائعات الأخـرى، عـن علاقاتـه وأعمالـه!

مفاد الشائعة أن جداد يرتبط بعلاقة مثلية مع أدروب.

بالطبـع وصلـت هـذه الشـائعة إلى مسـامع الأهـالي، فأعـادت إلى أذهانهـم شـائعة سـمعوها في الأيـام الأولى التـي جـاء فيهـا جـداد وأسـتقر في جـلابي..

مفـاد تلـك الشـائعة أن جـداد منـذ نعومـة أظفـاره وهـو جـزء مـن كيـان العرافـين، متـشرب بأفكارهـم، ولذلـك ارتقـى داخـل صفوفهـم، وظـل يرتقـي إلى أن اكتشـفوا بالوثائـق والإثباتـات، أنـه نهـب مبالغـا ضخمـة دون أن يعـثروا لهـا عـلى أثـر، فواجهـوه وطـردوه مـن كيـان العرّافـين، ولم يُظهـر جـداد سـوى الفقـر والحاجـة، ولم تبـد عليـه علامـات الـثراء أبـدا! وضرب في أنحـاء البـلاد المختلفـة، إلى أن طـاب لـه المقـام في جـلابي، ومـن ثـم بـدأ يظهـر عليـه الـثراء تدريجيـا!

بعـض الأهـالي وقتهـا كانـوا لديهـم رأي مختلـف، يتمثـل في أن مـا تـم مـن قبـل العرافـين تجـاه جـداد، هـو مؤامـرة لإقصائـه بسـبب مثلّيتـه،

بينما مضى آخرون للزعم أنها مؤامرة مثل كل المؤامرات ("فالسياسة مؤسسة أحقاد منظمة كما يطيب لعلمانيي جلابي التعبير") فالمؤامرات من هذا النّوع تحدث في مثل هذه الجماعات، بسبب الصراع على النفوذ والسلطة والثروة!

والبعض الآخر من "أهل التقية" في جلابي هزّ رأسه ولم يعلق بسوى:

"أستغفر اللّه العظيم من كل ذنب عظيم - أحفظنا وارحمنا يا رّب وول علينا من يصلح!".. ما دفع بعض الخبثاء للضحك وهم يتحسسون مؤخراتهم في اطمئنان وغبطة!

وعندما تهامست النساء وهن يلكن الشائعة، أطلت الشائعة القديمة برأسها مرة أخرى وطفت على سطح أذهان الأهالي! الذين سارعوا بابتلاعها مثلما ابتلعوا ما سبقها من شائعات، دون أن يحاولوا الجهر، خشية أن يرسلهم الرّجل وراء الشمس.

فالرجل أيّاً كان الأمر يبدو أن العرافين أعادوه إلى صفوفهم مرة أخرى، وقاموا بتمويله وأصبح صاحب نفوذ كبير، فثروته لم يجنها من الدجاج فحسب، وما الدجاج الا ستار يحجب به مصدر ثروته الحقيقي! وُيخفي به أنشطته غير المرئية (لوحظ أن جداد منذ أطلق مشروع مجمعاته لم يعد يتحدث عن حُرمة السجائر أو عذاب تارّك الصّلاة على الإطلاق!)

كان إيمان الأهالي لا حدود له بأن لجداد علاقات متشعبة، مع العرافين والطائفيين وما إلى ذلك من شاكلات.. وقتها كان العرافين قد انقسموا إلى قسمين: قسم ضد أبو لكيلك الجنكويزي والآخر معه!

ولم يتنفس الأهالي عمليا، وأخذوا يضايقون جداد علنا في بعض الأحيان إلا بعد هذا الانقسام المروع للعرافين، الذين أدركوا بعده

بوقت ليس قصير، أن له تأثيراً كبيراً على نفوذ وسلطان جداد!

التغييرات المهنية التي حدثت في حياة جداد، جعلت تجار "الكناتين" في جلابي يحسدونه سرا، بينما يجهرون رياء:

"ما شاء اللّه.. اللّهم زد وبارك!"..

هذا كان في البداية، إذ لم يقووا على كتمان ما في صدورهم، فأخذوا يجاهرون بهذا الحسد. الأمر الذي كان يستدعى دائما تدخل جمال الحلّة.. ليس لأنه من الذين أخذوا يتقربون لجداد، بل لأنه عرف بالمباشرة اللاذعة والتلقائية المرّة، التي لا تجتهد في تذويق الكلام!

الأمر الذي جعل الناس يختلفون حوله، فمنهم من ينظر إليه كمجذوب و"بركة" حتى أن هؤلاء نسجوا حوله كثير من الأساطير. ومنهم من ينظرون اليه كمحتال يصعب الوثوق به. ولولا علاقته الوطيدة بعبد الرحمن العوير وكسبان الضّاوي، اللذان يجمعان كلاهما بأنه:

"راجل بركة"

لما تركوه يضايقهم، ولردوا له الصّاع صاعين! فهم يخافون لعنة عبد الرّحمن ود التّوم، التي رأوها بأم أعينهم بينة في بيت أم التيمان، عندما تعاركت معه. فلم تمض سوى دقائق قليلة، حتى اشتعلت النار في بيتها!

فجاءت وركعت تحت قدميه تطلب السماح ولم تنهض إلا بعد أن قال لها:

"أنا مسامح. قومي. اذهبي يا أمة اللّه!"

كما أن كسبان الضّاوي على سخريته المرّيرة التي توغرالصدّور! كان عملاقاً، ولذلك لا يجدون مناصاً من كظم غيظهم!!..

XI

هـل تحـزن ثريـا لـو كانـت لا تـزال عـلى قيـد الحيـاة؟ هـل تحـزن في آخرتهـا الغامضـة، إذا عـبر بهـا هـذا الـكلام؟ أو حملتـه لهـا سـحابات الغيـوم الآن؛ بعـد أن تعـبر بوجهـي إليهـا؟!

هـل سـيغضبها في آخرتهـا إذا نقلـه لهـا ملائكتهـا الكروبيـين.. أو عـبرت بـه، مرهقـة مـن وعثـاء التخاطـر؟!

ثريـا المراهقـة داكنّـة البـشرة، التـي عـبرت عـلى حيـاتي في لحظـة فاترة و مالحـة فتـور وملوحـة مـاء الآبـار! لا تـروي ظـمأ! فبقيـت مسـتمرة كأغـرب لحظـة حاسـمة في حيـاة انتقاليـة بـين الصّبـا والمراهقـة!

مـن أيـن جـاءت بهـذا السّـحر الجبـلي، الـذي وسـمها بحيويّـة الطقـوس البدائيـة؟ في ثريـا كانـت تلتقـي جبـال النوبـة، بغابـات الإسـتواء في قلبـي الناهـض في دار الريـح و النيـل، ليشـكل الملتقـى شريانـاً، يتخلـل كل نواحي جـلابي ود عـربي.. فيسـمع همـس القّـش تحتـك بـه الرّيـح! ويتحسّـس الدُّخـان المتسـلل البيـوت المهتـزّة!

كيـف نفـذت هـذه الصّبيـة اليانعـة إلى قلبـي فتوحـدت بـه.. مبتعـدة عـن هـذا الظـمأ.. مختبئـة في أحـد كهوفـه.. كهـف مثـل كهـوف أسـلافها الذيـن أدركهـم الحـب، فطـاردوا الغـزالات في رحـلات الصيـد، ولم يعـودوا أبـدا! تتركنـي الآن تتخطفنـي الطّير ووحـوش الفـلاة!.. فلاة جـلابي ودعربي..

مـا أدركـه الآن تمامـا: أننـي أعتـلي هـذه البُرّهـة الشـاهقة، لأنظـر مـن فوقهـا إلى ذلـك العـالم التّحتـي.. الـسّرّي، الـذي أنقـب فيـه ببـصري وأحـاول أن أتفـادى تلـك الروائـح الزنخـة البعيـدة، التـي وسـمت بعطنهـا أزقـة وُجـدُر جـلابي ود عـربي..

تتخلل البيوت القش والطين اللّبن والدّروب الضيقة المتسخة بالرّوث وبقايا أكياس الورق و البلاستيك، والعُلب الفارغة!

أحاول ملامسة هذه الروائح الآن. من هذا العلو الشاهق لأكشف ما أختبأ خلفها من أقنعة للناس والمكان وكلاب السكّك التي لا تهدأ!

كانت ثريا في مثل سني.. أهتم أبي لأمر شقيقها خميس الذي يكبرها قليلا، وألحقه بالمدرسة. فكنا ثلاثتنا: أنا وهو وحسن - بعد انقضاء اليوم الدراسي، "نترادف" على دراجتي الفليبس إلى أن نصل إلى جلابي.

وقتها كانت ثمة شائعة قد إنطلقت، مفادها: أن المجهود الجبار الذي بذله والدي، كيما يتم قبول خميس في مدرسة المدينة الريفية، جاء من اهتمام أبي بالسرة والدة خميس؟! و ليس حبا في عمل الخير (كما ظل يزعم) وهو يقوم بتسويق نفسه كرجل صالح!

لا أدري لماذا تم نبش هذا الأمر في ذلك التوقيت بالذات، على الرُّغم من مضي عدة سنوات منذ أدخل أبي خميس المدرسة!

لم يكن أبي يمانع علاقتي بخميس.. هو الذي كان يمانع أن تكون لي أيُّ علاقة بأي شخص من شخوص جلابي!

أكد لي صديقي حسن، وقتها:

"والدك على علاقة بأم خميس.. هذا مؤكد"

فضحكت ولم آبه للأمر. وربما لهذا السبب الذي زعمه حسن. تسامح معي والدي عندما جاء إلى الدّكان على نحو مفاجئ وضبط ثريا تحاول اغرائي بمفاتنها الطازجة المتدفقة!

رآها تحسر فستانها القصير البالي عن فخذيها، وتعرض صدرّها.. وبعد أن انصرفت مأخوذة، كنت زائغ العينين ومرتبك.. اكتفى بتحذيري و تخويفي مستخدما لهجة شديدة لم آلفها..

كانـت ثريـا تقتنـص الأوقـات، التـي يكـون فيهـا أبي غائبـا والـدكان خـال مـن الزبائـن، فتقـف في مدخلـه وتكشـف لي عـن فخذيهـا وصدرهـا الـذي أكتمـل نمـو ثمرتيـه للتـو!..

فتشـعل في داخـلي حمـم وحـرق، تجعلنـي خائـر القـوى، لا أقـوى عـلى الوقـوف. كأن شـياطين الجحيـم تلهـو في عروقـي، وهـي تطلـق ضحكاتهـا العابثـة! التـي تتوحـد مـع ضحكـة ثريـا، فيشـكلان معـا ضحكـة واحـدة.. متحـدة ومتوحـدة مـع الفـراغ العريـض لفضـاءات جـلابي ود عـربي.

في الأوقـات التـي يزدحـم فيها الـدكان بالزبائـن، وتلامـس أذني أحاديثهم عـن ثريـا. كنـت أشرع أذني عـلى وسـعهما، حتـى تـكادان تتشربـان بغيبـة الزبائـن لثريـا ونميمتهـم.. فأهـالي جـلابي:

الغيبـة والنميمـة، لا تطيـب لهـم إلا عندمـا يصادفـون بعضهـم أمـام الـدكان لـشراء غـرض مـن أغراضهـم. ومثلـت هـذه الغيبـة والنميمـة مصـدراً أساسـيا مـن مصـادر معرفتـي بأحـوال جـلابي وحكاياتهـا ومصـدرا يـكاد يكـون معتمـدا مـن قبـلي حـول ثريـا والأمورالموحيّـة، التـي لا تخلـو مـن اغـراء خفـي. أو الداعـرة العاهـرة "الفاجـرة الصغـيرة" كـما عَرَفَتهَـا نميمـة الزبائـن وأغتياباتهـم!

ربمـا شـكّل الزبائـن في داخـلي ثريـا كاغـراء محض.. اغـراء فاتـن ومفتون بالعبـث.. ولذلـك حاولـت بـدوري، إغراءهـا عـلى إقامـة علاقـة معـي، لتطلعنـي عـلى معارفهـا الواسـعة، التـي شـدّتني إليهـا أحاديـث الزبائـن.

تلـك المعـارف الغامضـة عـن ذلـك العـالم الـسّري، الـذي كنـت وقتهـا لا أعـرف عنه شـيئا!!.. كما كنت أرغب في خوض التجربـة لأفهم معنى الحرّقان الـذي أحـس بـه يتخللنـي مفصـلا، مفصـلا فيجعل اسـفل ظهري وسلسـلتي الفقريـة، راعشـين كالمصابـين دون سـائر جسـدي بالحمـى "الراجعـة!" لكن ثريا لم تتح لي هذه المعايشـة أبدا، فظلت كمدينة مفتوحة لكل الغزاة دوني!

كانت تكتفي بتعرية فخذيها أو صدرها، أو تعريتهما معا وتمضي، مخلفة وراءها تلك الضحكة العجيبة، لتحاصرني بدوامات أصداءها، التي لا تزال ترّن في طبلة أذني حتى الآن رغم انقضاء كل هذه السنوات.

لا أدري لماذا كانت ثريا تعاملني بهذه الطريقة.. تصرفاتها كلها كانت تدعوني إليها، لكن ما أن اقترب منها حتى تهرب! تساهلت مع الجميع إلاي، كأنها تقصد استثنائي عن عمد، على الرغم من أن الشائعات التي تم إطلاقها حولي في جلابي دمغتنا بأننا على علاقة حميمة!

بل وحرص زبائن الدكان على التلميح أو التصريح لي بذلك مباشرة، كلما سنحت لهم الفرصة! خاصة عندما يستاؤون، من أسلوبي في مبايعتهم، أو رفضي بيعهم شيئا بالدين! أو التصريح مباشرة، تنفيذا لقرارات أبي الصارمة: "الدين ممنوع والزّعل مرفوع".. وكانوا عندما يصطدمون بجدار اصراري، يخاطبونني بوقاحة:

"لو كانت ثريا لكنت دينتها"

أو يلمحون:

"ثريا ما شايفنها اليومين دي.. مشت المدينة تسترزق ولا شنو؟!"

فأكظم غيظي ولا أنبس ببنت شفة. كنت مشدودا إلى ثريا بقوة خفية، خارقة لا أملك ازاءها شيئا! فلم أكن أقوى على التحكم في نفسي كلما رأيتها، إذ تتهشم كل القرارات، التي أكون قد أصدرتها سابقا للتحكم في تصرفاتي لحظة مجيئها!

لم أكن أمنع عنها شيئا تطلبه من الدكان، وكلما زاد امتناعها عني، كلما أصدرت مزيدا من الفرّمانات والصكوك بحق نفسي، وكلما زاد هشيم القرارات والصكوك تحت قدمي ثريا! إذ كانت رغبتي فيها تشتد.

حتى أن السبب الأساسي لتسللي لبيت أم التيمان، كان بسبب هذه الرغبة القوية في استجابة ثريا كانت استجابتها، تعني لي الكثير، ففكرت في الانتماء إلى عالمها، علّه يكون مدخلا لهذا القبول. وتمهيدا لاستجابتها التي كنت أضع الكثير من الخطط في سبيلها. فبسبب ثريا أصبحت مغرما بقصص الحب واشعاره، عل الصولات والجولات التي بيننا تهدأ، ويتوقف الكر والفر!

لكن ظلت علاقتنا معارك متصلة، فما أن خرجت من دائرة التاريخ المدرسي وسّير العشاق حتى أخذت أقرأ لأجلها المذكرات التي كتبها قادة أو معارف لهؤلاء القادة، عن حياتهم العاطفية أو الجنسية، أو شعراء جنوا أو ماتوا كمدا! فقرأت بنهم كل ما وقع تحت يدي!

ورغم صغر سني كنت كالفأر أقرض المعلومات أفهم بعضها وبعضها لا أفهمه، أحاول إعداد نفسي للمعركة الكبرى، أم المعارك، أضع الخُطة تلو الأخرى وفي كل مرة أحذف منها تفصيلات وأضيف أخرى، فتسقط الخطة لحظة مجيء ثريا، وأصبح مرة أخرى بلا خطة! حتى يئست وشعرت أن كل الذين قرأت لهم قد خدعوني، خدعة لا يمكن التسامح معها. فكرهت هذا النوع من القراءات!

وأصبح كلما سمعت أحدهم ينطق باسم نزار أو روميو، ينتابني شعور قاتل بالغثيان، والحاجة للاستفراغ!

لماذا كانت كل خططي تنهار تحت قدمي ثريا؟ ظل هذا السؤال يحدق ويستبد بي لوقت طويل. أول مرة أدخل فيها بيت أم التيمان، كنت غاضبا فقد رأيت ثريا قبلها بلحظات، تخرج وهي تجرجر ردفيها المثيرين، من بيت أدروب في تعب لا تخطئه العين!

كانت تتلمس بين آن وآخر أسفل مؤخرتها، وكأنها تتلمس جرحا، وكان الشارع خاليا، إلا منا الاثنين. لم تكن تراني، في نهايته عند إحدى الزوايا.

حيث مكثت أراقبها إلى أن غابت في الدرب المفضي إلى حيث تسكن!

شعرت لحظتها بنوع من الغضب. الذي لم آلفه من قبل يجتاحني، فقصدت بيت أم التيمان التي حاولت إخفاء دهشتها فلم تفلح، فسألتني بعد صمت طويل:

"في شنو؟!"

"عاوز أشرب"

أمعنت النظر في وجهي طويلا وهي ترمي مزيد الحلبي، الذي كان يجلس وقتها وهو يخرج يده من "جردل" المريسة، الذي شارف على الانتهاء، بنظرة تحذير حاسمة، ثم أردفت:

"تشرب شنو؟!"

"عرقي"

"أنا لا أعمل العرقي.. وأنت صغير علي العرقي"

"طيب مريسة؟!"

فضحكت:

"المريسة بيشربوها في النهار"

فأشرت إلى مزيد الحلبي، الذي كان قد أتى على كل ما تبقى في (جردل) المريسة الذي أمامه! فقالت بسرعة:

"دي كانت آخر مريسة؛ لكن عندي كانجي مورو مخصوصة.. شراب تلاميذ"

أخذت أتلمظ طعم السمسم والسكر في "الكانجي" و شعرت بخدر لذيذ يسري في عروقي، وأخذت كل التغضنات التي اعترت وجهي ترتخي. و ملامحي تبدأ في الانبساط!

كانت حدة الألم الذي خلفته ثريا قد بدأت تخف.

الفصل الثالث

I

ذلـك الاحسـاس الـذي دفعنـي لدخول بيـت أم التيـمان وشرب الكانجي. ربمـا مـا يشـابهه هـو مـا دفـع ريـاك إلى أن يـدلي لي بآخـر اعترافاتـه، عندمـا التقيتــه في زيارتــه الأخــيرة بهــذا البلــد، عــلى رأس وفــد رســمي رفيــع المسـتوى مـن وفـود حركـة الجمهوريـة الثانيـة.

التقيتــه مصادفــة في غالــيري الأوبــرا، في جنــاح النحــت والتشــكيل الأفريقـي. كان واقفـا مـع أحـد التشـكيليين الأوغنديـين، الـذي كان يحدثـه عــن إحــدى اللوحــات التــي وقفـا أمامهـا.

وضعـت يـدي عـلى كتفـه و أخبرتـه أننـي أتابـع التطـورات التـي تحدث في البـلاد الكبـيرة، وجـلابي ود عـربي، عـلى نحـو خـاص. وذكرتـه بنفـسي. فاحتضننـي وأخـبرني، أن حركتهـم ستشـكل مـع حكومـة الجنكويـز حكومـة وطنيـة للمـرة الأولى في تاريـخ البـلاد الكبـيرة منـذ اعـلان الجمهوريـة الأولى قبيـل مغـادرة الإنجليـز بقليـل!

ثـم اعتـذر للفنـان التشـكيلي ومـضى بصحبتـي، إلى مقهـى وادي النيـل المطـل عـلى التحريـر.

II

كان صوت رياك عميقا لكنه حيويا ودافئا. لم يكن كمن يجلس في مقهى عام. مطل على أحد شوارع القاهرة المزدحمة بالناس والفوضى والضجيج. كان كمن يجلس في بيته عند أطراف حلة جلابي ود عربي.

قال يحكي عن تلك السنوات:

"لم أفد إلى جلابي ودعربي وأضع عليها رحالي، في سياق التغيير لمكان كرهته.. لم يكن الغرض تجديد المكان وحياتي المرهقة. فجلابي ود عربي البائسة، لم تكن مكانا، أمثل لتجديد الحياة والعلاقات، لكنها كانت مكانا مناسبا لي للاختباء، من عيون الأمن الإيجابي والاستخبارات. وزوار الفجر وكل أجهزة الجنكويز المتربصة، لذلك تخلصت من شخصيتي الحقيقية شخصية كمرد لاكو لادو وانتحلت شخصية أخرى هي شخصية رياك.. الشاب العشريني النكرة، بوجهه النحيل و ثيابه المتسخة الرّثة، ووجهه الذي يبدو عليه الخمول.

رياك الذي لا يشعر بوجوده أو غيابه أحد، ولا يخلّف عبوره أمام الناس أي أثر! لا يشعرون به، ولا يذكرونه إلا لماما!

واخترت لنفسي مكانا قصيا في الأطراف النائية من جلابي ود عربي. بعيدا عن بيوتها المتلاصقة، كأنها تخشى جرافات المجلس البلدي. التي تهددها بالزوال في أي لحظة.

في هذا المكان شيدت بيتي الفقير. من القش والقنا والحطب وزربته بالشوك.. شيدت قطيتي "ضهر التور" وجعلت لها بابا متينا. فمن هذه "القطية" كنت أنطلق في تحركاتي السرّية.

تقمصت شخصية رياك لوقت طويل دون أن يتمكن أحد من

اكتشاف هويتي، أو ينتبه إلى أنني لا زلت موجودا بقطيتي أم غادرتها إلى مكان ما. حتى عندما كنت أغيب لأيام وأسابيع، لم يكن أحد يشعر بغيابي، إلى أن حلَّ حسّان جداد بالحلة، وبدأت سلطته تتنامى على نحو غريب!

فمنذ اللحظة الأولى، شعرت إن كان هناك ثمة خطر يتهددني، فسيكون من جهة هذا الرجل الملتحي. كان جداد يتعمد التقرب مني بإلحاح مزعج! ويحرص على إلقاء السلام عليّ وايقافي لتجاذب أطراف الحديث، كلما رآني.

وكنت أسمع صوته أحيانا يناديني من خارج قطيتي، التي أحرص على إغلاقها عليّ. ولا أرد عليه فييأس ويرحل معتقدا أنني غير موجود! أو معتقدا أنني موجود ولا أرغب في السماح له بالدخول!

ربما كان الرجل، يرغب في توليف قلبي على دينه.. وربما كان له هدف آخر. وفي كل الأحوال كنت حذرا تجاهه!

لم يكن يسكن بجواري أحد. إلى أن فوجئت ذات يوم بأدروب، ينقل قطيته من الطرف الآخر لجلابي ود عربي الى جواري.

ولمعرفتي المسبقة بكل شبكة العلاقات داخل جلابي، أدركت أن خلف هذا الأمر ما خلفه، فأدروب من القلائل المقربين إلى جداد.

وهكذا تصورت أن جداد دفعه إلى تغيير مكان سكنه لمراقبتي عن كثب، وإلا لما ترك أدروب كل الفضاءات الواسعة في جلابي، ليزاحمني بالجوار. لم يزعجني الأمر كثيرا، فقد علمتني تجربة الصراع المسلح، أن العدو الذي أمام عينيك وتعرفه، خير لك من عدو مجهول لا تعرفه!

فكرت كثيرا في التخطيط لأمر ضد حسان جداد، يشعل غرابة أطوار هذه الحلة، إلى أقصى مدياتها! وكنت قادرا على ذلك. فقد كنت أعرف عنه الكثير. ابتداء من طرد والده له من البيت، بسبب

نزوعه الجنسي المثلي، ما دفعه إلى مغادرة المدينة الريفية، حيث انقطعت أخباره وصارت، مجهولة تماما.

"مكتب معلوماتنا أفاد أنه في الفترة التي اختفى فيها كان قد انضم إلى حركة مسلحة في دار الريح"

قال رياك. ثم أضاف:

إلى أن عاد مرة أخرى للظهور بعد سنوات طويلة، على نحو مفاجيء، في حلّة جلابي ود عربي.

أزمته مع أسرته، التي لم يعد إليها إلا بعد وفاة والده مخلفا وراءه أسرة مفككة مكوّنة من ست بنات، فالولد الوحيد حسّان كان بصلة معفنّة! على الرغم من إستئصالها.. ما تركته وراءها من أثر قضى على بقية البصل! الأمر الذي حاولت إزاءه شقيقته سلمى أن تنجو بنفسها، فأغتربت.

علمت كل ذلك من مكتب معلوماتنا، الذي أضاف أن حسان جداد، كان أحد العناصر الثانوية في تلك الحركة المتمردة، إلا أنه مع ذلك أسهم في تدميرها بالتآمر لصالح نظام ابو لكيلك الجنكويزي!

كنت أفلت من مراقبته بسهولة، وكثيرا ما فكرت في مجابهته، لكنني تراجعت لإدراكي، أن المواجهة ستتطور، وقد تصل إلى حد تصعب السيطرة عليه، فيؤدي إلى الكشف عن حقيقة هوّيتي، خاصة أنني كنت مشغولا بأمور أكثر أهمية، تتعلق بالانقسامات العسكرية والمدنية في "الصعيد" للدرجة التي أصبح فيها طلابنا في الجامعات متنازعين الولاء، ما جعل نشاطهم وفعاليتهم تتضاءل.

كنت مشغولا بهذه الانقسامات التي سببتها اختراقات حكومة الجنكويز ونزعات البعض المدفوعة بضيق الأفق و الرغبة في الزعامة، والتي ترتب عليها أن نجحت حكومة الجمهورية الأولى في التوقيع على

اتفاقات مع عدد من الفصائل، بمعزل عن الحركة الأم وجيشها.

أطلقت عليها اتفاقات "سلام من الداخل" وكوّنت من هؤلاء وأولئك المنقسمين الذين وقعوا معها على اتفاق مجلسا تنسيقيا. ورمت إليهم بعض فتات السلطة التي ما لبثت أن انتزعتها من أفواههم الجائعة!

كان دورنا الذي كلفنا به شاقا ومعقدا، فقد كنا نرغب في إعادة هؤلاء إلى صفوفنا وتوحيد جهودنا، وفي ذات الوقت كنا نخشى أن يكرروا فعلتهم! على نحو ما إذا نجحنا وأعدناهم إلى الصفوف مرة أخرى.

كنت مهموما بالإجابة عن سؤال كيف أسهم في "لملمة" ما تبقى من أطرافنا دون التسبب في أضرار!

في هذا التوقيت بالذات، أعلن حسان جداد حملته الانتقامية المقدسة ضدي، فقد تسرّبت إليه معلومات خاطئة، لا أدري من أين جاء بها.. ربما تكون من بنات تجلياته النادرة!

مفاد ما جادت به بنات أفكاره أنني بصدد التمهيد لجماعات التبشير المسيحي، حتى يتمكنوا من "تنصير" أهالي جلابي ود عربي الفقراء، باستغلال حاجتهم! وهو أمر بدى لي غريبا!

وفي واقع الأمر لم أكن يوما من المهتمين بشئون العقائد والديانات، فلطالما اعتقدت أن الدين شأن خاص بالفرد، وأن الوطن للجميع، بمختلف عقائدهم!

كان بإمكاني القيام بهجمة مرتدة، وفضح التاريخ السري لجداد، والذي بعضه موثق بالمكاتبات والصّور!

والتي استوقفني فيها، ما بدى واضحا من ارتباط لجداد بجماعات دينية وطائفية مختلفة ومتناقضة، وإذا تم ترتيب هذه المعلومات في

السياق الصحيح، نستطيع أن نستنتج أن جداد عنصر اختراق في القوى الدينية المختلفة، التي عبر تاريخها، لا اتفاق بينها حول (معنى) الإسلام!

وأيضا كانت هناك لجداد صور في أوضاع حرجة! تكشف عن الجوهر الأخلاقي للمشروع "الحضاري" الذي طرحه العرافين الذين يتبعهم!

بالطبع لم أستخدم أي معلومة مما اعرف ضد جداد. لقناعتي أن السلوك الشخصي، يجب ألا يكون أداة للصراع السياسي، ومن جهة أخرى كنت أعتقد أن هذه إنما معركة جانبية، تأخذ ممن يخوضها أكثر مما تعطيه له!

كما تصورت وقتها أن أي معلومة من هذه المعلومات، قد تقود إلى مصدرها الأساسي- أنا! وآخر ما كنت أفكر فيه هو معركة تكشفني! فذاك ما لم أكن بحاجة اليه على الاطلاق.

III

تـلاشى صـوت ريـاك في الفـراغ، وأنـا أسـترد ذاكـرتي لأعبر بهـا إلى حيث لا أدري، فقـد تداخلـت الحقائـق مـع الأوهـام والأحـلام والانتقـالات المتكـررة مـن مـكان إلى آخـر بمجـرد أن أسـلم نفـسي لسـلطان النّـوم، فبـت لا أعـرف بالضبـط هـؤلاء الذيـن يقفـزون الى ذاكـرتي يلهـون فيهـا ويمارسـون حياتهم، و يدلـون باعترافاتهـم ويحكـون عـن جرائرهـم الصغـيرة وجرائمهـم الكبيرة.

هكـذا دون أن يطرقـوا بـاب الذاكـرة أو يسـتأذنوا.. يقفـز كرتـون. تقفـز الـسرة. واقـف أنـا بينهـما أحـدق في هـذا السـقط مـن الأفـكار المتراكمـة عـلى عتبـات الذاكـرة. وهـي تتشـكل لحـما ودمـا.. يـصرخ ويبـكي ويضحـك ويـأسى ويرتـاع..

وبين بين أحاول تفهم هذه الخواطر الجياشة، فأسأل كرتون:

"مـا الـذي رمـى بـك إلى جـلابي ود عـربي؟!" فيحـدق في قلـب عينـي.. يقلـب بـصره داخـل الجفـن فأشـعر بحرقـان في المقـل.. ألمسـها.. أنتـزع رموشـا دخلـت خفيـة.. أبعـد الرمـوش المتسـاقطة، وأمسـح العـين المحمرّة.. فيتنهـد كرتـون ثـم يـأتي صوتـه عميقـا كالليـل البهيـم:

"ربمـا تندهـش إذا أخبرتـك أننـي فعـلا لم تربطنـي بالـسرّة علاقـة كالتـي تصّورهـا البعـض، حتـى والدك!

واقـع الأمـر كنـت كعابـر سـبيل، أو ضيـف.. موجـود ولسـت موجـود.. بمعنـى لسـت جـزء مـن حياتهـا الخاصـة كـما أشـيع..

ربمـا لا تصـدق أن كفـي لم تلامـس كفهـا سـوى مـرات معـدودات، وحتـى في هـذه المـرات لم تكـن ثمـة رغبـة أو شـعور بخصوصيـة الملامسـة أو حميميتهـا.

كانـت مـرات خاليـة إلا مـن الأحاسـيس العامـة، التـي يصافـح بهـا أي شـخص، شـخص آخـر يعرفـه معرفـة عامـة و يلتقيـه في مـكان عـام".

"كل مـا بينـي وبـين الـسرة يـا عـلي كان عاديـا تمامـا وعامـا. بـدأ لحظـة جئتهـا ذات ظهـيرة حارقـة، وسـألتها السـكنى معهـا. فنظـرت اليّ مليـا، وهـزّت رأسـها دون تـردد.. هكـذا تـمّ الأمـر.

وافقـت في صمـت فنشـأ كل مـا بيننـا في الصمـت! وافقـت دون قيـد أو شرط. كـما أننـي كنـت سأسـحب سـؤالي لهـا إذا اشـترطت عـلى أي نـوع مـن الـشروط، أو أبـدت رغبـة مـا عـلى سـبيل الضغـط عـليّ.

ربمـا لا تصـدق أن مـا أقولـه لـك الآن هـو بالضبـط مـا كان بيننـا، لكـن يجـب أن تصـدق! لأن تلـك هـي الحقيقـة الوحيـدة في الحيـاة الزائفـة للـسرة بنـت عرجـون! التـي حتـى يـوم غـادرت جـلابي ود عـربي، لم أرى غرفـة نومهـا ولم تنتابنـي أي مـن الرغبـات الحميمـة تجاههـا!

مثـل الآخريـن كان بإمـكاني بنـاء بيـت لي في أي مـن الفضاءات الواسـعة لجـلابي.. أسـكن فيـه وحـدي دون قلـق ابنيهـا خميـس وثريـا. دون الرغبات المدفونـة والمعلنـة للـسرة بنـت عرجـون.. دون أن أضطـر لرؤيتهـا أو رؤيـة ابنتهـا في أي مـن المواقـف المحرجـة العديـدة التـي رأيتهـما عليهـا، مـع آخريـن مـن رواد بيتهـا.

كان بإمـكاني أن أمـضي للسـكنّى وحـدي. لكننـي لم أفعـل. فقـد خشـيت الوحـدة طيلـة حيـاتي. تلـك هـي مشـكلتي التـي جعلتنـي أهجـر بيتنـا الكبـير في المدينـة الريفيـة، وأهجـر أشـقائي وشـقيقاتي"

قلت متهكما:

"ما هذا التناقض، تقول الوحدة؟!"

"مـا الـذي تعرفـه عـن الوحـدة ؟! ربما لا تـزال صغيرا على هذا الشـعور"

قلت ساخرا:

"لقد قرأت كثيرا من الكتب.. ولدي نظرية قد تبدو غريبة، إذ أزعم أن للإحساس بالوحدة دور في تأسيس التنظيمات وحدوث الانقلابات وقيام الثورات!

أن تضع نفسك في قلب الحدث، لتهزم الوحدة ينبغي أن تجد لنفسك دورا وسط الناس ذاك هو التناقض"

وابتسم كرتون ابتسامة مائية دون طعم أو لون أو رائحة:

"ربما فسرت ما قرأته من كتب خطأ.. الوحدة أمر مختلف.. أنها قاتلة.. تعوق التطور الإنساني للبشر.. تعوقهم من فعل أي شيء! كيف تستطيع أن تخرج الحياة من العزلة؟ مستحيل!"

ربما كانت الطريقة التي يرى فيها كرتون الأمور صحيحة. لكن وجهة نظري أيضاً قد لا تكون خطأ. ففكرة الخلق والكون خرجت من الفراغ، العدم.. مجرد إنفجار الضوء.. نتيجة الإحساس بالعزلة والوحدة.. هذه الأقانيم التي تدفع إلى التأمل فالتجلي كمادة!

قطع كرتون همس خواطري، فنظرت إليه في تردد، كأن صوته ليس صوته:

"الشعور بالوحدة قاس ومعذب، كنقحان الصديد في الجرح القديم، قد تصل إلى درجة استعذاب أكلانه، وتلك هي النهاية لحياتك كإنسان يحب الناس والحياة ويرغب في أن يحبه هؤلاء الناس وهذه الحياة. فكل ما يريده هو أن يكون جزء منهما. وينال التقدير والاحترام.

ربما تفكر أن وجود الإنسان بين أشقائه لا يستقيم وشعوره بالوحدة، وهو أمر غير صحيح. فقد كنت موجودا بينهم ومع ذلك ظللت أشعر بوحدة قاسية.

كنت أراهم ينهضون في الصباح. يعد كل واحد منهم الشاي لنفسه.. يشربه أثناء استعداده للمغادرة إلى العمل.

نادرا ما يجتمعون حول مائدة واحدة. فكل من يشعر بالجوع يمضي لإعداد الطعام لنفسه. وفي الأوقات النادرة التي يجتمعون فيها يركزون الحديث على مثالب بعضهم البعض. يضخمون هذه المثالب، فيتحول الأمر كالعادة إلى معركة كلامية، ربما تفلت أحيانا لتدخل فيها الأيدي..

تفرغ الأخوات عذابات أنوثتهن المؤرشفة في متحف العنوسة! ويفرغ الاخوان أحباطاتهم وفشلهم في إقامة حياة أسرية تخصهم. بصوت متوحد كانوا يكرهون بعضهم، يتبادلون هذه الكراهية. يحملون فشلهم لبعضهم البعض..

هل كانت حياتي مع السرة على علاتها هكذا، وجدت في السرة التسامح الذي افتقدته، فسامحتها بقدر ما سامحتني.. هي الغريبة عني.. بينما فشل أخوتي في التسامح مع بعضهم..

فمن أختار؟!

لقد أخترت.. ربما.. في نهاية كل شهر يأخذ كل منا نصيبه الشهري من الإرث الجاري: (إيجارات عقارات).. هذه هي الحياة التي كنت أعيشها لسنوات عديدة. حاولت أن أجد أسرة في العمل.. شغلت نفسي بالعمل. جرّبت كل المهن الحرفية، حتى أصبحت خبيرا في الحدادة والسمكرّة، والتبريد والتكييف والميكانيكا والبوهية، وكل ما يتصل بالعربات.

لكنني لم أجد نفسي في أي شيء من كل هذا! إلى أن وجدت السرة ووجدت فيها ما ظللت أفتقده، منذ أول يوم دخلت فيه بيتها، وقابلتني بدفء وترحيب آسرين.

شـعرت باهتمامهـا بي.. بمحبتهـا وقدرتهـا عـلى الغفـران، ورغبتهـا هـي نفسـها في الغفـران! إذ كثـيرا مـا كانـت تـأتي لتبـكي عـلى صـدري إثـر كل خطيئـة.. فكانـت رغبتـي تـزداد في أن أمـضي مـا تبقـى مـن حيـاتي في هـذا الصفـح.. هـذا الـدفء: الـسرة..”..

IV

خلعت تركيزي من صوت كرتون لأزرع ذاكرتي في ذاكرته، فأرى السرة بنت عرجون الأربعينية الجميلة، التي لم تفلح متاعب السنوات والإنجاب في هدم قامتها الممشوقة.

تتماهى ذاكرتي في ذاكرة كرتون. أسأل عنه السرة، فتحدثني عن متاهته وطيبة قلبه، والحنان الذي يملأ جوانحه ويفيض يغطي كل فضاءات جلابي، التي تصبح لحظتها بلدة وديعة حاضرة هنا.. غائبة هناك.. بين الضلالة والهدى..

يغطيها كرتون بقلبه الوارف المخضر.. يغطي شوارعها العطنة وأزقتها الضيقة وكلابها التي أخذت من طبع أهاليها الكثير.

كلابها التي لا تهدأ أو "تنهد".. وناسها "العُزّاز" في نظر أنفسهم.. وحيواتها السرّية التي تنهض في العلن. ومغامراتها مع عربات "الكشّة" ورجال المباحث ومجرمي المدن النائية، الذين ما أن يحلون بجلابي، حتى يشعر الجميع باقتراب كارثة. تخبرني السرة:

"كرتون ذهب إلى السوق الكبير. ليحضر لي بعض أغراض الشغل.. لا أدري من دونه كيف كنت سأعمل أو أعيش"

"لا أحد تتوقف حياته على الآخرين. ستعيشين كما كنت تعيشين دوما"

كنت واثقا أنها من دونه كانت حياتها ستستمر. لن تنتهي بها السبل لمجرد كونه ليس موجودا وليس جزء من حياتها.

حدثتني عن مساعداته لها ووقوفه إلى جانبها في سرائها وضرائها. وخاصة عندما تتعرض لكشة أو تسجن لأيام..

الغريب في كرتون: كأنه يمتلك قرون استشعار، فدائما تحدث مداهمة النظام العام لبيت السّرة في غيابه! لم يحدث أن تم القبض عليه أو سجن! وكان هذا الأمر بالنسبة لأهالي جلابي بمثابة الكرامة من كرامات كرتون.

تتنهد السرة:

"إنه أكثر من والد لخميس وثريا"

كانت السرة في قرارة نفسها تحب كرتون، مثلما كان يحبها في قرارة نفسه، ذلك النّوع الغريب من الحب نادر الوجود.. فالأمر ليس مجرد دفء أوكرم فياض، وقدرة مدهشة على العطف والحنان، كما كانا يعتقدان بسبب تهيب السرة الدائم منه هذا التهيب الذي جعلها لا تجرؤ على مصارحته، وجعله لا يستطيع التصريح بهذا الحب!

السرة على عكس كرتون، كانت لديها قدرة فذة على إدراك طبيعة مشاعرها تجاهه، منذ أول يوم دخل بيتها، لكنها أدركت لسبب ما، أنها لا تستطيع الحصول عليه!

حبها له هو ما دفعها لرفض عرض حسان جداد، كما كان يطيب لها أن تزعم لأم التيمان وست البنات، لكن في أعماقها كانت تخشى من الزواج من جداد على ابنتها ثريا، فلطالما لاحظت أن نظراته، كانت تأكل جسدها أكلا كلما رآها تعبر أمامه!

ومع أنها كانت لا تمانع إقامة ثريا لعلاقات؛ إلا أنها ما كانت لترتاح لهذه العلاقة بالتحديد. ولذلك عندما يخطر على ذهنها هذا الخاطر، تذعر في دخيلتها وتهمس:

"سجم خشمي. البنت وأمها؟!"

كرتون نفسه ربما لأسباب إضافية خفية ذات صلة بالوضع

الاجتماعي لأسرته، وعناصر نشأته البعيدة.. ربما.. كان يدرك مثلما أدركت السرة، أنهما أصبحا بالنسبة لبعضهما كحبيبين أو زوجين كالأمنيات التي ربما لا تتحقق حتى في الحياة الآخرة.

كما أن السرة بحكم تجاربها السابقة استطاعت التكيف مع هذا الوضع. فهي ليست بكرا، ككرتون الذي لم يحدث أن أقام علاقة مع امرأة قط في أي مرحلة من مراحل حياته البائسة!..

والسرة في واقع الأمر لم تحط رحالها في جلابي لأنها هاربة من أمر ما. فكل ما في الأمر أنها مرت بحياة قاسية وتجارب صعبة.

إذ نهضت حياتها في اليتم بمرارته، وأحزانه وأساه بعد أن فقدت والديها في سن مبكرة، فاضطرت للعمل كخادمة في البيوت. حيث تخدم وتأوي، وأحيانا تجد نفسها مشردّة، لا تعرف إلى أين تأوي. وما أن بلغت سن المراهقة حتى مضت إلى المدينة المجاورة، وانتقلت من ممارسة الجنس مع مخدميها إلى ممارسته على نحو احترافي.

فعرفت تلك البيوت الواطئة في أطراف المدن، ومضت تعمل بلا هوادة، إلى أن أصابها داء الترحال فأخذت لا تقوى على المكوث في مكان واحد لوقت طويل.

المكان الوحيد الذي استقرت فيه لفترة طويلة هو جلابي. حيث أنجبت ابنها خميس وإبنتها ثريا، ففارقتها ثريا مبكرا بسبب الإصابة بالسل.

كانت علاقة السرة بست البنات العشمانة من العلاقات المميزة والغريبة في آن، فالرباط العميق الذي جمع بينهما، يسم العلاقة بالتميز.

لكن الشائعات التي انطلقت لتوصيف هذا الرباط، كانت تبعث على الارتياب والدهشة. فقد عرف عن ست البنات العشمانة دونا

عـن كل نسـاء جـلابي، ومنـذ وقـت مبكـر أنهـا سـحاقية، حتـى أن بعـض الخبثـاء كانـوا يصيحـون خلفهـا، عندمـا يرونهـا في الشـارع:

"الضكريّـة.. الضكريّـة..".. فكانـت تلتفـت إليهـم وهـي تطلـق سـيلا مـن الشـتائم والسـباب المقـذع.

وإلى أن غـادرت السـرّة دنيـا سـت البنـات، الى آخرتهـا الغامضة، تسـبقها ابنتهـا ثريـا بقليـل. لم يعـرف أحـد سر علاقتهـما المميـزة أبدا.

في ذلـك اليـوم الـذي فاجـأت فيـه أبي مـع السـرة، أدركـت تمامـا حقيقـة مـا أكـده حسـن. فقـد كنـت حقـا كالأعمـى. الجميـع يعرفـون علاقـة أبي بالسـرة، إلا أنـا. فقـد كنـت وقتهـا مأخـوذا برصـد وترصـد علاقـة كرتـون بهـا.

في ذلك اليوم أصبت بما يشبه الصدمة، التي لا أدري:

"لماذا؟!"

"فقد كنت شخصيا أحب ابنتها؛ أو هكذا صورت لي مراهقتي؟!"

هـذا مـا كان يشـكل محـوراً للنـزاع في داخـلي لوقـت طويـل.. في محاولة لإيجـاد تفسـير لمـا شـعرت بـه مـن صدمـة لحظتهـا.. عندمـا قصـدت منـزل أم التيـمان بعـد رؤيتـي لثريـا تخـرج مـن بيـت أدروب.

شعرت بشعور مماثل لذات ذلك الشعور بالصدمة!

وجـدت عنـد أم التيـمان مزيـد الحلبـي (الحـداد) نظـر اليّ وكأنـه يهـم بقـول شيء، لكـن نظـرات أم التيـمان الحاسـمة اسـكتته!

ومنـذ أول لحظـة نشـأت بينـي وأم التيـمان علاقـة ناعمـة، ليـس لهـا إسـم واضـح أو محـدد.

علاقـة لطيفـة تختلـف عـن تلـك العلاقـة التـي نشـأت بعـد ذلـك بينـي وسـت البنـات.. تلـك العلاقـة المباغتـة الملتهبـة، الغارقـة في الدمـوع

والشجن، الذي جعلني أتعرف على عوالم لم تخطر لي على بالي من قبل، واستدعت اليّ عوالم من الزمن القادم في حياتي، فظللت مدينا لها بالتأمل والتفكير لوقت طويل.

كانت ست البنات العشمانة أجمل من رأيت من نساء، وأكثرهن مودّة وحميمية وعذوبة ودفء، فقد كنت صفر التجارب، وللتو بدأت الخطو من لحظة الصفر. ولم تخيب ظني في التعرف على هذا العالم الموسوّس، المجنون. فشملتني برعاية خاصة.

عندما أدركت ما كان ينقصني من معرفة من ست البنات، أخرجت لساني لكل كتب التاريخ التي قرأتها، وبعد أول تجربة في الليلة ذاتها، مضيت أجمع كل كتب التاريخ والمذكرات من أنحاء بيتنا المختلفة!

كوّمتها أمام الباب الخارجي.. أمام الباب تحديداً.. ينبغي ألا يدخل التاريخ بيتنا! أشعلت فيها النار! وانتظرتها إلى أن تحولت إلى رماد، فبُلت عليها بولا غزيراً.. وشعرت بأن عبئا كبيراً كان يثقل على كاهلي قد انزاح!.. فشعرت بغبطة وحبور لا يحلان إلا على رجل سعيد.

صارت ست البنات العشمانة محور عالمي، أفكر فيها في كل لحظة.. أفكر فيها وأنا أذاكر.. أو انجز الواجب المدرسي، معالجا الأمور الكريهة إلى نفسي مثل النحو والصرف والرياضيات والكيمياء والفيزياء، إلى آخر هذه الأشياء العجيبة. كانت أم التيمان تجيئني على أهداب هاء السكت، متكئة على كسر همزة إن، فتتكسر كل الأساطير التي تعيد بناء نفسها داخلي قبل كل مبتدأ جملة مفيدة بطلتها نون النسوة!

تخرج اليّ باستداراتها من نظرية الدائرة، فلا أرى نفسي إلا خطا مستقيما يسقط على نقطة الأصل.. من نظرية لامي تجيء.. من الكوانتم.. كيمياء الحلول..

تنعش كل عناصر الكوّن الخاملة داخلي، فاحلق معها فوق قوانين الجاذبية.. فوق طبيعة البشر.. فوق كل شيء: ككوّن قائم بذاته بقوانينه الخاصة، التي لم يتوصل إليها العلماء و لن يتوصلوا أبدا..

أم التيمان.. أم التيمان.. هذه امرأة التعرف إليها يُمِّلك معرفة واسعة بالشأن الأزلي لقصة الكون: علاقة الذكر بالأنثى..

الأمر الذي يهجس كل العلوم، دون أن تنفك هواجسها إثر كل اكتشاف لسر جديد من أسراره، التي للمفارقة معلنة، تضرب بجذورها في قلب التاريخ والطبيعة.

علمتني أم التيمان أن الاستمتاع بالحياة، يعتمد على قدرتنا على انتهاك القوانين.. إلى أي مدى نستطيع فعل ذلك دون أن نشعر بالخوّف؟! فقد كانت امرأة من طراز خاص: امرأة لا تخاف. تعتقد أن المصابين بأمراض نفسية وأخلاقية مستعصية، هم وحدهم الذين يشعرّون بالخوف..

"آه يا علي ربما بسبب شجاعتي أعاني ندرة الأحلام!"

وحدهم الذين لا يجرؤون على انتهاك القوانين، عكس الذين يدركون جوهر الحياة ينفذون رغباتهم دون أن يترددوا محاصرين في حُلم الرغبة في تحقيق هذه الأحلام..

ووفقا لأفكارها عن الحياة، كنت مصنفا تلقائيا، ضمن المصابين بأمراض نفسية وأخلاقية مستعصية.. إذ لم أكن ميالا لانتهاك القوانين، كما أنني دائم الخوف من أن يتم اكتشاف علاقتي بها، بأن يتسرب الأمر إلى أبي أو أي من أفراد اسرتي، ولا أظنني في ذلك الوقت خرقت قانونا، سوى بعلاقتي معها، حسبما أذكر في هذه اللحظة فقط.

طريقة تفكير ست البنات العشمانة كانت تعجبني، وربما أسهمت هذه الطريقة في تعلقي بها لوقت طويل. كنت أغضب إذا تحدث

عنهـا أحـد بصـورة غـير لائقـة، لكـن لا أجـرؤ عـلى التعبـير عـن هـذا الغضـب. وأكـثر مـا كان يغضبنـي إصرار البعـض عـلى كونهـا سـحاقية، فأنـا أعرفهـا أكـثر مـن أي شـخص آخـر، مـع أننـي لا أسـتطيع الجـزم، نظـرا لغرابـة أطوارهـا وتقلبـات أحوالهـا.

V

أهـالي جـلابي ود عـربي رغـم حياتهـم المديـدة في هـذه البلـدة. ثمـة أمـور ليسـت لديهـم معرفـة كافيـة بهـا فمثـلا: كنـت أعـرف أن سـلمى خـير اللّـه هـي الشـقيقة الصغـرى لحسـان جـداد وليسـت مجـرد قريبتـه التـي تسـكن المدينـة الريفيـة، لكـن لا أحـد يعـرف هـذه المعلومـة سـواي.

إذ سربتهـا لي في لحظـة ضعـف أنثـوي سـلمى ذاتهـا بشـحمها ولحمهـا، ربمـا بقصـد إيذائهـا لشـقيقها جـداد، لكنهـا حرصـت مـع ذلـك أن يبقـى الأمـر خاصـاً، كـسر بيننـا فـلا يعرفـه أحـد غـيري.

كان ذلـك وأنـا في طريقـي الى الـدكان قادمـا مـن البيـت، عندمـا رأيتهـا تقـف في قلـب الشـارع المفـضي إلى الـدكان مـع جـداد. كانـا يتشـاجران. ومـا أن اقتربـت منهـما حتـى ران عليهـما صمـت أحرجنـي وأربكنـي، ثـم مـضى جـداد لا يلـوي عـلى شيء.

اقتربـت منـي ومضينـا معـا باتجـاه دكان أبي. لم أسـألها. كانـت تبـكي وتتحـدث مـن خـلال نشـيجها:

"لا تخبر أحد بما رأيت"

"أؤكـد لـك أننـي لـن أخـبر أحـدا؛ ثـم أننـي لم أر شـيئا!. لم أرى أو أسـمع شيئا.."..

هيمنت بدموعها على وجهي:

"إنه أخي.. شقيقي"

"من؟!"

"حسان خير الله. لا أريد فضحه أو أذيته"

"حسان جداد؟!!.. إذن لماذا تحضرين إلى هنا؟!"

فصمتت ولم ألح عليها. كنا قد وصلنا إلى أعتاب الدكان.

VI

نشأت متوحدا في العزلة والوحدة، اللتان لا تزالان تطبعان حياتي بطابعهما الموحش، لكن هذا الأمر ظل يريحني من مشاكل الاحتكاك بالناس.

فالناس عندما يتصلون ببعضهم البعض، تنشأ بينهم المشاكل بسبب المشاعر الدنيا كالغيرة والحسد، أو لسوء الفهم الذي يتم تصعيده سجالا فيتحول من الاختلاف إلى الخلاف (قطيعة) أو بسبب الالتزامات المتبادلة التي تنهض فيها مشاعر متضاربة ربما تفضي للاحساس بالخذلان، فالكراهية فالتآمر.

هذه العزلة تجنبني التعرض لكل ذلك مما لا أحب. لذلك كنت كلما حطمت طوق عزلتي وخرجت اتصل واتواصل بهؤلاء الناس، أعود مرة أخرى لأضرب السياج حول نفسي!

لحظات الاتصال بالناس في حياتي لهي لحظات قليلة، لكنها مكتظة بالاستهداف والحصار. اللحظة الأولى: هي تلك اللحظة التي كنت أساعد فيها والدي في الدكان وهو ينتقل به في أرجاء المدينة المختلفة، فأول مرة قام بتأجير محل لتجارته، كان ذلك في الحي الشرقي، قريبا من شاطئ النيل الذي تنكفئ عنده المدينة الريفية، كشخص يتهيأ للاستفراغ.

تدهور هذا المحل بسبب علاقته المريبة بمالكة العقار، فقد كانت زوجة سائق عربة حكومية محدود الدخل، تعمل في بيع الكسرة واللقيمات، وتؤجر جزء من عقارها كمحل تجاري.

في الحقيقة كانت امرأة جميلة وفاتنة، ربما خاطبت فيه أشواق

مقموعـة، حفزتـه عـلى الدخـول في رأس مـال تجارتـه.

ودرءا للفتنـة والحـرب التـي أشـتعلت في بيتنـا، اسـتجاب أبي لرغبـة اخـوالي وسـلم صاحبـة العقـار محلهـا، وارتحـل بمـا تبقـى مـن بضاعتـه إلى الحـي الشـمالي، عـلى مقربـة مـن بيتنـا.

وهنـاك حـاول أن يلتقـط أنفاسـه ويسـترد مـا خـسره مـع الأربعينيـة الجميلـة، عندهـا بـدت جـلابي كأفـق اسـتثماري واعـد، أخـذ بعـض تجـار المدينـة الريفيـة يتحدثـون عنـه بحـماس، فذهـب أبي وتفقدهـا ثـم اختـار مكانـا، أصبـح فيـما بعـد بمثابـة القلـب، شـيد عليـه دكان مـن الطـين اللـبّن، ألحـق بـه قطيـة مـن القـش والحطـب و"الشراقـن"، لم تكـن نبـؤات تجـار المدينـة الريفيـة قـد جانبـت الصـواب، فقـد أثبتـت جـلابي بمـرور الوقـت أن وعـود خيالهـا الاسـتثماري لا تضاهيهـا وعـود.

ازدهـرت تجـارة جـلابي إذن، وتبدلـت معهـا أحـوال كثـيرون، نهائيـا والى غـير رجعـة. هـذا الازدهـار أشـعل في نفـس أبي الرغبـات القديمـة المدفونـة، وأعادهـا إلى السـطح مـرة أخـرى، فأقـام علاقتـه التـي طبقـت شـهرتها الآفـاق!

تلـك العلاقـة الحميمـة مـع الـسرة.. ذاك هـو الوقـت الـذي كنـت فيـه قـد يئسـت مـن علاقـة الكـر والفـر بينـي وبـين ابنتهـا ثريـا، ولأننـي كنـت عـلى شـفا الدخـول إلى الجامعـة أصبحـت غـير ميـال، للحلـول محـل أبي في الـدكان أثنـاء غيابـه، إلى أن انقطعـت صلتـي بجـلابي تمامـا!

مـا عـدت اذهـب الى الـدكان إلا للـضرورة القصـوى، لكـن مـا أطلقتـه ام التيـمان مـن مـارد في عروقـي دفعنـي، لارتيـاد بيـت سـلمى خـير اللّـه، الـذي لم يكـن يبعـد عـن منزلنـا كثـيرا.

كانـت سـلمى خـير اللـه قـد انفصلـت عـن السـكنى مـع شـقيقاتها، وسـكنت لوحدهـا منـذ جـاءت مـن غربتهـا في الخليـج و اسـتقرت نهائيـا.

هـي التـي دعتنـي بـود لزيارتهـا، عندمـا التقينـا صدفـة في محطـة المواصلات. كانـت ودودة معـي، فتصـورت في البـدء أنهـا تكـن لي مشـاعرا حميميـة خاصـة! كتلـك المشـاعر التـي كانـت بينـي وأم التيـمان.

لكـن بمـرور الوقـت اتضـح لي أنـه لم يخطـر عـلى بالهـا أبـدا مثـل هـذا الأمـر. فقـد كانـت عـلى عكـس مـا يبـدو عليهـا: عفيفـة وكثـيراً مـا أتصورها عندمـا تخطـر عـلى بـالي كعـذراء شـقية، أو ذلـك النـوع مـن الحوريـات اللـواتي يخطفـن الشـباب مـن "قيـف" البحـر، عندمـا يقعـن في غرامهـم.

لكـن سرعـان مـا يعـدن هـؤلاء الشـباب إلى حافـة اليقظـة مـرة أخـرى! لينزلقـوا بهـدؤ الى حيـث بؤسـهم العريـق. بعـد أن تكـون الحوريـة المزعومـة قـد تلاشـت في أعـماق النيـل.

هكـذا إذن لم أسـتطع التفكـير ولا مـرة واحـدة في سـلمى خـير اللـه دون أن تكـون مقرونـة بخاطـر أسـطوري غـير مكتمـل التخليق.

أبـرز مـا أسـتطيع الجـزم بـه الآن، أنهـا لم تكـن لديهـا فكـرة واضحـة عـما تريـد أو ترغـب بـه!

كنـت أزورهـا في بيتهـا في الأمسـيات، واتسـامر معهـا سـاعة أو سـاعتين، ثـم أغـشى في طريـق عـودتي إلى بيتنـا صديقـي اللـدود حسـن، الـذي كنـت أحـرص عـلى ألا يعلـم شـيئا عـن علاقتـي بهـا، فقـد كنـت أتحفـظ معـه حـول كثـير مـن الأشـياء، التـي اعتبرهـا أسراراً مقدسـة.. لي وحدي فحسـب!

وكان هـذا الموقـف بسـبب مـا تـسرب اليّ، قبـل زمـن طويـل عـن عبـده الخـال، و حكايـا حسـن في المدينـة الريفيـة عـن ثريـا ومزاعمـه بأنـه خـاض معهـا كثـير مـن المغامـرات الجريئـة مـن وراء ظهـري!

ولأننـي كنـت أدرك جيـدا، أن حسـن نـوع غريـب مـن البـشر. يحـب تلفيـق المغامـرات، وإضفـاء منطـق مدهـش عـلى الأكاذيـب، التـي تشـكّل جـلّ حكاياتـه، حتـى في حكاياتـه عـن تجاربـه الحقيقيـة المتواضعـة.

يستلذ بسرد نوع من الأكاذيب المفضوحة، إذ لا يحكي سوى أنصاف وأرباع الحقائق، ويعمد إلى تضخيم الوقائع الأحداث وتصعيدها، على نحو فانتازي يصعب تصديقه لدرجة أن أطلقنا عليه لقب (الكائن العجيب المدهش!)..

فحسن خصب الخيال، جميعنا كان يتنبأ له بمستقبل خيالي مشرق، وكنت أُدرك انه يحاول أن يعوض نفسيا إحساسه بالانتماء لأسرة مدقعة الفقر، لطالما كرهها في قرارة نفسه!

فأخوته العشرة الذين يعتبر هو خاتمة العنقود بينهم، لم يكملوا تعليمهم و عطالى عن العمل! تفرق بعضهم داخل وخارج البلاد الكبيرة، دون أن يحالفهم الحظ!

كما أن والده يسكن مع أبنائه الآخرين من زوجة أخرى، في مدينة ريفية أخرى، متاخمة لجلابي.

وجدت أم حسن رغم تقدمها في السن، نفسها مضطرة للعمل في الحواشات، حتى تتمكن من أن تعول هذه الأفواه المشرعة!

بسبب كل ذلك كان حسن كذابا كبيراً. يحاول إشباع غروره الذكوري، كنوع من التعويض النفسي في جوانب حياته الأخرى.

حكى لي ذات مرة، أنه على علاقة حميمة بست ذكية الأرملة مديرة المدرسة التي كانت قد اشتهرت في أنحاء المدينة وضواحيها، بعلاقاتها المتعددة! بالطبع لم أصدقه، وأكد لي -وقتها- عبده الخال، أمين اسراره أن كل ما حكاه حسن، محض أكاذيب. فقد سمع الشائعات عن ست ذكية، التي كان قد تعرف عليها بواسطة عبده الخال نفسه، الذي كان (الخال) قد ربطته بها علاقة حميمة فيما مضى، وقرر حسن التقرب منها، من خلف ظهره، فحسمته وطردته شر طردة!.. فأخذ يحكي عنها هذه الأكاذيب!

ولذلـك خطـر لي أن حسـن لم يُقـم أي علاقـة مـع ثريا، لكنني لا أسـتبعد أنـه كان يلتقيهـا، ويحـكي لهـا عنـي مـا ينفرّهـا منـي، ويجعلهـا تمـارس تجاهـي ذلـك السـلوك العجيـب، الـذي لم أسـتطع فهمـه عـلى الإطـلاق!

VII

متداخلة هي شبكة الروايات الشفاهية، التي تعرفت خلالها، على الجوانب الخفيّة والسرية لنفسي وللاخرين، فيمن احتككت بهم لفترة طويلة من حياتي!..

مع ذلك لم أثق بكل هذه الروايات، وإن كنت كثيراً ما اعتمدها كعوامل مكملة لما أقف عليه من حقائق، غير قابلة للدّحض.

هذا هو منهجي الآن فيما أجريه من مراجعات، لوقائع وأحداث حياتي وامتزاجها في حياة جلابي ود عربي، وما يتصل بها..

هؤلاء الشخوص الذين كنت أرى فيهم. كل الشخوص الذين عبروا على مجتمعات البلاد الكبيرة، عبر تاريخ أسرها المظلم المديد، فصنعوا حقبها المختلفة، بأفراحها وأحزانها.. مراثيها وأمجادها، دون أن يتعرف عليهم أحد من المؤرخين أو يهتم بهم.

فالمؤرخين اهتموا فقط للأثر، الذي خلّفه الأفراد من أبناء جلابي، الذين تقلدوا مواقع السلطة الثقافية أو السياسية وأصبحوا مهمين، ولذلك ركزوا دوما على دراسة الفرد، وليس الجماعة في المكان المعين!

فالتاريخ بالنسبة لهم سجل لبطولات الأفراد العباقرة، الذين يحركون الأحداث بأطراف أصابعهم واصواتهم الجهورة العالية! وهكذا يهملون أو يتجاهلون دور البسطاء من جلابي، في صناعة الثورات وصياغة الأحداث.. هؤلاء المهمشين المعطونين في الفجيعة!

يتصورون أن إهمال دور الفرد في التاريخ، أو التقليل من شأنه يتعارض مع وقائع الأحداث، التي صنعها بالفعل القادة.

ولا أحد يختلف معهم في أن هذا التقليل والإهمال لدور الفرد

يخالـف الواقـع، ولكـن التركيـز المطلـق عـلى دوره يخالـف أيضـا واقعـا آخـر..

فالتركيـز عـلى دور فـرد مـا مثـل حسـان جـداد أو لاكـو لادو أو مجموعة مـن المجموعـات التـي سـكنت جـلابي، في مراحـل مختلفـة. منـذ أيـام كان اسـمها سـاورا المقدسـة، في التأثـير عـلى ظاهـرة تاريخيـة معينـة، ليـس هـو المنهـج الـذي يمكـن الاعتـماد عليـه، في رؤيـة ظواهـر التاريـخ التـي كشـفت عنهـا جـلابي!

فهـذا التركيـز بفضـل عـشرات العوامـل المعقـدة، التـي أثـرت عـلى الظاهـرة، وتحـصر المسـألة في جوانـب فرعيـة مهـما كان تأثيرهـا، فإنهـا لا تسـتطيع أن تؤثـر في الظاهـرة التاريخيـة، تأثـيرا ينقلهـا مـن النقيـض إلى النقيـض!

المؤرخـين الذيـن شـدتهم حكايـا جـلابي، سـلطوا الضـوء عـلى بعـض الأفـراد الطائفيـين، كـود الخزيـن ومحمـد أحمـد ود مسـتورة وود الباهـي أو أبـو لكيلـك الجنكويـزي نفسـه، ومجـدوا بذلـك ذاتيـة هـؤلاء الأفـراد غـير المهمـين!

ولذلـك عندمـا تخطـر حكايـا جـلابي في ذهنـي الآن، لا أرى سـوى الجماهـير الغفـيرة، التـي تعاقبـت عليهـا، عـبر مراحـل التاريـخ المختلفـة.

هـذه الجماهـير التـي مثلهـا كسـبان الضـاوي ومزيـد الحلبـي والـسرة وام التيـمان، وقبـل كل هـؤلاء وأولئـك بولديـن و سـورنق وأسـلافهما في سـاورا وممالـك جـلابي الغابـرة.

هـؤلاء العباقـرة الذيـن لولاهـم، لمـا كان لجـلابي وجـود. ولمـا أهتـم بهـا أحـد مـن المؤرخـين، الذيـن أعـدوا رسـائل الدكتـوراه والماجسـتير، وكل مـا هـو مـن قبيـل الدراسـات العليـا فقـط، في جـلابي كبوتقـة! منهـم مـن كتـب عنهـا محتفيـا بـدور الفـرد؛ إلى درجـة أن واحـدة مـن هـذه الرسـائل،

ذهبت للبحث في العوامل الذاتية التي فجرت طاقات جداد، وذهبت أخرى للبحث عن الأسباب الداخلية والخارجية لحريق جلابي الكبير!

وناقش أحد طلبة الماجستير باستماتة! استنتاجاته النظرية التاريخية، حول الدور البارز للقائد لاكو لادو في تطوير مفهوم الوحدة الوطنية لجلابي؟

وهكذا ذهب آخرين للحديث عن السياسات الجنكويزية ممثلة في الممارسات الجائرة لتنظيم القرى ومعالجة السكن الاضطراري، بينما هي في واقع الأمر مجرد سياسات غير ايجابية، ولا علاقة لها بالتاريخ الذي يصنعه الشعب في جلابي.. ظانين أنها تمثل التاريخ الحقيقي لجلابي. وما كانت هذه الرسائل إلا خطوة منهجية في مصادرة تاريخ جلابي ود عربي، وتكريس لآيديولوجيا التفوق الذاتية!.. أيديولوجيا الفرد المسيطر الأسطوري الخالد!

VIII

مـن حافـة الحلـم. عنـد أقـصى زوايـا الخاطـر، يقفـز أبكـر خارجـا مـن الدوائـر المتموجـة للبخـور. لم تكـن ثمـة روايـة مؤكـدة يمكـن الاعتـماد عليهـا، في إضـاءة الحيـاة السرّيـة، التـي ظـل يعيشـها في جـلابي، إلى أن اختفـى هـو وبيتـه، في لحظـة حصـار غاشـمة.

لم تكـن ثمـة روايـة مؤكـدة، يمكـن الاعتـماد عليهـا، في إضـاءة الحيـاة السريـة، التـي ظـل يعيشـها كآدمـو أو كأبكـر.. حتـى تلـك اللحظـة ذات صبيحـة كئيبـة! مشـبعة برائحـة الرطوبـة والـبرد والبـارود!

الـبرد، الـذي لم يثلّـج أطـراف النـاس فحسـب، بـل ثلّـج كل البيـوت في جـلابي، التـي صدمـت ذلـك اليـوم ودخلـت في لجـج الهلـع والخـوف، وهـي تـرى أبكـر يرمـى أمامهـا بالرصـاص تحـت عـود المشـنقة.. هكـذا علنـا، دون رأفـة. عـلى مـرأى ومسـمع مـن الجميـع!

مـع أن أبكـر ظـل منسـيا كمعلـم بـارز في ذاكـرة الحـكي اليومـي، إلا أن لا أحـد ممـن عـاصروا لحظـة حلولـه بجـلابي، سـينسى إلى الأبـد! كيـف انتصـب بيتـه لوحـده بإشـارة مـن يـده فقـط!

جـاء أبكـر للمـرة الأولى، وأقـام ثلاثـة أيـام في العـراء، رافضـا تلبيـة دعـوة الأهـالي اسـتضافته في بيوتهـم.. و مـضى في صبيحـة اليـوم الرابـع إلى سـوق جـلابي، لـشراء مـواد بنـاء للبيـت الـذي أزمـع تشـييده. كـوّم البائـع أمامـه كل مـا طلبـه:

مـن حصـير وقـش وقنـا وحطـب، وعندمـا أحـضر الـكارو كان المـكان خاليـا مـن أبكـر ومـواد البنـاء! سـأل جيرانـه مـن تجـار مـواد البنـاء، فأكـدوا أنهـم لم يـروا زبونهـم المزعـوم! ولم يـروا عربـة كارو تحمـل مـواد

بنـاء، وفي الواقـع لم يـروا شـيئا عـلى الإطـلاق! مـن أي نـوع كان. فـكل مـا يعـبر بهـم لهـو مـن الوضـوح، بحيـث يشـعرون بـه حتـى لـو غضـوا النظـر!

رأى النـاس أبكـر يقـف في طـرف البلـدة، وقـد تكوّمـت أمامـه مـواد البنـاء.. رفـع يـده اليمنـى فانتصبـت "قطية"غريبـة التصميـم في الهـواء، قبـل أن تسـتقر عـلى الأرض!..

ومـضى بتـؤدة إلى داخـل القطيـة.. أشـعل فيهـا النـار والنـاس يراقبـون مندهشـين.. أتـت النـار عـلى القطيـة والنـاس يتسـاءلون: لمـاذا انتحـر الرجـل حرقـا؟

لكنهـم فوجئـوا بـه يخـرج مـن كومـة رمـاد القطيـة حيـا، لا شيء مـن الحـروق عليـه سـوى الرمـاد عـلى ثيابـه، التـي كانـت قـد احترقـت، ولا يـزال رمادهـا يغطيـه، كأنـه ثـوب وليـس رمـاد.. ثـوب؟!

تراجـع النـاس خائفـين.. تبقـى منهـم قلائـل ينظـرون لأبكـر الـذي رفـع يـده اليـسرى فتسـاقط الرمـاد منهـا وأصبحـت عاريـة، فانتصبـت قطيـة أخـرى مـن قلـب الرمـاد.. غريبـة الشـكل لم يـروا مثلهـا مـن قبـل.

إذ تجـلى في تصميمهـا كل شـكل منـسي مـن الأشـكال الهندسـية الغامضـة!..

كانت قطية جميلة توسطت سورا من شوك المسكيت الجاف.

ومنـذ تلـك اللحظـة أخـذ الأهـالي يتعاملـون مـع أبكـر كسـاحر كبـير، وأخـذوا يمنـون أنفسـهم الأمـاني، وأجتهـدوا في التقـرب إليـه. إلا أنـه كان مـن الواضـح أن أبكـر لا يرغـب في أي نـوع مـن العلاقـات الخاصـة، تربطـه بـأي شـخص مـن أهـالي جـلابي.

تلـك الحادثـة المذهلـة. المتعلقـة ببنـاء أبكـر لقطيتـه، ظلـت حديـث الأهـالي الذيـن أخـذوا يتناقلونهـا جيـلا عـن جيـل، في اللحظـات التـي تحتج

فيها شخصية أبكر، على سقوطها عن ذاكرة الحكي اليومي، متشبثة بتلابيب الذاكرة الباطنة..

ورغم سقوط أبكر عن ذاكرة الحكي اليومي، إلا أن حكايته انتشرت خارج جلابي!

فوصلت أسماع النساء والرجال في المدينة الريفية، والمدن المجاورة. وأخذت الفداديات تذهبن إلى أبكر، ليكتب لهن الحجبات التي تحميهن من "الكشة" أو التي تجلب إليهن الرزق بل والمرشحين في الانتخابات المغشوشة للمجالس البلدية، كانوا يحضرون منكسرين إلى منزل أبكر، كي يكتب لهم حتى يتمكنوا من الفوز، وهكذا تمددت سمعة أبكر، في كل أنحاء البلاد الكبيرة.

لم تكن لأبكر علاقة سوى بشخصين، اصطفاهما من دون كل الأهالي: هما كسبان الضاوي وجمال الحلّة..

وربما كان ذلك لأن كسبان رجل في حاله! أشبه بالمجاذيب، إذ يكون في لحظة واعيا ومدركا مثل تلك اللحظات التي كان ينوّر فيها الأهالي، بأهمية الحشيش والبنقو، وفي لحظات أخرى يكون غير عالم بأي شيء يجري حوله! سابحا في ملكوت بعيد عن عالم جلابي.. وجمال الحلة ربما لأنه قريب الشبه في أحواله من كسبان.

قرّبه ذلك من أبكر فقد كان "بركة" كما يعتقد فيه الأهالي! إلى درجة أنهم صوروه، وعلقوا صوره في دكاكينهم وبيوتهم لتجلب لهم الرزق والخير، وتحميهم من الشر!

وفكرة البركة التي يعتقدها أهالي جلابي، لا أحد يدري على وجه التدقيق جذورها وكيف نشأت في أذهانهم! فالرجل لم تكن له كرامة واضحة، كعبد الرحمن العوير مثلاً! عندما رفع يديه فأحترق بيت أم التيمان؟!

إذن باستثناء كسبان الضاوي وجمال الحلة، وزبائنه من الجنسين، لم يكن أبكر يسمح لأحد بدخول بيته.

ولذلك عندما أعلن حسان جداد حملته الانتقامية ضد أبكر المعراقي، كان كسبان وجمال هما اللذان تصديا لهذه الحملة الشرسة!

ثمة علاقة محتملة بين أبكر ومزيد الحلبي، لكنها غير مؤكدة فالبعض يقول بها والبعض الآخر ينفيها!

IX

مـن أيـن تبـدأ الحكايـة وأيـن تنتهـي؟.. مـن هـؤلاء الذيـن حولـوا تاريـخ جـلابي، إلى تاريـخ عابريـن سـبيل؟!..

أم مـن المقـولات الكبـيرة والكثـيرة والمثـيرة التـي انطلقـت منهـا فكـرة الحنـين إلى الوطـن، وهـى تبحـث فى عـالم جديـد، يتكـون فى تشـظى وتمـزق عـالم يـؤول إلى الانهيـار والتـلاشي!

عـالم تنهـض فيـه جـلابي أرض النازحـين التاريخيـين، في سـاورا البائـدة أو مملكـة الجبـل والـوادي، بمجهوليهـا الذيـن جـاءوا مـن كل مـكان، يحملـون حرمانهـم وأحزانهـم وهزائمهـم.. إحباطاتهـم وخذلاناتهـم العميقـة؟!..

مـن أيـن جـاء هـؤلاء.. إنـه السـؤال الـذي شـغل البـال، وقتـل مـن بحـث فيـه!.. فمـن أيـن أتى هـؤلاء إلى سـاورا.. الى جـلابي ود عـربي.. إلى أشـباه المـدن في البـلاد الكبـيرة الأسـيرة.

لم يأتـوا كالتروبـادور المرتحلـين بغنائهـم الرومانـسى المعـذب في اللانهايـة.. عابريـن بخيالاتهـم البحـار العظيمـة. يواجهـون غضـب طبيعـة متوهمـة. وأهـوال وحـوش لا وجـود لهـا.

ثـم يتكئـون عـلى صـدر جـلابي، ينفضـون عذاباتهـم لتنهـار كـما نهضـت فى الانهيـار، مثـل مملكـة الجـوار.. ربمـا.. الحلفـاء، ربمـا.. مثـل كل دويـلات المـدن.. تنهـار بفعـل الغربـة والحنـين!..

انهـا جـلابي لحظـة الميـلاد! جـلابي الناهضـة في قلـب سـوق البـلاد الأسـيرة، تسـتمرأ تعاطـى الأحجيـات والحواديـت، عـن الـذى يـأتى ولا يـأتى.. وميـلاد عـصر جديـد، سـهلت فيـه عمليـة تبـادل وانتقـال عنـاصر الثقافـة، فتقاربـت الجـزر المعزولـة بمـا جعـل التواصـل يتغلغـل فى الوجـدان،

ليتشكل النسيج الذى طالما حلم به الأسلاف في ساورا البائدة!

لكن قبل أن يموت السؤال، تنهض في الفضاء الطرفي للمدينة الريفية آلاف من جلابي ود عربي، من كل شكل ونوع.. شاهقة، شاهقة، شاهقة على الرغم مما يضرجها من نزيف.. ذات نزيف جبل "سابا" صديقة الجنيات، عندما رمت بنفسها من أعلى شرفات قصرها الملكي، احتجاجا على استيلاء "بييه" على السلطة، في مملكة الجبل والوادي..

الجبل ينزف.. والسؤال يظن أنه سيهدم العالم ويشيده على نحو مختلف.. لا انهدم العالم ولا تغير الناس! ظل السؤال هو السؤال..

وظل المشهد كماهو: نزيف وضجيج وانهاك فالبدو تدخلوا بعدتهم وعتادهم، يدعمهم الجنكويز الرسميون، الذين لا تفتأ تفاجئهم الوديان، بنعومتها و طزاجتها..

البدو بعدتهم وعتادهم يرمون الجبل بالراجمات، تؤازرهم الطائرات، لينجرح الخاطر ويستحيل تناغم الطبيعة إيقاعا مختلا! يضرج وحدة السؤال وحدته وتوحده.. ويهدمه ليعيد السؤال بناء نفسه من جديد!

هل كان وقتها هناك طائرات وراجمات؟

لكن كيف أعدم أبكر أو شنق، أو قتل؟

لا زال السؤال يظن أنه سيشيد الاجابة! على نحو مختلف!

كيف لهم ان يفهموا ان الجبل خارج إطار الفيزياء. كيف لهم أن يفهموا أن مغزاه الروحى؛ سيظل أخضرا مثل الفضاء المرتحل فى اللوعة والغياب، والمهاجرين القدامى والجدد، إلى فضاء يسبق جلابي القديمة، وهى تتكون فى التمزقات!

ها هو السؤال يستعد للنفى الاختيارى والرحيل، يمضي كعبد

الكريـم مـن عشـيرة "كليبـا" التـي ينحـدر منهـا أبكـر، الى قـصر السـلطان.. مـا أن يبلـغ سـن الرشـد، حتـى يقـود الفرسـان ضـد "العريقـات" الجـدد..

يطردهـم مـن آبـار كارنـوي في دار "قـلا" ويزحـف حافـرا في طبقـات الوعـي القصـوى ليحـرر النـاس والمـكان والـوادى والشـجر والقرود وأشـجار القمبيـل.

ليدخـل الجميـع في مزيـد مـن الأسـئلة الحرجـة! لينفـك اسـار الجبـل.. بينـما يسـقط آلاف القتـلى يـروّون بدمائهـم الوديـان..

في اللحظـة ذاتهـا يختلـف المثقفـون المأزومـون حـول بروتكـول ميشـاكوس، ويناقـش الساسـة والمفكـرون المزعومـون، الإليـاذة والأوديسـة في كافتيريـات هيئـات التدريـس، ويتغنـى الجميـع برحـلات جلجامـش، لإيجـاد ربـط بـين مؤسسـات المجتمـع الأهـلي في المدينـة الريفيـة وحـاضرة البـلاد الكبـيرة، وسـومر وبابـل..

حينئـذ ينشـغل المثقفـون الحقيقيـون المختفـون في الأحـراش والكهـوف والوديـان، بشروحـات مـا يتداولـون بينهـم مـن آيـات مـن كتـاب الحكيـم فرانـز فانـون عـن معذبـين الأرض!

هـؤلاء المثقفـون، الذيـن كانـوا أشـبه بالدراويـش وهـم يمـرون كسـابلة، بثيابهـم المرقعـة، كـما مرّالآشـوريين يومـا، عـبر ثقـوب الأيديولوجيـا، فى كافتيريـا (اتنـى) وقـاع المدينـة الريفيـة في قلـب البـلاد الكبـيرة، وبجـوار جامـع جـداد..

ويحتـدم السـجال فيـما إذا كان لابـن عـربي تأثـير عـلى الشـعراء المجاذيـب، أو كـون مـالى والصونغـاي وإمـارات السـاحل، محـض مؤامـرة شـيعية!

والى أى مـدى تداخلـت الأزمنـة الثقافيـة، فى بوتقـة الصهـر. الفـرن الجنكويـزي في حـاضرة البـلاد الأسـيرة.

كانت مسارب الأيديولوجيا ترتفع فوق سفح جلابي فيدلو منبر حانة أتني في ساورا البائدة، بدلوه وتتدلى أسئلة الوجود، فى الفراغ الذي تنهض فيه جلابي بعوالمها المعلنة مع سبق الإصرار والترصد!

فإلى (اتنى) يأتي القلقين.. المتوترين والموتورين، الذين لا يستطيعون الاستمرار في أيّ عمل، نظرا لحساسيتهم المفرطة تجاه المضايقات. التي تجعلهم يشعرون بالحزن والتشاؤم، ما يدفعهم للغربة والاغتراب حيث هم! فتدهمهم المنافي بالحنين، فيتاوهون ويغمدون جراحاتهم، اقصى تفاصيل الفجيعة والدمار.. و.. ويمضي الواحد منهم باحساس محارب منقرض! انها (اتنى) جلابي ود عربي، فكل بيت في جلابي هو أتني.. أتني الباحثين عن وطن دفء، في الخمر البلدى المختلس!

نزل عليهم بروتوكول مشاكوس كالصاعقة، والآن يفيقون من سكر دام لعقود طويلة على نيفاشا يحلمون بالبلاد الكبيرة الجديدة!.. لكن لا شيء سوى الألم والرعب في العيون الخبيئة الكابية، ففى فراغ اتنى تمر الصور، الذكريات، والأخيلة التي عاشوا لأجلها طيوفا ممزقة بالأسى والحرمان..

فيكتب البعض بإيحاء السؤال وأسئلة أخرى: بين مطرقة اليانكى وسندان النازيين السمر: أحداث ووقائع العذابات اليومية بوحدتها ووحشتها واساها في الخط الفاصل بين عالمين لينطوي السؤال على نبوءة المأساة!

تنهض هنا مساحة خالية.. ملأى بالتساؤلات الحارقة، لم تتمكن المخطوطة السرية من الإجابة عنها..

تساؤلات يحملها التاريخ السحيق لشعوب البلاد الكبيرة.. شعب الوادى الذى يتكون فى التمزق الشامل للناس والحياة والوادى ذاته..

الوادى بطبيعته وناسه واحساساته الغامضة.. الوادى الشاهد على

اندثـار أجيـال ومولـد اخـرى، بافكارهـا المتباينـة وتطلعاتهـا المتعـددة عـن: الحيـاة والنـاس والوجـود والمصـير والهـدف..

حيـاة الـوادي المتبدلـة بناسـها، هـي حيـاة السـؤال نفسـه، مـذ كان هاجسـا في خاطـر الكـون، في لحظـة دقيقـة تفصـل بـين عالمـين ينهـض عـلى ركاميهـما الـوادى، كشـاهد عـلى عواصـف الطبيعـة، وزوابـع التاريـخ!..

ربمـا هـو اللّـوذ باليانـكى الغربـاء، الذيـن قدمـوا رغـم أنـف رائحـة الـتراب وعبـق التاريـخ، ورغـم أنـف العـالم المقهـور كلـه!

حـماة للسـلام ورعـاة للديمقراطيـة والتنميـة وحقـوق الإنسـان، كـما يزعمـون.. جـاءوا كـما جـاء أجدادهـم مـن قبـل. يدّعـون اخـراج النـاس مـن الظلـمات إلى النـور، فغـاص النـاس في الظلـمات أكـثر فأكـثر.

لم يرفـض شـعب الـوادي والجبـال اليانـكي، كـما فعـل الأسـلاف منـذ وقـت بعيـد.

لم يرفضوهـم عـلى الرّغـم مـن أنهم كانوا يدركـون، أن اليانكي سـياخذون ثمنـا غاليـا، مـن وجدان النـاس وثروات الجبـال الغنية واحساسـات الأرض.

هـذا القبـول باليانـكى ينطـوى عـلى أسـئلة محرجـة، حـول العلاقـة بالسـلطة الوطنيـة، منـذ غـادر الإنجليـز حتـى لحظـة تدخـل اليانـكي لانهاء الحـرب الاهليـة! فمـن الموقـع الآخـر، فى الغابـات يتكـرر ذات الموقـف: لم يرفـض رجـال الغابـات اليانـكي، سـمحوا لهـم باقتـلاع الأشـجار و الحفـر عميقـا في باطـن الأرض لاسـتخراج الزيـت، بعـد أن ارضـوا الفرنسـيين، الذيـن لا تـزال الاشـواق الديغوليـة تعمـل عملهـا في تطلعاتهـم العوليـة!

إذن لم يـأت اليانـكي هـذه المـرة، كرجـال منظـمات إنسـانية فحسـب لمحاربـة الفقـر والجهـل والمـرض. ورجـال الغابـات يعلمـون ذلـك، ويقبلونه بطيـب خاطـر. فقـد أوقـف اليانـكي الحـرب، وأصبـح بالامـكان مسـاءلة الحكومـة الجنكويزيـة عـن الميزانيـة العامـة للدولـة؟!

لكــن ســلطة اليانــكي تتمــدد لتشــمل كل أطــراف البــلاد الكبــيرة المهمشـة!.. لم يعـترض أحـد عـلى اليانـكي، فقـد اشـتغلت بنجـاح تـام رمزيـة الغريــب، الحكيــم: الــذي يمــلأ الأرض عــدلا بعدمــا ملئــت جــورا!

X

والآن إذن، من أعلى برهات هذه اللحظة الشاهقة ها أنا أجلس وحدي على إحدى شرفات خاطري المتسع، لأراقب أحوال العالم المنسي لجلابي ود عربي.

فتاريخ جلابي هو تاريخ النازحين ونزوحهم، فمن ذكريات النزوح المتعاقبة، تشكلت الذاكرة الجمعية لجلابي. ومن أحزان ومآسي النازحين، تشكل الوجدان الثقافي لجلابي، ففي موجة النزوح التاسعة، خلال قرن من الزّمان، في بدايات الربع الأخير من القرن الماضي. توافد المزيد من النازحين من أطراف البلاد الكبيرة، وأطراف المدن الريفية البعيدة عن مجرى النيل.

فجفاف تلك السنوات، لم يصب دار الريح فحسب في مقتل، بل ضرب كل الأواسط البعيدة عن النيل. خاصة أن الأزمات الاقتصادية، بسبب الفساد السياسي والمحسوبية، والنهب المنظم للموارد، الخ.. من أسباب وعوامل بلغت ذروتها، وأضطرت الناس إلى النزوح، فكانت جلابي التي أنشأها النازحون الأوائل مركز جذب ألتقى عنده كل هؤلاء وأولئك، الذين محلت أراضيهم، وجفت آبارهم ونفقت بهائمهم فلاذوا بجلابي.

التي كان اقتصادها التقليدي المحدود لا يقوى على مقابلة الاحتياجات الضرورية المتعاظمة، للكثافة السكانية المتنامية!

تدفقت منظمات العون الإنساني والإغاثة الأمريكية، ولأول مرة في تاريخ الاغاثات التي كانت تتم على مقربة من جلابي، تتعرف الأجيال الجديدة من النازحين على اسم "أميركا" وريغان.. هذين الاسمين، الذين حملتهما أغنيات الحكامات، والمغنين البدو وأشعار المسادير

والدوبيت، وغنا الهدّاي والمردوع والجراري.

ومضى الذين لديهم حاجة متعسرة، يندهون في صلاتهم: "ريغان يا ولي الله الصالح تلحقنا وتفزعنا!"..

حتى أن عازفي "الربابات والطنابير وأم كيكي" جعلوا من أسمي أميركا وريغان مفتتحا لقصائدهم المجيدة، التي تمدح الخواجة النبيل!

هذه الأغنيات ترّنم بها القاصي والداني، في أنحاء البلاد الكبيرة، وشغلّت الناس وقتا طويلا، وبات الكثيرون من البسطاء يعتقدون أن أمريكا هي قلب الدنيا الحنون، وريغان هو الرجل الصالح كأولياء الله والذي لم يروه أبدا، فقد اكتفى بإرسال الطرود، المحملة بالمعلبات والزيوت والذرة والقمح والأغذية المختلفة، لإغاثة عباد الله المؤمنين في جلابي وأطرافها وامتداداتها، إلى قلب المدينة الريفية، التي أصبح يطلق عليها أيضا اسم "الفردوس".

ويبدو أن الرجل الصالح ريغان، كان يعلم تمام العلم أن موظفي الإغاثة من أبناء المدينة الريفية، أو البلاد الكبيرة يعاونهم المجلس البلدي، سيتمكنون من سرقة المواد الإغاثية، وبيعها لأصحاب الكناتين، ولذلك أرسل إغاثة لا عدّ لها أو حصر! حتى لا تتأثر بالنقصان مهما كان حجم السرقة!

وبالفعل ظل هناك دائما ما يكفي لحاجات النازحين، الذين لولا الرجل الصّالح ريغان، لقضوا نحبهم جوعا وعطشا.

إذ لم يكتف هذا الرجل بإرسال الإغاثات. بل أرسل محولات كهرباء صغيرة، وأجهزة ومعدات طبية، كما علم النازحون الذين في واقع الأمر لم تصلهم هذه المحولات والأجهزة والمعدات، إذ اختفت في ميناء شرق البلاد، بمجرد وصولها، وقيدت قضية اختفائها ضد مجهول!

لكـن موّظفـي ريغـان، خشـية تكـرار مثـل هـذه الحـوادث الغامضـة، جـاءوا بأنفسـهم وأنشـأوا مستشـفى طـواريء ومحطـات ميـاه ورّيـاض للأطفـال.

كانـوا يقدمـون في هـذه الريـاض، خدمـات عديـدة مـن غـذاء صحـي، وتطعيـم ولبـس وعـلاج. في مناطـق النازحـين. وتوسـعت مشـاريع الأب ريغـان، لتشـمل القـرى المحيطـة بالمدينـة الريفيـة، فأنشـأوا عـبر فـروع منظماتهـم عـدداً مـن القـرى النموذجيـة، المميـزّة بخدماتهـا الأساسـية: المراحيـض الثابتـة، والحمامـات والمطابـخ و الكهربـاء ومواسـير وتنقيـه الميـاه.

مـضى ذلـك الزّمـن إذن، الـذي يقـضي فيـه الواحـد مـن هـؤلاء حاجتـه في العـراء، أو يسـتحم داخـل ذات المـكان الـذي ينـام أو يطبـخ فيـه! بعـد أن يخـوض نضـالا مسـتميتا، لأجـل الحصـول عـلى المـاء..

وهكـذا انقرضـت الكولـيرا مؤقتـا، ودخلـت متحـف الأمـراض الأثريـة مؤقتـا! ولم تطـل برأسـها مـرة أخـرى إلا بعـد أن أوقـف الجنكويـز مشـاريع هـذه المنظـمات وقامـوا بطردهـا، قبيـل اجتيـاح الفيضـان الكبـير للبـلاد الأسـيرة، في أول خريـف بعـد سـنوات الجفـاف والتصحـر.

اجتاحـت الأمطـار والسـيول البـلاد الكبـيرة مـن شرقهـا إلى غربهـا، فلـم تنجـو إلا مناطـق قليلـة، وشـهدت البـلاد بسـبب ذلـك مجاعـة لم يسـبق لهـا مثيـل، وقتهـا كان الأب ريغـان، قـد اختفـى بصـورة غامضـة هـو الآخـر، وسرت شـائعة أنـه أصيـب بالزهايمـر لهـول مـا رأى مـن مـآس البـلاد الكبـيرة، فأودعتـه سي آي إيـه إحـدى مصحـات جـون هوبكنـز في بالتيمـور! ثـم انقطعـت اخبـار الـولي الصالـح ريغـان ولم يعـد أحـد يسـمع عنه شـيئا!

حينئـذ أصبـح النـاس، يشربـون الشـاي والقهـوة بالبلـح وحـلاوة الدربـس، فقـد أصبـح السـكر ينـدرج، في بـاب الذّكريـات العزيـزة، رغـم

وجـود مصانـع تنتـج مـا يزيـد أضعافـا مضاعفـة عـن حاجـة السـكان! وأصبـح اعتـماد النـاس في غذائهـم اليومـي عـلى بعـض النباتـات البريـة و الطيـور الموسـمية، التـي تضـل اسرابهـا الطريـق الى البـلاد الأسـيرة.

تلـك سـنوات لم تشـهد لهـا البـلاد الأسـيرة مثيـل، إلا عـلى أيـام الخليفـة الجنكويـزي ود تورشـين، وخلفـه بعـد جـلاء الإنجليـز مـن آل أبولكيلـك المتعاقبـين!

XI

إذن ظل الناس رجالا ونساء في جلابي ود عربي وامتداداتها، يتذكرون الرجل الصالح ريغان ويدعون له أيا كان المكان الذي أودع فيه، بطول العمر والصحة والعافية! وزيارة قبر الرّسول الكريم، ويتمنون له أن يتصدر قائمة الشهداء والصديقين! في الدار الآخرة منذ عهد آدم ونوح إلى عهد المبجل father moon ويدخل الجنة كولي من أولياء الله الصالحين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. آمين..

بمجيء النازحين مرة أخرى بهذه الأعداد المهولة، وإنشاءهم المساكن المؤقتة، في إمتدادات جلابي وحولها، ما لبثت أن ابتلعت أراضي الحواشات، التي يمتلكها سكان المدينة الريفية..

بتكاثفهم هكذا توصل الخيال الاقتصادي لجلابي، إلى ضرورة إقامة سوق جديد، يستطيع استيعاب الحاجات الجديدة الناشئة عن تمدد جلابي، وكثافة سكانها وتنوع احتياجاتهم، فنشأ سوق "الحر" الذي سرعان ما تم تغيير اسمه إلى سوق "العصر" ففي البداية كان الناس يأتون بعد الظهيرة، بعربات الكاروالمحملة بـ "الأقشّي" وعصير الليمون والكركدي، والكوارع و"القدو قدو" والسمك والخضروات واللحوم، إلخ..

ولكن بعد أن وجد السوق رواجا، أصبحوا يأتون بتجارتهم المختلفة، قبل أن تفشي الظهيرة عن نفسها. ومن هنا كان الاسم: "سوق الحر"..

أصبح سوق الحر بمثابة الملتقى للأحبة، فالفتيات والشبان، يستغلون التسوق لتبادل الأحاديث الغرامية، ما أضاف لقاموس لغة الراندوك مفردات جديدة، وّظفت فيها الكنايات والتشبيهات المنجورة، على نحو خلاق غير مسبوق!..

إذ يقول الفتى لبائع السمك مثلاً:

"من أعماق البحر و تأخرت في النار شديد".. فيرد عليه البائع دون أن يدري ما وراء هذا الكلام:

"لا والله مقلية مظبوط"

فتفهم الفتاة، التي تكون وقتها بجوارهما تشتري من بائع الخضار، أن حبيبها على جمر الشوق يتلظى مشتاقا للقاء المنتظر! وهكذا ترد دون أن تلفت انتباه شقيقها الذي يرافقها:

"رغم انو أمي منعتني من الشراء منك، واخرتني لحدي ما وافقت، وحذرتني من خضارك البايت. إلا أنا ما بغير الزباين"

ويفهم الفتى الصعوبات التي تواجهها حبيبته في سبيل لقاءه..

وهكذا عبر هذه اللغة الجلابية البديعة، يتم استغلال لغة التسوق لتنظيم وإنجاز المواعيد والمقابلات بين الأحبة، المتوقعين والعشاق القدامى والمحتملين والجدد، إلخ..

ولأن الأفق الاستثماري لجلابي عبر تجاربها الاقتصادية، أصبح منطلقا ورحباً فقد استثمرت اللجنة الشعبية لجلابي، نشوء هذا السوق، ففرضت إتاوات على الباعة.

انعكس الأثر التراكمي لهذه الرسوم، في ادعاء اللجنة الشعبية أنها أنجزت منه المدرسة الابتدائية، التي في الحقيقة بناها شعب جلابي بالعون الذاتي! مع أن جلابي لم يكن بها أطفال!

لكن المدرسة كانت تعمل فكل طلابها من أبناء النازحين، الذين كانوا يقطنون امتدادات جلابي!

ما ميز جلابي لوقت طويل، هو النسيج الاجتماعي المنسجم والمتماسك لسكانها، إذ لم يكن هناك تقسيمات لأهاليها، بناء على

حساسيات من أي نوع، على الرّغم من بساطتهم، لكن ما أن أصبحت الأحزاب السياسية، تهتم باستغلال جلابي، وتقيم فيها الندوات في المواسم الانتخابية، وتزامن ذلك مع عودة جداد من الأراضي المقدسة محملا بأفكار الإرهابي التاريخي ود عبد الوهاب حتى أصبحت جلابي بلدة أخرى، غير تلك التي عرفها سكانها المتعاقبين!

أفاق الناس فجأة فوجدوا أن أسماء شوارعهم ودروبهم قد تغيرت فهذا شارع خالد ابن الوليد وذاك شارع بلال بن رباح وتلك محطة خباب، حتى يخالها الغائب عنها لدى زيارتها، إنها مكة، فيهتف مأخوذا: يا أهل مكة أين داري!

كانت دروب جلابي تحمل أسماء تتعلق بذاكرة المكان وما جرى فيه أو يجري من وقائع وأحداث، كدرب الريد، الذي يتسكع فيه العشاق، أو شارع قلب التور، المشهور بصناعة العرقي "التور كبس!" ومحطة البابور، التي كانت تشير للبابور القديمة التي تروي الجروف عند امتداد قيف النهر! أو ميدان ألماظ البطل، حيث يشاع أن قادة حركة اللواء الأبيض المدنيين كانوا يخاطبون هنا شعب جلابي وتعبئته للثورة ضد الانجليز المساخيط!

وقتها كانت كل جلابي تدعى "جلابي ودعرّبي" فقط دون تسميات اخرى.. الآن أصبحت الأجزاء الشرقية منها، تدعى بحلة العرب والأجزاء الشمالية بحلة القُمز، والأجزاء الجنوبية بحلة الغرّابة الزرقة، والأجزاء الغربية بالجانقي!

حتى أن كل جزء من هذه الأجزاء، أصبحت له أسماء أخرى فحلة العرب بأجزائها السبعة، لكل جزء من هذه الأجزاء اسم يخصه. فهذا الجزء لدغيم وذلك الجزء للحسانية وهذا للبرقو والمساليت والزغاوة والفلاتة، وهكذا..

كانت تفاصيل الساعات اليومية لجلابي، على مدى قرون من الزمان هي ذاتها لم تتغير. تتحرك على مستويين: مستوى في الشتاء وآخر في الصيف.

الفرق بينهما هو أن أهالي جلابي في الشتاء يختبئون في منازلهم مجرد أن تغيب الشمس. عكس الصيف إذ ينامون مع تباشير الفجر.

لكن تفاصيل أوقاتهم هي ذاتها لا تتغير، فالتغيير فقط في تقديم وتأخير الزمن، وفقا للتوقيت الخاص بجلابي إذ يتقدم على غرينتش بثلاث ساعات وخمسة دقائق وثانيتين!

وقتها كانت جلابي تتمتع بنوع من الحكم الذاتي، إذ تخشاها الجهات الرسمية، خاصة الشرطة والمباحث والأمن، ولذلك يحرصون عند شن واحدة من الغارات على جلابي ود عربي، أن يكونوا مدججين بالعدّة والعتاد، حتى يخاف الناس! ولا يكون ثمة ضحايا في الأرواح.

بالطبع ما أن يحل الشتاء، حتى يتوقف أهالي جلابي عن شرب المريسة، فهم بحاجة للدفء، والمريسة تُرّطب الجسم.

وعلى هذا الأساس كانت جلابي عن بكرة أبيها، في الصيف منذ الساعات الأولى من الظهيرة، ترتوي بحصصها من المريسة. التي غالبا ما تكون بالنسبة لكثيرين، ليست مجرد خمر بلدي بقدر ما هي غذاء يومي.

حتى أن مدير المدرسة الريفية، عندما طرد خميس ود السرة، وطلب منه إحضار ولي أمره، جاءت السرة غاضبة فتكلم معها المدير عن سبب طرده لابنها:

"الولد طردناه عشان بيجي المدرسة سكران بالمريسة؛ شارب مريسة"

فردت عليه بغضب:

"يعني ما يفطر.. ما ياكل.. ولا شنو يعني. يجي المدرسة جيعان بدون فطور.. كيف الكلام ده؟!"

وظلت تصرخ بوجه المدير الذي أدرك لأول مرة في حياته الأكاديمية العامرة بالاحلام، أن المريسة هي غذاء رئيسي في ثقافة السرة، والكحول ما هو إلا ناتج ثانوي يصاحب عملية صناعة هذه الوجبة، الغنية بالسكرّيات والبروتين والفيتامين..

XII

بعد وقت طويل من علاقتي بأم التيمان، كنت قد ألححت عليها بالسؤال عن سوكا حبيبها صاحب الرسائل الغرامية القديمة، التي كنت أقرأها لها كل يوم.

فتنهدت بعمق وهي تتكئ على الجدار، و تمد قدميها كأبي حنيفة، حتى يلامسا حافة السرير! أخذت تحكي بصوت موجوع:

"كان سليمان (سوكا) إبن الجيران، الذي أحببته من دون كل فتيان الحلة. فقد نشأنا معا، وعندما أصبحنا في مرحلة المراهقة، قرر أن يتزوجني، لكن أهلنا رفضوا، وحلف الجميع ستين يمين.. كانوا ينظرون إلينا، كأطفال ليس إلا!

ترك سوكا المدرسة وهرب، فغابت أخباره ثم أصبحت متقطعة، بين آن وآخر، لكن كل الأخبار التي كانت تصل.. كانت متناقضة. فمن يقول أنه مات في أفريقيا الوسطى، ومن يقول بل مات في الصحراء في الطريق إلى ليبيا، بينما بعضها يؤكد أنه قتل في الصراع المسلح، في دار الريح..

ويصر بعض حاملي الأخبار، على أنهم شاهدوه في ليبيا حيا يرزق و علموا منه، أنه كان في معسكر اللاجئين بتشاد، وهكذا لم أعد أعرف هل هو حي أم ميت!

وكنت قد كرهت أهلي وأهله و انكفأت على ذاتي معتزلة الناس. ثم أخذت أفكر في الهرب للبحث عنه. إلى أن حانت الفرصة وتمكنت من الهرب.. بحثت عنه في أماكن كثيرة، استطعت الوصول إليها. وعندما فشلت في الوصول إلى أماكن أخرى للبحث عنه. كان قد قيل

لي أنـه شـوهد فيهـا، يئسـت فجئـت للاسـتقرار في جـلابي، التـي أصبـح أهلهـا أهـلي و ناسـها نـاسي.

لم يعـد بالإمـكان أن أعـود إلى أهـلي. فهـم لا محالـة سـيقتلونني حالمـا يرونني. ولذلـك حرصـت حتـى عـلى تغيـير اسـمي الحقيقـي!

"وما اسمك الحقيقي؟"

ابتسمت ولم تجب..

"ألا تثقين بي؟"

"بل أثق بك"

"إذن لماذا لا تقولين اسمك الحقيقي.. لماذا لا تخبريني؟!"

"الأفضـل ألا تعرفـه.. كـما أنـه لـن يفيـدك بـشيء، فقـد سـار عـليّ اسـم أم التيـمان.. والجميـع لا يعرفـون لي اسـما سـواه"

قطـع حوارنـا دخـول سـلمى خـير اللـه، التـي كنـت قـد عرفتهـا بـأم التيـمان، قبـل فـترة قصـيرة.. فصـارت كلـما جـاءت، لزيـارة أبكـر المعراقـي الـذي كان يكتـب لهـا تغـشّى في طريقهـا أم التيـمان.

كانتـا تجلسـان لوقـت طويـل وحدهـما. وتتهامسـان.. ولا أدري مـا الـذي كانتـا تقولانـه لبعضهـما!

XIII

كانـت سـلمى ذات جـمال ملائـكي موحـي. وجههـا بملامحـه الهادئـة وجسـدها المشـدود، لا يعكسـان حقيقـة أمرهـا أبـدا، حتـى أننـي ظللـت لوقـت طويـل، أظـن أنهـا لم تبلـغ الثلاثـين بعـد!

عندمـا اكتشـفت أنهـا في النصـف الأول مـن العقـد الرابـع، وأنهـا عاشـت في غربـة طويلـة، بعـد أن دفعتهـا الوفـاة المبكـرة لوالدهـا لهجـر البـلاد الكبـيرة، والاغـتراب للعمـل.

ومنـذ أنقضـت سـنوات غربتهـا، وهـي تحـاول لّـم ُركام ذكرياتهـا وتشـكيل ماضيهـا العائـلي مـن جديـد! كانـت تشـتاق دفء الأُسرة والحيـاة الأسرّيـة. تحلـم بالـزّواج والإنجـاب، وربمـا ذلـك مـا حفـز عـلى اسـتمرار ارتباطهـا العميـق بزميلـة الدراسـة والطفولـة سـارة وابنهـا الصغـير.

إذ كانـت تربـط بـين سـلمى وسـارة علاقـة مـن ذلـك النـوع مـن العلاقـات، التـي تسـتوقف التاريـخ الاجتماعـي طويـلا! ويلخصهـا في مفـردة أو عبـارة واحـدة: أنهـما تحبـان بعضهـما حبـا كبـيرا!

كان لصـوت سـلمى سـحر قـوي يهـدني كلـما تـسرب أعصـابي؛ وكنـت أعلـم أننـي أشـتهيها كـما كانـت أم التيـمان أيضـا تعلـم.

وكنـت كلـما التقيتهـا وجلسـت إليهـا اسـتثار، فأضطـر إلى الركـض سريعـا، حتـى أصـل بيـت سـت البنـات العشـمانة، فاداهمهـا عـلى غـير توقـع!

وفي واحـدة مـن هـذه المـرات، بعـد أن التقيـت سـلمى، فأطلقـت شـياطين الجحيـم في دمـي، ركضـت مسرعـا الى بيـت أم التيـمان، وفوجئـت أنهـا مسـجونة بعـد أن تـم القبـض عليهـا في كشـه مفاجئـة وغـير متوقعـة.

كنت كالمسعور فركضت الى بيت ست البنات، التي فوجئت بي.

ومنذها لم أرى أم التيمان أبدا! كنت اتجنبها، تتآكلني أسئلة ذاتي التي لم تكن لدي إجابة عنها! ولوقت طويل كانت كلما خطرت على بالي، أشعر بانقباض في قلبي.

رحلت أم التيمان بعد ذلك الحادث بمدة قليلة، ولم يعد أحد يعرف إلى أين ذهبت، وكنت أشعر أن سلمى خير الله تعرف المكان الذي قصدته أم التيمان! لكنها أبدا لم تخبرني!

ولم أكن أجرؤ على الإفصاح لسلمى عن حقيقة مشاعري نحوها، فقد كانت هذه المرأة ذات قدرة غريبة، على السيطرة حتى أنني لم أكن أجرؤ على النظر في وجهها، دون أن أشعر بالارتباك.

أدركت منذ وقت مبكر. أنني كنت ضعيفا أمامها. وأدركت أكثر شعور جداد شقيقها تجاهها. لابد أنها كانت تضعضع كيانه، وتفقده القدرة على السيطرة على نفسه بقدرتها الغريبة هذه التي لم أعلم حتى بعد كل هذا الوقت الطويل: أين يكمن مصدرها؟!

حتى أن أدروب في واحدة من تجلياته النادرة استوقفني بعد أن رآني أمشي بصحبتها وأودعها إلى خارج جلابي ود عربي:

"البنت دي جمرّة!"

فضحكت:

"يعني شنو؟!"

صمت أدروب ولم يكلف نفسه عناء الرد وبعينيه تلوح نظرة ساخرة! تركته خلفي ومضيت، وأنا أعلم أنه يلوك الحسرة!

وما أن مشيت قليلا، حتى استوقفني عبد الرّحمن العوير (ود التوم)، الذي لا أدري من أي شق في الأرض، أو في جُدُر جلابي خرج

ليقـف أمامـي عـلى هـذا النحـو المفاجـئ:

"ما الذي كان أدروب يقوله لك؟!"

دهشـت لاهتـمام عبـد الرحمـن لمثـل هـذا الأمـر، فعبـد الرحمـن عُرف عنـه عـدم الاهتـمام واللامبـالاة بمـا يـدور حولـه، ولذلـك كانـت دهشـتي كبـيرة فصمـت.

"ماذا كنت تقول لبنت خير الله أخت جداد؟"

أصبحـت دهشـتي أعظـم، فوجئـت بـه يعـرف اسـمها كامـلا وعلاقتهـا بجـداد، فسـألته بحـدة:

"وما أدراك ان جداد شقيقها؟"

فلم يرد على سؤالي، ضحك ضحكته الصاخبة، و ركض مبتعداً..

قبـل هـذه اللقـاءات المتتاليـة، التـي خلفـت في نفـسي أثـراً لازمنـي لوقـت طويـل. كان أدروب يحـاول أن يجيبنـي عـلى سـؤالي إيـاه، عـن الأسـباب التـي جعلتـه يصبـح مواليـا للعرافـين، وأحـد أتبـاع جـداد، ففوجئـت أنـه لم يؤمـن يومـا بأفكارهـم التـي يعدهـا غريبـة!

"إذن لماذا انضممت إليهم؟"

"المعايش جبارة"

"كيف يعني؟"

"شـقيقي الأصغـر كان منهـم. فقتـل في حـرب الصعيـد (استشـهد) وجـاءوا ليبلغونـا الخـبر في احتفـاء شـديد.. نصبـوا الصيوانـات.. عـرس الشـهيد، كـما زعمـوا.

كانـت الأسرة وكل الأهـل حـزّانى، فاسـتاءت منهـم، لكـن لم أكـن أدري ما الـذي أسـتطيع فعلـه.. عـرس الشـهيد؟!..هنا في الأرض؟! جـاءوا بالعربـات

المحملة بالأرز والسكر والدقيق والخضار، التي قالوا إن الملائكة هي التي أرسلتها لنا! كان عرسا لم تشهد منطقتنا أو الملائكة ذات نفسهم مثله من قبل.

قالوا إن أخي يجلس الآن في غرفة نوم بديعة مع الحور العين، والولدان المخلدون يقومون على خدمته. تحدثوا عن جمال غرفة النوم والحور العين الأبكار حتى حسد الناس. كل الناس. أخي. كنا مصدومين. وما أن مضت أيام. حتى بدأت حدة الصدّمة تخف شيئا فشيئا، وبعد شهرين عينوا أبي أمينا لمخزن سكر البلدية.

وعندما قرروا عمل الجرد السنوي لمخزن السكر كان المخزن فارغا. سألوه:

"أين السكر؟"

فكانت إجابته حاسمة:

"الملائكة كل يوم بالليل تجي تحمل السكر في العربات الكبيرة، لتقيم به أعراس للشهداء.. الشهداء أصبحوا أكثر منذ استشهد ولدي"

لم ينبسوا ببنت شفة! لكن لم تمض سوى أيام معدودات حتى قاموا بفصله! أدركوا أنه يرد عليهم بضاعتهم!

تابعت عبد الرحمن العوير وهو ينصرف ضاحكا، ضحكته المجلجلة.

حدث ذلك في ذات الوقت. الذي كان فيه جداد، مشغولا بأمر حملته المقدسة، ضد من اسماهم "الخوّنة والمارّقين في جلابي" ولأول مرة أعلن جداد صراحة أن تمرد أهالي جلابي. على الصلاة سيجعلهم مرتدين وخارجين عن الإسلام وأمة محمد!

وفي سياق ذلك اعلن حالة التعبئة العامة، بإصدار عدد من

الفتـاوى، التـي حـرم فيهـا التدخـين وبيعـه وشراؤه، وتأجـير المـكان لمـن يبيعـه، وحلـق اللحيـة لأن في حلقهـا تشـبها بالمشركـين والمجوس، والاسـتماع إلى الموسـيقى والأغـاني. فـذاك أمـر لا شـك في تحريمـه تمامـا!

مثل مشاهدة أفلام الفيديو عند مزيد الحلبي:

"عبـاد اللـه يـا أهـل جـلابي أن بهـذه الافـلام نسـاء كاسـيات عاريـات وربمـا عاريـات تمامـا"

وهكـذا عـبر لغـة التعبئـة العامـة، التـي تسـتنفر العواطـف أخـذ جـداد يصـدر العديـد مـن الفتـاوّى التـي يحـرم فيهـا كـما يعـن لـه، دون أن يسـأله أحـد تلـت التلاتـة كـم؟!

مشـكلة جـداد أنـه ينتمـي مـن جهـة أمـه إلى إحـدى القبائـل الأفريقية، غـير المسـلمة. حيـث نشـأ في ديـار أبيـه في كنـف الإسـلام وبزياراتـه المتكـررة لموطـن أمـه نشـب داخلـه صراع حـاد ومثـل كل ابنـاء جيلـه، ولـدوا بالحبـل، أو بواسـطة القابـلات الشـعبيات، وتـم تقديـر سـنه فيـما بعـد وُّدون في سـجل المواليـد والوفيـات تقديـرا مـن قبـل الطبيـب المناوب!

وهكـذا اسـتخرجت لـه شـهادة (تقديـر العمـر) عندمـا قـرر والـده (بعـد وقـت طويـل مـن ولادتـه في ديـار أمـه)، أن يرحـل وينتقـل إلى ديـاره التـي جـاء منهـا لينشـأ جـداد وإخوانـه كـما نشـأ أسـلافه!

عندمـا قـرر والـده ذلـك، كان يـدرك أن تلـك مرحلـة أولى، لاسـتقراره مـع أسرتـه الجديـدة. فقـد كان يعمـل عـلى ترتيـب أوضاعـه هنـاك مؤقتـا، الى ان يتمكـن مـن ترتيـب أوضاعـه بصـورة نهائيـة في المدينـة الريفيـة التـي كانـت مزدهـرة وقتهـا.

وهكـذا لم يلبـث سـوى سـنوات قليلـة مـع، أسرتـه حتـى انتقـل بجـداد وابنـاءه الآخريـن مـن ديـار أبيـه إلى المدينـة الريفيـة. حيـث بـدأ جـداد مسـيرته التعليميـة بعـد تجـاوز السـن القانونيـة بعـدة سـنوات! وفي المدينة

الريفيـة.. في هـذا المجتمـع الطائفـي المحتقـن بالنعـرات، تمـت صياغـة جـداد في سـنوات حياتـه الأولى، التـي تشـكلت مـن تأثـيرات الحيـاة البدائيـة لأهـل أمـه. والبدويـة لأهـل أبيـه.

كانـت المدينـة الريفيـة وقتهـا تصطخـب بمزيـج غريـب! كانـت كحضـن تصطـرع داخلـه مركبـات ثقافيـة متنوعـة ذات تأثـيرات عديـدة ومتباينـة. وكانـت العربيـة لغـة أبيـه، بالنسـبة لـه لغـة أولى مثلهـا مثـل لغـة والدتـه!

وبتدرجـه في مراحـل التعليـم المختلفـة، وتعرفـه عـلى التاريـخ والجغرافيـا تبلـور داخلـه الـصراع القديـم بحـدة، ولم يسـتطع تفاديـه، فهـو كحالـة مشـابهة أو لا تختلـف كثـيرا عـن حالـة آدمـو أو أبكـر!

ظـل متنازعـا مثلـه، بـين الأفـكار والآراء المحليـة التـي شـهدتها مراحـل حياتـه المختلفـة ونشـأ عليهـا عـلى يـد والدتـه ووالـده، وأهـالي المدينـة الريفيـة، والمعرفـة التـي منحتهـا اياه المناهـج المدرسـية، ومـن هنـا حـدث لـه تحـولا شـبيها بالتحـول الـذي عاشـه آدمـو، حتـى انتهـى إلى أن يصبـح أبكـر!

لكـن تحـول جـداد كان في الاتجـاه المعاكـس لأبكـر. كانـت حيـاة جـداد قـد تخبطـت كحيـاة آدمـو، وعمتهـا الفـوضى العارمـة!

حـكى لي أدروب عـن حكايـة شـائعة، كنـت قـد سـمعتها منـذ وقـت طويـل: كيـف أن ثريـا عندمـا بلغـت سـن المراهقـة، اسـتدرجها جـداد إلى بيتـه، قـال أدروب:

"كنـت أنـا ذاتي اشـتهيها. ولذلـك اهتممـت بمراقبتهـا في غدوهـا ورواحهـا، وتبعتهـا في إحـدى المـرات لحظـة خروجهـا مـن منزلهـا، فرأيـت جـداد يسـتوقفها في منتصـف الطريـق المفـضي إلى خـارج جـلابي..

ثـم لم يلبثـا أن غـيرا مسـارهما عائديـن إلى جـلابي. فتبعتهـما ورأيـت ثريـا تدخـل مـع جـداد بيتـه.

لم تكـن للبنـت تجربـة، ولا تعـرف مـا هـي مقدمـة عليـه. تـرددت كثيرا إلى أن حزمـت امـري، فدخلـت عليهـما. لكـن كان الوقـت قـد فـات.

كانـت تبـكي بصـوت خافـت مزعـور، وجـداد بـدى مباغتـا و خائفـا ومرتبـكا، وانـا بـصري يجـول بينهـما، تطـرق مسـامعي كلماتـه:

"استرني الله يسترك.. استرني الله يسترك"

امتلكـت نفـسي فهدأتهـا وجـداد ينظـر إلي يتقطـر مـن كل مسـامه العـرق. وأنـا صامـت لا أفتـح "خشـمي" معـه. هـذه الحادثـة هـي السـبب في علاقتـي بجـداد وثريـا معـا"

"قمت بابتزازه يعني؟"

"ليس تماما"

سـألته عـن علاقتـه السريـة التـي تربطـه بجـداد، فرفـض أن يتحـدث عـن ذلـك مطلقـا.

XIV

كانت سارة هي الأخت الوحيدة التي تتوسط عشرة أخوة ذكور أصغرهم صديقي حسن. وكان قد مضى وقت طويل منذ التقيتها آخرمرة فمنذ انتقلنا للسكن في حاضرة البلاد الكبيرة. فقدت الاتصال به. سألتها عنه وعن أخباره، فعلمت أنه أصبح متطرفا من أتباع العرافين وجداد. فأدهشني ذلك تماما! وأشعل داخلي كثير من الأسئلة. لمعرفة سبب حدوث ذلك لحسن!!

وعندما سنحت لي الفرصة للقاء حسن، قبيل مغادرتي البلاد الأسيرة كان أول سؤال سالته عن تجربته تلك. ضحك وهو يقول:

"ربما كانت تلك التجربة العجيبة، عقاب لي على ما اقترفته من جرائم".

ثم لم يزد. إذ كان حريصا على عدم الإدلاء بتفاصيل سوى عن التطورات التي أعترت المدينة الريفية و جلابي عبر السنوات منذ طفولتنا حتى تلك اللحظة.

وبالفعل شهدت المدينة تطورات وتحولات لا تصدق. فقد تمت إعادة تخطيطها، وإعادة توطين أهاليها بشهادات بحث تثبت ملكيتهم للأرض، التي شيدوا عليها منازلهم.

وقد قامت الحكومة الجنجويدية التي تلت حكومة أبولكيلك الجنكويزي، بإدخال الخدمات الأساسية، فشقت الشوارع ورصفتها، وأدخلت شبكة المياه والكهرباء والغاز.

حتى أن الكهرباء والغاز جعلت حسابهما، بعداد إليكتروني من الأنواع الحديثة، أطلق عليه الناس إسم "الجمرّة الخبيثة" وأنشأت

عـددا مـن المـدارس في مراحـل التعليـم المختلفـة. وخططـت سـوق "الحـر" الـذي كان اسـمه سـوق "العـصر" ومنحتـه اسـما جديـدا (السـوق الشـعبي للريفيـة)، ووزعتـه عـلى الأهـالي الذيـن شـيدوا عليـه، دكاكـين الطـوب الأحمـر والخرسـانة المسـلحة.

كـما افتتحـت عـدد مـن الكازينوهـات والحدائـق العامـة بعـدد مـن أنحـاء جـلابي عـلى اسـتحياء.

في الوقـت نفسـه، كانـت جـلابي ود عـربي وامتداداتهـا، قـد شـهدت تحـولا إلى النقيـض. فقـد اسـتطالت عمرانيـا، وظهـرت طبقـة جديـدة مـن التجـار، وتـم الاسـتيلاء عـلى الجامـع مـن جـداد. ووضـع تحـت الإشراف المبـاشر للأوقـاف والشـؤون الدينيـة.

التـي قامـت بتجديـده وتحديثـه وتوسـعته. فاصبـح تحفـة فنيـة، جذبـت إلى العبـادة عـددا كبـيرا مـن النـاس. لم يشـهد لـه تاريـخ جـلابي الدينـي مثيـل. تقلصـت مسـاحة الجريمـة والفقـر، وأصبحـت جـلابي تعـرف بمدينـة "الفـردوس" الراقيـة ذات العـمارات السـوامق، والعربـات الفارهـة!

نـسى أهـالي جـلابي. كل فـترات الضّنـك والبـؤس الـذي حكـم تاريخهـم المديـد. أصبحـت الأبخـرة القديمـة، والروائـح السـبخة المشـبعة بالعطـن، محـض تاريـخ وذكريـات، فمدينـة الفـردوس لا تفـوح منهـا الآن سـوى رائحـة "الدّلكـة والكّبّريـت ودّخـان الطلـح" والصنـدل والعطـور الباريسـية الغاليـة..

وانتشر"الـدّش" في كل مـكان. وأصبـح المـزاج الفنـي في جـلابي أكـثر رقيـا. فهـم الآن يشـاهدون أفـلام مورجـان فريمـان، ودينـزل واشـنطن وصامويـل إل جاكسـون وانجلينـا جـولي وجوليـا روبرتـس وفورد هاريسـون وريتشـارد غـيرد، وويـل سـنايبس، إلـخ مـن الممثلـين والممثـلات المميزيـن، الذيـن ارتبطـوا في الذهـن العـام لجـلابي (الفـردوس) بالرعايـة الخاصـة،

التـي ظـل يقدمهـا جـورج بـوش (الأب) الـذي كأسـلافه ريغـان وكارتـر أولى جـلابي عنايـة خاصـة. مـا جعلهـا تكّـن لـه احترامـا كبـيرا!

كان صديقـي حسـن لا شـك يسـخر منـي.. يخـرج لسـانه ويهـز أذنيـه بإبهاميـه!

XV

هـا هـي برهـة اللحظـة الشـاهقة، تتقلـص في وحـدتي، حيـث أطـل مـن أعـلا شرفـات خاطـري، الـذي هيجتـه ذكريـات جـلابي ود عـربي. وهـا أنـا أخـرج مـن الأحـوال المنسـية، متلفتـا بـين المتـوّن والحـواشي، طـاردا مـن ثقـوب ذاكـرتي، رائحـة الخميرة التـي حملهـا التاريـخ المنـسي لجـلابي: تاريـخ المـكان والنـاس الناهـض، في الـرّوث وأبخـرة الخمـر البلـدي، ورائحـة الجنـس والعـرق..

كان دمـي يسـيل عـلى الشـارع، والبُرهـة تتقلـص شـيئا فشـيئا، لتتجمـد في لحظـة واحـدة، هـي اللحظـة التـي كنـتُ أقـف فيهـا، مـع المـيرم كلتـوم، في قلـب ميـدان التحريـر، وهـي تتلقـى ذلـك الهتـاف، الـسري السـماوي البعيـد!

نعـم وقتهـا كنـا في ميـدان التحريـر قبالـة التمثـال، ومـع آخـر كلـمات الهاتـف، بـدى ميـدان التحريـر فارغـا إلا منـا! وشـاب بهالـة ملائكيـة يتهـادى في مشـيته مـن بعيـد باتجاهنـا مـن قبالـة الشـارع، المفـضي لتمثـال طلعـت حـرب!

رأيـت في طيفـه عبـد الرحمـن ود التـوم (العويـر) وأدركـت مـن ارتباكها انـه حقـا هـو.. نعـم كانـت المـيرم كلتـوم مرتبكـة ومتنازعـة، تقلـب بصرهـا بينـي وبينه.

ثـم حسـمت أمرهـا فمضـت تجاهـه، إلى أن اقتربـا مـن بعضهـما وتخـاصرت أصابعهـما. و دلفـا إلى شـارع القـصر العينـي.

كنـت واقفـا أمعـن فيهـما النظـر إلى أن تلاشـيا في الشـارع الخـالي إلا منهـما، فـرددت بـصري وأنـا أشـعر بميـدان التحريـر، يمتلـئ فجـأة بالنـاس

و الضجيج يملأ شارع القصر العيني، والزحام يعيق المرور في الشارع المفضي إلى قصر عابدين.

كانت الحياة قد عادت إلى طبيعتها، في اللحظة التي تهشمت فيها طبيعتي، فآخر ما التقطته عيناي. عربة نقل كبيرة قادمة نحوي بسرعة.. ثم لم تلتقط أذني بعد ذلك سوى صرير عجلاتها وهي تطأني..

عندما استيقظت لم أجد العربة. لم أجد ميدان التحرير.

تلفت حولي كنت في قلب ساورا، فأدركت أن الحلم لا زال يلقي بي من مكان إلى مكان، ومن زمان الى آخر.

إنتهى الجزء الأول

(المخطوطة السرية لجلابي ود عربي)

يليه الجزء الثاني:

(ساورا.. مملكة الجبل)

فالجزء الثالث:

(تجاعيد ذاكرة البنجوس)

أحمد ضحية

كوستي 1997

القاهرة 2006

روجعت **2020**، لانسينغ، ميتشيغان.